الأعمال النثرية

MAHMOUD DARWISH



مكتبة



3 محمود درويش
الأعمال النثرية

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط



telegram @soramnqraa



مؤسسة محمود درويش
Mahmoud Darwish Foundation
رام الله - فلسطين
هاتف: 2408587 2 970+، فاكس: 2408587 2 970+
www.darwishfoundation.org
info@darwishfoundation.org



الأهليّة للنشر والتوزيع
المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردنّ
: AlAhliaBookstore
: alahlia_bookstore



دار الناشر
DAR AL-NASHER
هاتف: 2961911 2 970+ رام الله، فلسطين / 5694861 6 962+ عمّان، الأردنّ
info@enasher.com www.enasher.com

الأعمال النثريّة الكاملة (3)
في حضرة الغياب؛ حيرة العائد؛ أثر الفراشة
محمود درويش / فلسطين
الطبعة الأولى، 2019

الخطوط وتصميم الغلاف: **زهير أبو شايب**، هاتف: 95297109 7 962+

الصف الضوئي والإخراج الداخلي: **مؤسسة الناشر**

الترقيم الدولي ISBN 978 9950 386 81 8



محمود درويش

الأعمال النثرية

3

في حضرة الغياب

حيرة العائد

أثر الفراشة



تتقدم مؤسسة محمود درويش بخالص شكرها
إلى عائلة الشاعر محمود درويش
لمنحها حقوق الطبع لكامل أعماله الخالدة

الأعمال النثرية



محمود درويش

في حضرة الغياب



في حضرة الغياب

نص

يقولون: لا تبعد، وهـم يدفنونني

وأين مكان البُعْد إلّا مكانيا؟

مالك بن الريب

I

سَطْراً سَطْراً أَنثركَ أَمامي بكفاءةٍ لم أُوتَها إلّا في المطالع /

وكمـا أَوصيتَني، أقِفُ الآن باسمكَ كـي أشكر مُشَيِّعيكَ إلى هـذا السفر الأخير، وأدعوهم إلـى اختصار الوداع، والانصرافِ إلى عشاءٍ احتفاليّ يليق بذكراك /

فلتـأذنْ لي بأن أراكَ، وقـد خرجتَ مني وخرجتُ منك، سالمـاً كالنثـر المُصَفَّى علـى حجرٍ يخضـرّ أو يصفرّ في غيابك. ولتأذن لي بأن ألُـمّكَ، واسمَكَ، كما يلمُّ السابلةُ ما نَسِيَ قاطفو الزيتون من حبّات خبّأها الحصى. ولنذهبنَّ معاً أنا وأنت في مَسَارَيْن:

أنت، إلى حياةٍ ثانية، وَعَدَتْكَ بها اللغة، في قارئ قد ينجو من سقوط نَيْزَكٍ على الأرض.

وأَنـا، إلى موعدٍ أرجأتُـهُ أكثرَ من مرَّة، مع مـوتٍ وَعَدْتُهُ بكأس نبيذٍ أحمرَ في إحدى القصائد. فليس على الشاعر من حَـرَجٍ إن كذب. وهو لا يكـذب إلّا في الحب، لأن أقاليم القلب مفتوحة للغزو الفاتن.

أمّا الموت، فلا شيء يُهينُهُ كالغدر: اختصاصِهِ المُجرَّب. فلأذهـبْ إلى موعدي، فور عثوري علـى قبرٍ لا ينازعني عليه أَحدٌ من غير أَسلافي، بشاهدةٍ من رخام لا يعنيني إن سقـط عنها حرف من حروف اسمـي، كما سقط حرف الياء من اسم جدِّي سهواً.

ولأذهبـنَّ، بلا عُكَّاز وقافيـة، على طريـق سلكناه، على غيـر هدى، بلا رغبـة في الوصول، من فـرط ما قرأنا من كُتُب أنْذَرَتْنا بخُلُوِّ الذرى مما بعدها، فآثرنا الوقوف على سفوحٍ لا تخلو من لهفـة الترقّب لما تُوحي الثنائيّاتُ من امتنانٍ غير مُعْلَنٍ بين الضدِّ والضدّ. لو عرفتُكَ لامتلكتُكَ، ولو عرفتني لامتلكتني، فلا أكون ولا تكون.

هكذا سَمّينا، بتواطُؤٍ إيقاعيّ، ما كان بيننا من هاويةٍ سفحاً.

ونسَبْنَـا إلى كتب قرأناهـا عجْزَنا عن الوصول على ذروة تطـلُّ على عَدَمٍ ضروريٍّ لاختبـار الوجود يا صاحبي! يا «أنـا» ي النائمَ على بزوغ البياض مِن أبدية، وعلى تلويحِ الأبديـة ببياضٍ لا لون بعده. فبـأيِّ معنى من معانيكَ أُقيم الشـكل اللائقَ بعَبَـثٍ أبيض؟ وبأيِّ شـكلٍ أَحمي معناك مـن الهباء... ما دامـت رحلتنا أَقصرَ مـن خطبة الكاهن فـي كنيسة مهجورة، في يوم أَحدٍ، لـم يسلم فيه أحدٌ من غضب الآلهة؟

لكنك مُسَجّى أَمامـي، أَعني في كلامي الخالي من عثورِ الاستعـارات على مصادرها، وعلى رابطٍ خفيٍّ بين أرضٍ متديِّنـةٍ، وسمـاء وثنيَّة. مـن هناكَ إلى هنـاك يرحل الغيم برفقـة قمر لم يحرمنـا افتضاحُ سرِّه الصخـريّ من تذكُّر حُبٍّ سابق. ولـم يمنعنا جفافُ القلب من مداواة أوجاع المفاصـل بذكرى التمدُّد على العشـب، تماماً كما أنت مسجّـى أمامي فـي كلامي الذي لن يخذلـه غدٌ شخصيٌّ كفَّ عن الخداع، لا لأنه تأدَّب وتهذّب، بل لأنه يحتضر الآن ويصيـر إلى خبر، لا عَـدُوَّ له ولا صديق... خبر عن مسافرين اثنيـن، أنت وأنا، لم يفترقا في مرآة أو طريق... لـم يفترقا إلّا لساعاتٍ يتأكَّدان خلالهـا من سطوة الأنثى على الذكر /

حيث يرى المرء نفسه في حرائق البرق، كما هي، معافاةً مُصَفَّـاة من شوائب التشبيه بما ليس موتاً يُحْيِي... وحياةً تُحيـا على حصَّة العاشق من سخـاء المودة بين المخلوق والخالـق. فـلا جنة معلنـة بالحواسـ وبالحدسـ سوى العاشقة، ولا جحيم إلّا خيبة العاشق.

فلتـأذنْ لـي، إذاً، ونحـن نفترق علـى هذا البـرزخ، بأن أَفسخ العَقد المبـرم بين عبثٍ وعبث، فلا نعلم مَن انتصر منـا ومن انكسـر، أنا أم أنت أم المـوت، لأننا لم نعترف من قبـل، لننتصر، بأن العدوَّ أذكى منـا وأدهى، فلا شيء يغوي الهزيمة أكثر من مجافاة هذا الاعتراف، يا صاحبي المُتْـرَفَ بالأوصاف النقيضـة، المُسْرِفَ في البحث عن عبـث لا بُدَّ منه لتدريب النفس علـى التسامح، ولتحظى بنعمـة التأمُّـل فـي مـاء يضحك فـي الغمـازات، ويطيرُ فراشاتٍ فراشات تخلق الشعر من كل شيء حيّ. فالخفَّة، كالندى، قاهـرةُ المعدن، وعذراء الزمن، هي التي تدرِّب الوحش على النفخ في النايات /

فـلا تصالح شيئـاً إلّا لهذا السبب المبهـم، ولا تندم على حـرب أَنضجتك كمـا يُنْضـجُ آبُ أكـوازَ الرّمـان على

منحـدرات الجبـال المنهوبـة، فـلا جهنـم أخـرى في انتظارك. ما كان لك صار عليك /

وعليـك أن تدافـع عن حـروف اسمـك المفكَّكة، كما تدافع القطَّـة عن جِرائها. وعليك ما عليك: أن تدافع عن حقِّ النافـذة في النظر إلى العابرين، فلا تسخرْ من نفسك إن كنـت عاجزاً عن البرهان، الهواء هو الهواء ولا يحتاج إلـى وثيقـة دم. ولا تندم... لا تندم على مـا فاتك، حين غفـوت، من تدوينٍ لأسماء الغزاة في كتاب الرمل، النمل يروي والمطر يمحو، وحيـن تصحو لا تندم لأنك كنت تحلم، ولـم تسأل أحداً: هل أنت من القراصنة؟ لكنَّ أحداً مـا سيسألك: هل أنت من القراصنة؟ فكيف تزوِّد البديهةَ بالوثائق والبنادق، وفيها ما يكفيها من محاريثَ خشبية، وجـرارٍ من فخّار، وفيها زيت يضيء وإن لـم تمسسه نار، وقرآن، وجدائل من فلفل وبامية، وحصان لا يحارب /

فلا تعاتب أسلافك على ما أورثوك من براءة النظر إلى التلال بلا استعدادٍ لتلقِّي الوحي من سماء خفيضة، بل لعدِّ النجوم على أصابع يديك العشر. فأنّى لك أن تثبت البديهة بالبرهان، والبرهان متعطِّش لنهب البديهة تعطّش القرصان إلى سفينة ضالة؟ البديهةُ عزلاء كظبي مطعون

بالأمان، مثلك مثلك، في هذا الحقل المفتوح لعلماء الآثار المسلحين الذين لم يكفّوا عن استجوابك: مَنْ أنت؟ فتحسستَ أعضاءك كلها، وقلتَ: أنا أنا. قالوا: ما البرهان؟ فقلتَ: أنا البرهان. فقالوا: هذا لا يكفي، نحتاج إلى نقصان. فقلتَ: أنا الكمال والنقصان. فقالوا: قل إنك حجرٌ كي ننهي أعمال التنقيب، فقلت لهم: ليت الفتى حجرٌ، فلم يفهموك /

وأَخرجوك من الحقل. أما ظلّك، فلم يتبعك ولم يخدعك، فقد تسمَّر هناك وتحجَّر، ثمّ اخضرّ كنَبْتَة سُمْسُم خضراءَ في النهار، زرقاء في الليل. ثم نما وسما كصفصافةٍ في النهار خضراءُ، وفي الليل زرقاءُ /

مهما نأيتَ ستدنو / ومهما قُتِلَت ستحيا / فلا تظننَّ أنك مَيْتٌ هناك / وأنك حيٌّ هنا / فلا شيء يثبت هذا وذلك إلا المجاز / المجاز الذي درَّب الكائنات على لعبة الكلمات/ المجاز الذي يجعل الظلّ جغرافيا/ والمجاز الذي سيلمّك واسمَكَ / فاصعد وقومَك / أعلى وأبعد مما يعدّ تراث الأساطير لي ولك / اكتب بنفسك تاريخ قلبك / منذ إصابة آدمَ بالحبِّ / حتى قيامة شعبك / واكتبْ بنفسك تاريخ جنسك / منذ اقتبست من البحر إيقاعه

ونظـامَ التنفُّس / حتى رجوعك حيّاً إلـيّ / فأنت مسجّى أمامي / كقافية غير كافية لاندفاع كلامي إليك / أَنا المرثيُّ والراثـي / فكّني كي أكونك / قُـمْ لأحملك / اقترب مني لأعرفك / ابتعد عني لأعرفك !



II

وُلدنـا معاً على قارعة الزنزلخـت، لا توأمين ولا جارين، بل واحـداً في اثنيـنِ أو اثنين في واحد. لـم يصدِّق أحد من الجالسين في ظلِّ شجرة التوت أنك ستحيا، من فرط مـا شَرَقْتَ بحليب أُمك واختنقت. نحيلاً كنتَ كخاطرةٍ عابـرة. نحيلاً كنبتـة شعيرٍ خاليةٍ من الحَـبّ كنت. لكن لشهر آذار، القادر علـى سفك دم المكان شقائقَ نعمان، مهارةَ الإنقاذ من موت مبكر لا تنساه إلَّا لتتذكر أن الحياة لـم تأت إليك علـى طبق من ذهب أو فضّـة، هاشَّةً باشَّةً، بـل جاءتك على استحياء كجاريـةٍ مدفوعةِ الأجر، صعبة وعذبـة، وشديـدة الممانعة. لكن التدريـب الطويلَ على الألفة هو ما يجعل الحياة ممكنة.

وممكنةٌ هي مراوغة الثعالـب، أولى حيواناتك الماكرة، بعيونها الخضراء أُنثوية الإغراء... تخافها ولا تقوى على الابتعاد، كجاذبيةٍ تدفعك إلى الرغبة في القفز من علٍ إلى جُرْف أو هاوية.

هكذا سكنتك منذ البداية فتنة الثعلب والهاوية،

وجرَّك فضولُ القطط، دون حذرها، إلى ملامسة الخطر. فغافَلْـتَ أهلـك المشغولين بفـرم أوراق التبغ بسكاكين حـادة، وتناولتَ إحداها ووضعـتَ على شفرتها ركبتك اليسـرى، وضغطـت لتعـرف إن كانت السكيـن تفعل بلحمك الطريّ مـا تفعله بأوراق التبـغ، ففاجأك السائل الأحمـر. ولم تتوجَّع إلّا حين نزعوا السكين من ركبتك، وضمّدوا جرحك وعاقبوك على طيش التجربة.

هكـذا رأيتَ الدم الأول... دَمَـكَ الذي علّمك أن الندبة ذاكـرة لا تكفّ عن العمـل، كلما نظـرت إليها شممت رائحـة التبغ الذهبيِّ، وعبـاءةَ جدك المعلقـة كخيمة في الريـح. وكلمـا لمسـتَ الندبـة استمعت إلى بـكاء الدم وكرهـت الحنـاء... علـى أيـدي العرائـس وأَقدامهنَّ، وأَشَحْـتَ بوجهـك عـن رقصـة الديك الأخيـرة، وعن خروف العيد، ولم تشارك أترابك لعبة تعذيب العصافير /

وحلمت، وما زلت تحلم حتى الهزيع الأخير من الحلم، بأنّ عصفوراً حطَّ على يـدك، فضممته وشممته وفاحت من ريشه رائحة الصيف، ولثمته، ثم كلمته قائلاً: يا أَخي! عُدْ إلى فضائك، فعاد إليك في حلم الليلة التالية.

كأنـك طفلي، كأني أَبوك. ولم يدلّلـك أبوك لئلا يرميك إخوتك في جُبّ الحكاية. فاحملني كما حملتك، لأرى مـن بعيد إلى ذلك الأزرق المنسـاب من كل بعيد تُصَفّيه المسافة من كل شائبة، ففي الحكاية حقل أوسع مما كان.

ولم أكن طفلاً آنذاك، ولكني هو الآنَ في وداع يفتح لفعل الماضـي الناقص باب المدائح علـى مصراعين: المكان المفقود، والزمان المفقود. ليس المكان هو الفخ إذ يصير إلـى صورة، ففـي الذاكرة ما يكفي مـن أدوات التجميل لتثبيت المكان في مكانه، وما يكفي لترتيب الأشجار على ذبذبـة الرغبة، لا لأنه فينا وإن لـم نكن فيه، بل لأن الأمل هو قوة الضعيـف المستعصية على المقايضة. وفي الأمل ما يكفي مـن العافية لقطع لمسافـة الطويلة من اللامكان الواسـع إلى المكان الضيّق. أمـا الزمان الذي لم نشعر به إلّا متأخرين، فهو الفخ الذي يتربَّص بنا على حافة المكان

الذي جئنا إليه متأخرين، عاجزين عن الرقص على البرزخ الفاصل بين البداية والنهاية!

فاحْمِلْني كما حَمَلَتْكَ الفراشاتُ إلى مدارج الضوء، خفيفاً مثلها، كلما انبلج الصبح من ثوب بابك الخشبي، وانهمرت ألوانٌ طائرةٌ لم تعرف أسماءها، كخواطرَ سماويّةٍ مبعثرة، على حقول خالية من الجيش. هناك، حسبتَ أن الأرض تطير وترقص. فوقفت على صخرةٍ وفتحتَ ذراعيك للريح وقفزت إلى أعلى لتطير، فأحاطت بك الفراشات كشقيقات، وأعانتك على الطيران... ولم تفلح. لكنها أدخلتك إلى مدار اللازورد، ودرّبتك على فقه العزلة. فابتعدت عن البيت، وخلوت إلى الشجر الذي لم تعرف من أسمائه إلّا ما خفَّ لفظه، كالزيتون والخرنوب والسنديان والبلُّوط. ولم تعرف من أسماء النباتات إلّا الخبيزة والهندباء ذات الزهر الليلكي كلون عيني جدتك.

هناك سكنتك فتنة الطيران والعزلة. وهناك، حاولت أن تولد من حلمك، دون أن تدرك الفارق بين الحلم والخيال. في مساءٍ ما، تسلَّلتَ من خلوتك الشجرية إلى بوابة الدار الجنوبية ودعوت الحصانَ إلى الخروج معك،

فأطاعـك وخرج. وعلى محـاذاة صخرة عاليـة أوقفتَ الحصـان الفاتـن وقفزت علـى ظهر أملـس دون سرج. قـادك، كما يقود الهـواءُ سحابةً، إلى منحـدرٍ يؤدي إلى حقل لا نهايةَ له. فهمزْتَـهُ فاستجاب، وصار الهواء ريحاً فانتشيت: إنـي أطير. كل شيء يطيـر. الشجر، الأرض، الجهـات، النباتـات، الريـح. ولا غايةَ من هـذا الطيران سوى لـذة الطيران إلى المجهول، حتـى هبط الليل على المجهـول وعلى المعلوم، وصار المكان أعمى. لم تعلم أنك قد سقطت. لكن الحصـان العائد بلا فارسه الصغير هـو مَنْ دلَّ أهلك على موقع طيشك. ضمدوا الجرح في حاجبك الأيمن، ثم عاقبوك.

أمـا الندبة على حاجبك الأيمـن، الندبة التي لا تراها غير الأنثى الخبيرة باستجـواب قلب الذكر فهي ذاكرة فراشة تقلِّد نسراً.

وعلـى سبابة يدك اليسـرى ندبة أخـرى. جلست وبنتاً صغيرة كيمامتين على حجرين في كرم زيتون. سأقاسِمُكِ هـذه التفاحة، قلتَ لهـا، وأنت تنظر فـي عينيها وتمرِّر السكّين الصدئة علـى إصبعك بدلاً من التفاحة. خافت مـن الدم وهربت وأنـت تناديها: خـذي التفاحة كلّها!

وداويـت جرحك بحفنة مـن تراب مخلـوط بالعشب اليابس.

لم أسألك وأنت تكبـر أمامي عما يجعلك تجرح نفسك كلما غبت في حضـور، أَلِكي تثير الانتباه، أم لتعوِّد الألم على رائحة البصل؟

سَمَّوكَ الشقـيَّ، وأنت أطلقت على طائـر الدوريِّ لقب الشقـي. هـو شبيهك فـي التوتّر، ونقيضك فـي الحذر. لكنك أحببت مهارته العالية في مراوغة الصيّاد، فلا عشّ له إلّا الحيلة. وأَحببتَ فيه حيرةَ اللون بين الحنطة والضوء، وخفةَ الطيران على ارتفاع منخفض وعال برفرفة واحدة، ومخاتلـةَ المشي بين الناس، بلا وجل، كمخبر قادر على الإفلات من قبضة اليد الخائبة.

وسَمَّـوكَ الشقيَّ لأنك تبكي من فـرح أو من حزن، دون أن يُؤَوِّل أحدٌ صوتَ الريـح في قَصَب سرعان ما يتحوَّلُ نايات. ماذا يقـول الناي؟ هل يحمل في ما يحمل هذيان الريح، أمْ ينقل فرح الرُّعاة بولادة حَمَل جديد، أم خوفهم من قطيع ذئاب يحاصر قطيع الأغنام؟. يستدرجك الناي إلـى البعيد، وتبكي كمن يستبق الفاجعة. لا غيم أسود في الأفق /

فلمـاذا تبكي والمـوت بعيـد؟ / وحديقةُ بيتـك عاليةٌ / والشرفة عالية / والصفصافةُ عاليةٌ / فلماذا تبكي / وطريق التّبانة واضحـةٌ / والليل يُضيئك مـن خصلة شعرك حتى أخمصـ قدميك؟ / وأنت تطيـع الناي وتركض تركض / لا ذئـبٌ يعوي في الليـل على قمر أصفـر كالليمونة / لا شبحٌ يطلع من جذع الزيتونة كي يغتال أباك / لماذا تبكي؟ / هـل خوفك من فرح يبكيك؟ سألتـك / لكني أدرك أن هواء الليـل على جبلٍ مثقوب بالناي سيرشح دمعاً سمَّيناه نـدى / ستصير غداً نَاياً سحرياً / قلت / فلم تسمعني / لم يكبـر جرحك بعـد / فلا تتركني في هـذا الوادي أبحث عنك سدى / لم تسمعني /

والآن وأنـت مُسَجَّـىً فـوق الكلمـات وحيـداً، ملفوفاً بالزنبق، والأخضر والأزرق، أدرك ما لم أدرك:

إن المستقبل مُنْذُئذٍ،

هو ماضيك القادم !

III

للحـروف البيضاء على اللوح الأسـود مهابةُ فجر ريفيّ. وكما يَصُبُّون الماء، على مهل، في جَرّة لا تمتلئ، تشرَّبتَ الشكل الناقص وصوته معاً، بتعذيب الحنجرة وتطويعها للإشارة، وبإخضاع الحل لما تراه العينان.

حتـى يُجْمَـعُ حـرفٌ إلى حـرف، أي عَبَـثٌ إلى عبث، يُسْفِرُ غامضُ الشكل عـن وضوح صوتٍ ما، ويفتح هذا الوضوح البطـيء مجرى لمعنى له صـورة، فتصير ثلاثة أحرف بابـاً أو داراً. وهكذا تبني حروفٌ خاملة، لا قيمة لها إذا افترقت، بيتاً إذا اجتمعت.

يـا لها من لعبة! يـا له من سحر. يولد العالـم تدريجياً من

كلمات. هكذا تصيـر المدرسة ملعباً للخيال... فتركض إليهـا بفرح الموعود بهدية اكتشـاف، لا لتحفظ الدرسٍ فحسب، بل لتعتمـد على المهارة في تسمية الأشياء. كلّ بعيـدٍ يقتـرب. وكل مُغْلَقٍ ينفتح. إذا لـم تخطئ في كتابة كلمةَ نهر، فسيجري النهرَ في دفترك. السماء أيضاً تصبح جزءاً من مقتنياتك الشخصية إذا لم تخطئ في الإملاء.

كلُّ مـا لا تبلغه يداك الصغيرتان مُلْكُ يديك الصغيرتين إذا أَتْقَنْـتَ التدوين بلا أخطاء. من يكتب شيئاً يملكه. ستشمُّ رائحـة الوردة من حـرف التاء المربوطـة كبرعم يتفتح. وستتـذوَّق طعم التوت من جهتين: من التاء المُتَّصلة ومن التاء المفتوحة كراحة اليد /

الحروف أمامك، فخذْهـا من حيادها والعب بها كالفاتح فـي هذيان الكـون. الحروفُ قلقـة، جائعة إلـى صورة، والصورةُ عطشى إلى معنى. الحـروفُ أواني فخّار فارغةٌ فاملأهـا بسهر الغـزو الأول. والحروفُ نـداءٌ أخرسُ في حصى متناثر علـى قارعة المعنى. حُكَّ حرفاً بحرف تولد نجمة، قـرِّب حرفاً من حرف تسمع صـوت المطر، ضَعْ حرفاً على حرف تجد اسمك مرسوماً كَسُلّم قليل الدرج /

كُلُّ الحروف جاهزة لاستقبال الشكل / الكائن، الباحث

عـن يد ماهرة تخلق الحاجة إلـى الانسجام. ما عليك إلّا أن تسمِّـي بيدك كائناتٍ تعرفها من قبل، وكائنات تعرِّفك على نفسها فيما بعد. /

ويَسْتَهْويـكَ حـرفُ النون المستقل كصحـن من نحاس يتسـع لاستضافة قمر كامـل التكوين. يرنّ و يحنُّ إلى أي امتـلاء ولا يمتلئ، ولا يكفّ عن الرنين مهما ابتعد ومهما ابتعـدت. سيكبر فيك وتكبـر فيه، ويُحْيِيـكَ، ويُقْصِيكَ عـن نفسك كَحُـبٍّ ملحـاح، ويُدنيكَ مـن الآخرين... نـون النسوة والجماعـة والمُثَنَّى وقلـب «الأنا» وجناحا «نحـن» الطليقان. ستأخذك سـورة الرحمن إلى الإيمان المصحوب بالطرب، فتحبُّ اللّه وتشفى من قلق السؤال الأول: «من خلق اللّه»؟ /

وتحـبُّ الشعر ويأخذك الإيقـاعُ المهموزُ بحرف النون إلى ليل أَبيض. كلمات تنقل فرساناً من حب الحرب دفاعاً عـن بئر الماء، إلى حرب الحب دفاعاً عن أميرة مخطوفة فـي بلاد الجـن. لا تستقيم الحكايـة إلّا بثلاثية الفروسية والشعر والحب. مقادير يصارعها السيف والقصيدة معاً، فـلا تكون غلبـة إلّا بهمـا مجتمعين. لم تنتصـر قبيلة بلا شاعر، ولم ينتصر شاعر إلّا مهزوماً في الحبّ.

حيـن ينفضّ الساهرون من ديوان جدِّك، ويحملك جدك إلى النـوم، تكون الحكاية قد هَيَّأتـك لتحلم وفق خيالها المفتـوح: ستتابع حـروب عنترة تـارة، والمهلهل تارة. وستدخل غرفـاً لا تعرفها في تناسل الحكاية من الحكاية فـي ليالـي شهرزاد التـي لا تبلغ النهاية، فتصيـر جزءاً من حكاية في عالم سحريّ التكوين لا يشبه شيئاً مما حولك.

هكذا سكنتك فتنة الإيقاع والحكاية.

فابتعـدتَ، وحيَّرك الخيط المقطوع بين الواقع والخيال، بين حرب تُروى وحرب تُرى.

فـي مساء ما، رأيت نساء الحيّ ذاهبـاتٍ آيبات بحماسة، يحملن علـى رؤوسهن أكياساً ملأى بحجـارة يكدِّسنها على سطـوح المنـازل كالذخيرة، والرجـال منهمكون بتدبيـب رؤوس العصيّ بالمسامير. ما هذا؟ سألت، فقيل لك: غداً، صباحاً تندلع الحرب بين الحمولتين الكبيرتين فـي القرية. لنا حلفاء مـن الأنسباء ولهم حلفـاء... لكننا سننتصـر. لم تسـأل عن سبب الحرب، فلعلّـه الضجر أو خـلاف على ظـلِّ شجرة، ولعلَّـه اختـراع حكاية. لكن المعركـة التي امتدت من الصباح إلى المساء لم تسفر عن قتلـى أو نصر، بل فتحـت أبواب السجـون للمحاربين،

وأَغلقتْ باب الحكايات في دار جدِّك. وكان عليك أن تبكي من فقر الليل. وكان عليك أن تكمل الحكايات وحدَك وعلى قدر حلمك، بلا رُواة ومعاونين!

أما الحروف البيضاء على اللوح الأسود، فقد تشقّقت ككلس صدئ، لأن كابوساً ما رافقك إلى المدرسة: هل مات أَبي؟. وحين يسألك المعلم: ما معنى هذه الجملة: «انتظرِ السيارةَ حتى تعبر» تجيبهُ وأنت شارد الذهن: يعني إذا رأيت سيارة على الشارع، فلا تمشِ على الشارع حتى تزمِّر السيارة. يضحك المعلم: ما علاقة تعبر بـ تزمِّر؟ فتقول: أليست كلمة «تعبر» هي «تزمِّر» لأن للسيارة زُمَّارة. فيقول لك موبّخاً: تعبر معناها تمرّ. حتى الآن، وبعد ستين عاماً من هذه الوعكة اللغوية، ما زلت تسمع صوت الزمّور كلما قرأت أو سمعت كلمة «تعبر». وتضحك في سرِّك من قدرة الأخطاء الأولى على الحفر في الصخر. وتسأل: متى أشفى من تعريف الكلي بالجزئيِّ؟ فالريشة ليست هي الطائر، والشجرة ليست هي الغابة، والعتبة ليست هي البيت.

لكن الكلمات هي الكائنات. ستسحرك اللعبة حتى تصبح جزءاً منها. وستقضي العمر في الدفاع عن حق

اللعبة في استدراجـك إلى المتاهة، وفي استدراجها إلى الفكاهة. تقرأ ولا تفهم ما تقرأ، تقرأ أكثر مستمتعاً بقدرة الكلمـات على الاختـلاف عن العـاديّ. الكلمات هي الأمواج. تتعلَّـم السباحة من إغواء موجة تلفّك بالزبَد. وللكلمات إيقاع البحر ونداء الغامض: فلتأتينّ إليَّ إليَّ بحثـاً عما لا تعـرف – نـاداك الأزرق. وأَنقذك الحَظّ وحَرَسُ الشاطئ من انقطاع أكيد مع صوت الكلمات. لكـن قنديل البحر مـا زال يحـكّك دون أن تتوب عن حـبّ البحـر، ودون أن تعلـم أن البحـر هـو مصـدر الإيقـاع الأول. فكيف يسجن البحر في أحرف ثلاثة، ثانيها طافـح بالملح؟ كيف تتسـع الحروف لكلّ هذه الكلمات؟ وكيف تتسع الكلمات لاحتضان العالم؟

تكبر علـى مهل وببطء. وتـودُّ لو تقفز أسـرع أسرع في السبـاق إلى غـد تروِّضـ فيه الكلمـات، وتقـول شعراً حماسياً مدفوعاً بقوة الحبّ وبواجب الدفاع عن القبيلة، فينفتح لك السريّ الخفيّ بانفتاح الكلمات على الوعي، فلا تكون لعبةً كما ظننت، بل تحديق الظاهر إلى الباطن، وتجلِّي الباطن في الظاهر، فتكونها وتكونك، فلا تعرف التمييز بين القائل والقـول. ستسمّي البحر سماء مقلوبة،

وتسمّي البئر جرّة لحفظ الصوت من عبث الريح، وتسمّي السماء بحراً معلقاً على الغيوم.

ثمـة شيء يتزيَّـا بالغامض، لا يُشَـمُّ ولا يلمس ولا يتذوق ولا يبصر، هو ما يجعل الطفولـة حاسَّة سادسة، فسمَّوك الحالـم من فرط ما ركَّبتَ للكلمات مـن أَجنحة لا يراها الكبار، وتحرشت بالغامض، واغتربت/

فانهض من هذا الأبيض

عُدْ طفلاً ثانيـة / عَلِّمني الشعر / وعلِّمني إيقاع البحر / وأَرجعْ للكلمات براءتهـا الأولى / لِذْني من حبة قمح، لا من جرح، لِذْنـي / وأَعدني، لأضمَّك فوق العشب، إلـى ما قبل المعنـى / هل تسمعني: قبـل المعنى / كان الشجـر العالـي يمشـي مَعَنا شجـراً لا معنـى / والقمر العـاري يحبو معنا / قمراً / لا طَبَقـاً فضّياً للمعنى / عُدْ طفلاً ثانيةً / علِّمني الشعر / وعلِّمني إيقاع البحر / وخُذْ بيدي / كي نعبر هذا البرزخ ما بين الليل وبين الفجر معاً / ومعاً نتعلَّم أُولى الكلمات / ونبني عشاً سرياً للدوريّ: / أخينا الثالث / عُدْ طفلاً لأرى وجهي في مرآتك / هل أنـت أنا / وأنا أنت؟ / فعلِّمنـي الشعر لكي أرثيك الآن الآن الآن / كما تَرْثيني !

IV

لَكَ لَيْلٌ على هذا الوادي، فاهبط أَسرع من حَجَلٍ مذعور. الهواء ساكن لا يحرِّك ريشة، ولا دليل لرحيلك هذا أوضح من غراب يرافق النازحين إلى حدود الليل /

لـك ليل، ولا إقامـة لنا ولـك، منذ الآن، تحـت أشجار الزيتـون، ولا درب خارج ما ينشره الظلّ الداكن لعرباتٍ نسمعهـا ولا نراهـا. الليـل مكبّرات صـوت. الليل طبلُ الصدى. لك ليل صارخ فاهدأ. واسمك الصغير وأسماؤنا كلهـا تتهيّأ للإقلاع إلـى مصائرها العشوائيـة في فوضى التكوين.

يوقظونـك من زمنك الخاص، ويقولـون لك: اكبر الآن

معنـا في زمن القافلة، واركض منـا لئلا يفترسك الذئب. فلا وقت لنـا لنودِّع أي شيء ساخـن. فاترك بقيَّة منامك نائمـاً على نافـذة مفتوحة، ليلحق بك حيـن يصحو عند الفجـر الأزرق. الحلم هو الذي يجد الحالمين، وما على الحالم إلّا أن يتذكر /

فاخـرج معنا إلى هذا الليل الخالـي من الرحمة. ستعرف فيما بعد كيف تنضِّد الكواكبَ في خزانة الذاكرة، وكيف تعوِّض الخسارة بقوة العبارة وتنتصر. أَمَّا الآن، فلا تنظر إلى النجمة لئـلا تخطفك وتضيع. وتعلَّقْ بثوب أُمِّك ... الدليل الوحيد على أن الأرض تركض حافية القدمين، ولا تبـك كأخيك الصغير، المولود منذ أيام، لئلّا يرشد البكاءُ الجنودَ على جهتنا المرمية في الهواء كيفما اتفق.

لـن يقوى أَحـدٌ علـى إخفاء الوجـع عنك، فهـو مرئيٌّ، ملموس، مسموع، كانكسار المكان المدوّي. وها أنت ذا معنـا ترى الوجع الذي ينهبنـا كل شيء، دفعة واحدة، وينسـلُّ منا كنصـل السكّين جالسـاً قبالتنـا شامتاً، على الضفـة الأخرى لنهـر كان حاجزاً وصـار لفظة حجرية. الوجع يسامرنا، عن بعد، ويعوي كإناث الوحوش: تعالوا إليَّ تعالوا! فلا نذهب ولا نرجع.

لـم نكن بعد في حاجـة للأساطير، لكن مـا حدث فيها يحـدث الآن فينا... في هـذا اليوم المهروسـ بجنازير الدبابة. فمن يروي قصّتنا نحن السائرين على هذا الليل، مطرودين من المكان ومن الأسطـورة التي لم تجد منّا أَحـداً يشهد على أن الجريمـة لم تقع. فإذا لم نكن نحن نحن، فليسوا هم هم. لكن الخصوصية هي الخصوصية، ذريعة السارق.

فـلا تنظر إلى نفسك في ما يكتـب عنك. ولا تبحث عن الكنعانيِّ فيك لتثبت أنك موجود. بل اقبض على واقعك هـذا، واسمك هذا، وتعلّم كيف تكتـب برهانك. فأنت أنت، لا شبحك، هو المطرود في هذا الليل.

لـك ليل. وللحنطـة آباء هم آبـاؤك، وللمنـازل بُناة هم أجـدادك، وللجـرح المبكـر فيك صرخة هـي أنت، لا ولد آخـر أصابه سهواً سهم إلٰهة ماجنـة. هكذا ستكتب عـن تاريخ لا عن أسطورة، فليس من شأن نِساء الملح أن يشهدن عليك أو لك... ولك أن تستعين بآلهة الأساطير، كذاكـرة متخفّية، لتحمـي الشعر من غلبـة الجيش على الإيقـاع وعلى تاريخ القمح، ولتحمـي الزمن من هيمنة الراهـن... فلـك في تعـدّد الآلهـة نصيبٌ مـا من عدل

ممكـن، ولك من هذا الماضي نصيب من طفولة لا تريد أن تشيـخ سريعـاً بلا حكمـة. لكن ما هـو راسخ هو أن اسمك هو اسم الأرض /

ولم تكن للأرض من أنوثة أجمل من الكنعانيات السابحات على السهل والتـلّ مموَّهات بشقائق النعمـان، والمريمية، وعصا الراعي، والنرجس المنحني بجلال الأمير على الماء /

الكنعانيـاتُ الكنعانيـاتُ المزهُـوَّاتُ بصبـوات الربيع، الشهوانياتُ، الطالعاتُ من صهيل الصافنات، ومن تأهُّب النايـات للإمساك بأول الأرض الهارب من الخاصرة إلى جداول ترعى بين أقدامهن /

للاسـم هنا رنَّةُ الفضة، وطعنـةُ الرمح الطائش في خصور الكنعانيات المنذورات لتعليق الأرض، بحروف الأبجدية السامية، على قرون الأيائل !

وليس للاسم هنا قربان الحي للميـت ولا غفران الميت للحـيّ. فالكنعانيـات، وقـد أغواهنّ البابونـج، أخرجن الأرض من وحشتهـا في الكهوف إلى بيوت على شاكلة الإيقاع الحجريّ /

وكنـا أمام البحر شُهُودَ التُفَّاحـات الأولى في الرحيل من

فردوس إلى آخر، وجنوداً لا سلاح لنا غير أعواد الذرة وقُوَّة القمح العظمى /

ورأينا كيف يخضرّ الظلّ ويحمرّ من شمس أريحا، ويبيضّ من رقة سلامنا الحار، سلامنا الزراعي السائر خفيفاً خفيفاً بين نارنا الأولى وما انقطع من رسائلنا الشفهية.

من ريح إلى ريح /

سلامنا المنشور كالأزرق الأبدي على أرض تغطي جرحها الأنثوي بورق التين وبصوف الخراف الساعية بلا أجراس إلى ماء الينابيع /

سلامنا المكشوف كرائحة الفواكه الناضجة الفاضحة في ليالي الأعراس /

فلتغتسلن، أيتها الكنعانيات، بالماء والضوء والحبق، ليمتلئ المكان بأنوثة تهرول خلف قطيع الماعز. الفلفل أيضاً يشرئبّ كأثداء الشاة، ويشهد على سلام الفرح. ويلهب الأفخاذ المُبقَّعة بحليب العنب اللزج /

فاسبحن، أيتها الكنعانيات، اسبحن في النور الساخن، لتطفح قصيدةُ شاعرٍ ما بتراث الماء الصافي قبل الغزو...

شاعر لم يولد على قارعة هذا الرحيل، بل وُلد منذ الأزل، منـذ التقى آدم بحواء لتزجية الأبديـة. شاعر لم يولد، هو وأسلافـه إلّا على هذه الأرضـ المسمّاة بكـنّ، المُدَمَّاة بشوك الورد الذي زرعتن.

لـم تكن بنا حاجة للأساطيـر إلّا لتفسير العلاقة بين القمر والدورة الشهرية، وبين الشمس ودورة الفصول، وإضفاء السحـر على الكلام فـي ليالي الشتـاء الطويلة، وتدريب الوحوش على طاعة النغم.

فتلحفـظْ ليل الألم هذا عن ظهر قلب. فقد تكون الراوي والروايـة والمرويّ، فلا تنس هذا الطريق الضيِّق المتعرج الـذي يحملـك وتحملـه إلى المجهـول العربيـد الذي سيرميك، وأهلَك، بالشبهات.

وتسأل: ما معنى كلمة «لاجئ».

سيقولون: هو من اقتُلعَ من أرض الوطن.

وتسأل: ما معنى كلمة «وطن»؟

سيقولـون: هو البيـت، وشجرة التوت، وقـنّ الدجاج، وقفير النحل، ورائحة الخبز، والسماء الأولى.

وتسـأل: هل تتَّسـع كلمة واحدة من ثلاثـة أحرف لكل

هذه المحتويات... وتضيق بنا؟

وبسرعة تكبر على وقع الكلمات الكبيرة، وعلى الحافة بين عالم ينهار خلفك، وعالم لم يتشكل بعد أمامك... عالم مرميّ كحجر طائش في لعبة أقدار. تسأل نفسك: من أنا؟ ولا تعرف كيف تعرِّف نفسك. ما زلتَ صغيراً على سؤال يحيِّر الفلاسفة. لكن سؤال الهوية الثقيل قد أقعد الفراشة عن الطيران.

تنتحي ركناً قصيّاً على صخرة مهجورة على البحر اللبنانيّ. تبكي كأمير صغير أنزلوه عن عرش الطفولة، قبل أن يُلَقِّنُوه فِقْهَ الرُشْد التدريجيّ، ودرس الجغرافيا الضروريّ لمعرفة المسافة بين «هنا» و«هناك»:

يا بحر، يا بحر... ولا تفلح في تركيب النداء الكافي. لكن حرف الحاء يدرِّب الحلق على بُحَّة الملح: يا بحر، يا بحر! وتبكي، فيذوب قليل من الملح الصاعد إلى العينين، وتتضح وُجْهة النداء: يا بحر، يا بحر... خذني إلى هناك.

يدنو طائر أبيض منك، طائر بحريٌّ، سحريٌّ يهبط برفق إليك، وبرفق يطوي عليك جناحيه ويلمُّك كأنك واحد من فراخ سلالته، ويقلع ويطير على ارتفاع منخفض، فلا

تـدري إن كنت أنت الطائر أم صفـةً من صفاته. تحلقان علـى طـول الساحـل المتعـرِّج المتـدرّج بيـن الأزرق والأخضـر. وبـلا ألم تهبطـان على باحة البيـت الواقف كالأم علـى التلـة. النافذة ما زالت مفتوحـة. يفرد الطائر الأبيضـ جناحيه برفق على سريرك، فتنام خفيفاً كما على غيمة. لكن أصواتاً عالية توقظك فجأة: ماذا تفعل هنا أيها الولـد الأحمق؟ كيف تنام على هـذه الصخرة المهجورة علـى شاطـئ البحر، في مثل هذا الليـل؟ ألا بيت لك ولا أهل؟ فانتبهت إلى أنك تحلم /

لَكَ حُلْمٌ يسبق الشعر، بهيٌّ

ونداءٌ يسبق الإيقاع، بحريّ

كأنَّ الليل هذا

خلوةُ الخالق بالمخلوق:

كن سيِّد أوصافك منذ الآن،

يا ابني لك حُلْمٌ

فاتبعِ الحُلْمَ بما أوتيتَ من ليلٍ! وكن إحدى صفات الحلم

واحلُمْ تَجِدِ الفردوسَ في موضعِهِ !

٧

ظلام، ظلام، ظلام. نجاةُ اللون من التأويل، وخيالٌ يهب الأعشى ما فاته من فروق الإملاء، ومساواةً ترجِّح كفَّة الخطأ. لو خلا الليل منا لعاد صيّادو الأشباح إلى ثكناتهم خائبين. ولو خلا الليل منهم لعدنا إلى بيوتنا سالمين.

الأشجار سوداء عمياء بلا أَسماء وبلا ظلال. وفي كل حجر سرّ ما . كأنَّ الموت الذي لم تره من قبل ينصب فخاخه بدهاءٍ تامّ السرية. فماذا تفعل في هذا الخلاء الكامل لو نقصت هذه القافلة الصغيرة؟ ومن أَية جهة تنجو، وماذا تفعل بنجاتك؟ إلى أَين تأخذها وأنت لا تعرف أيَّ طريق؟

لـم تفكـر بموتـك أنت، فمـا زلـت صغيراً علـى هذه التجربـة، إذ لم تدرك بعـد أَنَّ بمقدور الصغـار أَيضاً أَن يموتوا. لكـن، كيف تمضي وحيداً إلـى حياة لا تعرفها ولا تعـرف مكانها؟ فأبـكاك احتمالٌ يُهيـل عليك، بلا رأفـة، سماءً ثقيلة الوطأة. ويـروي لك، بلا رحمة، نهاية قصـة عن ضياع أبديّ في ليل وحشيّ مُطبِقٍ على بغلتين، وطريقٍ صخـريّ، وسمسارِ حنينٍ يقـود خمسة عائدين إلى خطاهم المعاكسة.

وستـروي إلـى لا أَحد واضـحِ الملامح: لـم يكن لنا من عَـدُوٍّ، وقتئذٍ، إلّا الضوء والصـوت. ولم يكن لنا، ليلتئذٍ، من حليف سوى الحظّ، ينهرك صوت الخوف الخفيض: لا تسعل أيها الولد، ففي السعال دليل الموت إلى مقصده. ولا تشعـل عود الثقاب، أيها الأب، فإنَّ في بصيص نارك الصغيرة إغواءً لنار البنادق.

وخُيِّـل لك أن الليل هذا هو خباء المـوت الواسع، وأنك تمشـي أو تزحـف أو تقفـز كالجندب في بريـة الذئاب الخاليـة من المارة. وخيِّل لك أن الضوء القادم من نجمة شـاردة، أو مـن سيارة بعيدة، هـو أحـد الأدلّاء السرّيين لصاحـب هذه البرية. وعليـك إذا لاح الضوء من بعيد أن

لا تتخذ هيئة شجرة واطئة أو صخرة صغيرة، وأن تحبس أنفاسك لئلّا يسمعك الضوء الواشي.

وستروي لي عندما أتقن التدوين، أو ستروي للا أحد كيف عثـرت هناك، في ذلك الليل، على قرون استشعار جاهزة لالتقاط الرسائل البعيـدة، وكيف تدرّبت على الإقامة في المغامرة، كيف اكتويت بجمرة الثنائيات، وجاهدت في مكابـدة الضد للضد، وتجنَّبت تعريف العكس بالعكس، فليس كل عكس لما هو خطأ صواباً دائماً. وليس الوطن هو النهار، دائماً. وليس المنفي هو الليل...

ظلامٌ يوحِّـد العناصر في كهف الوجود الخالي من الصُّوَر. يطفح المجهول المحمول على عواء الذئاب وعلى هسيس العشـب الدامي. وتمشي خطوةً على خواطرَ سوداء، وعلى صخـرةِ ليلٍ خطوةً. وأنت تسأل في سرِّك عما يجعل العتمة صلبـة، وعمّـا يجعل الحيـاة صعبـة. وتحنُّ إلـى مطر في الجنوب، إلى مطر يذيب هذا الحبر الكوني الهائل، وتقول: لو هطل المطر علينا في هذا الليل لذاب الظلام ورأينا خطانا والطريـق، وقادتنا رائحة المطر إلـى الشجر الذي شبَّ في الغياب ودخلت أغصانه العالية إلى الغرف.

لكن همسـاً مالحاً يأمـرك بأن تنبطح علـى الأرض. هو

الضبـع – يقولون لك وهم يشيرون إلـى ضوء سيارة من بعيـد، ولا يأذنون لك بأن تسأل: هل يقود الضبعُ سيارة؟ لـم تعرف المجاز بعد، فلم تعـرف أن الضبع هو «حرس الحـدود». إذ ظَنُّـوا أن الضبع لمن هو فـي سنك أرحم. فهـو لا يحمل بندقية ولا يعـرف المحاججة. ويكفيك، لتنجو منه، أن تخفي خوفك في جيبك، وتتظاهر بالمشية اللامباليـة. يبتعـد الضوء، وتزدرد الخـوف، وتمشي مع بغلتين، وعائلة، وسمسار حنين على هدي الظلام.

وأَنا الراوي، لا أنت، أُذكِّرك الآن بمنادي قريةٍ كان يقف على سطح بيت ويصرخ: جـاء الضبع. فيهرول عشرات مـن أَمثالـك إلى كهف القريـة، إلى أن يعـود الجنود من حملـة التفتيش عمن عادوا إلـى بلدهـم «متسللين». تلك القريـة المنحوتة فـي سفح جبل ذات بيـوت من جدران ثلاثـة. أما الرابع فهو ظهر الجبل. بيـوت لو نظرتَ إليها من تحت، من كرْم الزيتون، لرأيتَ لوحة عشوائية رسمها فنَّـان أعمى على عجل، صخرةً على صخـرةٍ، ونَسِيَ أن يرشَّ عليها شيئـاً من نعمة اللون، فقـد كان خائفاً من أن يـرى، فجأة، ما صنعت يداه. أَمـا النوافذ فإنها تطل على جهة واحدة: جهة الضبع!

هنـاك، عرفت من آثـار النكبة المدمرة مـا سيدفعك إلى كراهيـة النصـف الثاني مـن الطفولة. فإنَّ كنـزة صوف واحـدة، منتهيـة الصلاحيـة، لا تكفي لعقـد صداقة مع الشتاء. ستبحـث عن الدفء في الروايـة، وستهرب مما أَنـت فيه إلـى عالم متخيَّل مكتوب بحبـر على ورق. أما الأغاني، فلن تسمعها إلّا من راديو الجيران. وأمَّا الأحلام فلـن تجد متسعاً لها في بيت طيني، مبنيٍّ على عجل كقنّ دجـاج، يُحْشَـرُ فيه سبعـةُ حالمين، لا أحـد منهم ينادي الآخر باسمه منذ صار الاسم رقماً. الكلام إشارات يابسة تتبادلونهـا في الضـرورات القصـوى، كأنْ يغمى عليك من سـوء التغذية، فتـداوى بزيت السمـك... هبةِ العالم المتمـدن لمن أخرجـوا من ديارهم. تشربـه مكرهاً كما تُكْرِهُ الألم على إخفاء صوته في ادعاء الرضا.

تتذكر مذاق العسل الجارح الذي كان جدك يرغمك على تناوله فتأبى، وتهرب من مشهد جدتك التي تضع المنخل على وجههـا لتتّقي عقصات النحل وتقطـف الشَّهْد بيد جريئة. كل شيء هنا برهـان على الخسارة النقصان. كل شـيء هنا مقارنة موجهة مع مـا كان هناك. وما يجرحك أكثر هـو أن «هناك» قريبة من «هنـا». جارة ممنوعة من الزيارة. ترى إلى حياتك التي يتابعها مهاجرون من اليمن

دون أن تتدخـل في ما يفعلون بها، فهـم أصحاب الحقّ الإلهي وأنت الطارئ اللاجئ.

وحيـن تقول لأهلـك: لم أذق في حياتي طعمـاً أسوأ من زيـت السمـك، يسخـر منك الكبـار: ألك حيـاة يا ابن السابعـة... أَلك ذكريات؟ تقول: نعم. وهذا هو الفارق. وُلد الماضـي فجأة كالفطر. صار لك ماضٍ تراه بعيداً. وبعيد هـو البيت الذي يسكنه وحيـداً. وُلدً الماضي من الغيـاب. ويناديك الماضي بكل ما ملكتْ يداه من أزهار الصُبَّار الصفراء على طريق يصعد فوق التلال، ومن رائحة الحنيـن الشبيهـة برائحة البلّـوط المشويّ فـي المواقد، ومـن عباءة جدِّك البنيّـة كالتبغ الذي بلّله المـاء، الخفَّاقة كصوت صراع وُدّي بين الحكمة والعبث. ولد الماضي كأثـداء كلبـة توشك على الولادة، ومـن خوفك من الغد وُلد الماضي كامـلاً جاهزاً لخطف العروس على حصان الحكايـة. من كل ما أنت فيـه، ومن كل ما فيك من بؤس الحاضر الجائع إلى تعريف الهوية... وُلد الماضي.

وكمـا لو كنت تهـذي: البعيد هو السعيـد. والسعيد هو البعيد. سأجعل الليل إثمداً لأستعيد عافية الماضي وأداوي بها حُمَّى أصابت الأرض المتشعبة فيَّ كالنَّجيل. وأهذي

وأَعرف أني أهذي، ففي الهذيـان وعْي المريض برؤياه، لأنه أَنبل مراتب الألـم.

سيقـول الطبيب مرة أخرى: إنه يشكـو من سوء التغذية، فهل أقلع عن تناول زيت السمك؟ كلا، ولكنه يتذكر أشياء لا يحتملها من هو في مثل عمره. يتمنَّى أن يكون فراشة، فهل للفراشات ذكريـات؟ الفراشات هي الذكريات لمن يتقنـون الغناء قرب نبـع الماء، فهل غنّى؟ مـا زال صغيراً فأنَّـى لـه أن يدحرج الكلام علـى مصطبة مـن رمل؟ إنه يشكو من سوء الحاضر، فلتأخذوه إلى الغد.

ليسـ لنا فـي اليد حيلة ولا غد –قالـوا– ونحن على هذه الحال، مربوطون إلى مصائر متينة التركيب، ومشدودون إلـى هاوية بعـد هاوية. نشتـري الماء من آبـار الجيران، ونقترض الخبز من سخـاء الحجر. ونحيا، إن كان لنا أن نحيا، في ماضـ رضيع مزروع في حقول كانت لنا، منذ مئات السنين، إلى مـا قبل قليل... قبل أن يختمر العجين وتبـرد أباريق القهوة. بساعـة نحس واحدة دخل التاريخ كلصّ جَسـور من بـاب، وخـرج الحاضر مـن شباك. وبمذبحـة أو اثنتيـن، انتقل اسم البلاد، بلادنـا، إلى اسم آخر. وصار الواقع فكرة وانتقل التاريخ إلى ذاكرة.

الأسطـورة تغزو، والغزو يعـزو كل شيء إلى مشيئة الرب الـذي وعد ولم يخلـف الميعاد. كتبـوا روايتهم: عدنا. وكتبوا روايتنا: عـادوا إلى الصحـراء. وحاكمونا: لماذا وُلدتم هنا؟ فقلنا: لماذا وُلد آدم في الجنة؟

تذكَّرْ، لتكبر، نفسك قبل الهباءْ

تذكر تذكرْ

أصابعك العشر، وانس الحذاءْ

تذكر ملامح وجهك،

وانس ضباب الشتاءْ

تذكَّر مع اسمك، أمَّكَ

وانس حروف الهجاء

تذكر بلادك، وانس السماءْ

تذكر تذكَّرْ !

VI

وعشـتَ، لأنَّ يـداً إلٰهية حَمَلَتْـكَ من عيـن العاصفة إلى وادٍ غيـر ذي زرع. وعشـتَ فـي منزلـة الصفـر، أو أَقلَّ وأكثر. عشتَ عصيَّ القلب، قصيَّ الالتفات إلى ما يوجع ويجعل الوجـع جهةً، وإلى ما يرجع مـن صدى أَجراس تضـع المكان على أُهبة السفر: مـن هنا مرت الغجريات المصابـات بحُمَّى الرقصـ والإغواء. علَّقـن سراويلهن على أغصان الشجر وارتديـن العري المتخفِّي في رشاقة الحركـة. على الخيال وحده أن يـرى فضيحة العُرْي في إيمـان الفـنِّ بذاته المتمنِّعة عـن الإفصـاح. فالغجريات الماهـرات بدسِّ البرق فـي عظام المشاهديـن، هُنَّ هُنَّ

القـادرات على ستر العري بضـوء يسطع من نهود ترشح حبيبات ماءٍ يضحك ...

فـي كلِّ وَلَدٍ غجريَّةٌ. وفـي كل غجرية سَفَرٌ مرتجل. وفي كل سفـر حكايـة لا تُـروى إلّا بعد اجتيـاز الذكرى سنَّ الخجل مـن أَصحابها. ألهذا حَمَلْـتَ الغجر معك كلما افترق المكان عن زمانه، وكلما تشرَّد المكان في سُكَّانه الباحثين عنه في ما تبقَّى من روائح هي الدليل على حسيَّة الـروح؟ ألهـذا بحثت في النسـاء الغربيات عـن فوضى الجسد في شهوة الغجريات الراقصات على حبال الريح، واصطحبت المعنى الخالي من الزركشة، في الحب، إلى آخر العبث؟

وعشتَ، لأن يداً إلٰهية أنقذتك من حادثة. عشت في كل مكان كمسافر في قاعة انتظار في مطار يُرْسِلُكَ، كبريدٍ جوّي، إلى مطار... عابراً عابراً بين اختلاط الهُنا بالهناك، وزائراً متحرراً من واجبات التأكُّد من أي شيء. هكذا مرّت الغجرياتُ على حقل أيامك البعيدة، في طريقهن الشريد من الهند إلى ما يرد على حاسة التيه من هواجس بلا خرائط وهويات... جميلات وبائسات وراقصات بلا سبب، سوى ما للدم الساخن من نسب إلى الإيقاع.

هُنَّ هُنَّ، سِرْبُ خيامٍ مهاجرة إلى مغامرة قد يَجِدْنَ فيها كفاف حياة في متناول اليد. ولا يودِّعن شيئاً لئلَّا يَحْزنَّ، فالحزن مهنة لا تليق بهنَّ، فهنَّ الحزينات منذ وُلِدْنَ. ويرقصن كي لا يَمُتْن. ويَترُكْنَ الأمس وراءهن حفنةً من رماد موقدٍ مؤقت. ولا يفكرن بالغد لئلَّا يعكِّر التوقع صفو الارتجال. اليوم اليوم هو الزمن كله /

فاحذر طريق الغجريات، لأنه لا يوصل إلى أيّ هدف.

وعشتَ، لأن كثيراً من الرصاص الطائش مرَّ من بين ذراعيك ورجليك ولم يصبك في قلبك، كما لم يَشُجَّ حَجَرٌ طائشٌ رأسك. وعشتَ لأن سائق الشاحنة انتبه في اللحظة الأخيرة إلى ولد يصرخ بين مؤخرة الشاحنة وبين الجدار الذي تلتصق به. وعشتَ، لأن سائق سيارة رأى في الظلام قميصاً أَبيض واقفاً على حافة الشارع، فأنقذك من خطر الليل وأعادك إلى الأهل المشغولين بتقليب الافتراضات على جمر الخوف. وعشتَ، لأن ضوء القمر اخترق الماء وأضاء صخوراً مدببة أقنعتك بأن الموت سيكون مؤلماً لو قفزت من تلك الصخرة إلى البحر، لا سباحةً في مياه الأبدية.

وعشتَ، دون أن تعرف كيف تصوغ كلمات الشكر

البسيطـة: حمداً للحياة حمداً. ولم تسأل إلّا متأخراً: كم مـرة متُّ ولم أنتبه؟ وكلما مـتَّ وانتبهتَ التهمتَ الحياة كحبـة خوخ، فلا وقت طويـلاً للخوف من المجهول ما دامت الحياة، وهـي أنثى، مشغولة عـن الموتى بتجديد صباها وفجورها وتقواها، على مرأى من المحرومين.

تجلسـ فـي مطعـم المطار في ركـن قصـيّ، وتفكِّر في جدوى الرحلة: هل أنا في ذهاب أم إياب. لا أحد ينتظرني فـي الذهـاب ولا سبـب يدعوني إلـى الإياب. لـي أكثر من اسـم وأكثر من تاريخ ميلاد في جـوازات سفر جليلة الأغلفة، حمراء وزرقاء وخضراء. وحُرٌّ أنا في هذا الزحام المسافر، وآمِنٌ كبضائع الحوانيت المعفاة من الجمارك، ومحروسـ بأجهزة الإنذار الإلكترونيـة. لا أحد يسألني مـن أنت ولا أحد يلتفت إلى مشيتي المتلعثمة، وإلى الزر المقطوع فـي معطفي، وإلى بقعة الزيـت على قميصي. كأني شخص هارب مـن إحدى الروايات المعروضة في كشـك الصحف، هارب من المؤلـف والقارئ والبائع. وفـي وسعي أن أضيف وأن أحـذف وأن أعدِّل وأن أبدِّل وأن أَقْتُـلَ وأن أُقْتَلَ وأن أمشـي وأن أجلس وأن أطير وأن أصير ما أريد وأن أحبّ وأن أكره وأن أَعلو وأن أهبط وأن أسقط مـن أعالي الجبال ولا أصاب بسوء لأني لا أَعتدي

علـى حقوق المؤلف، ولي في المصائر، أعني مصائري، وجهة نظر أخرى /

لـم يَنْهَكَ أحدٌ فـي المطار عن الإفراط فـي الخروج من انضباط المؤلف، فاسترسلتَ في طرق المعلوم على فولاذ المجهـول، فتطاير شَرَرُ الممكـن من خيال كلما ضاقت عليه الجـدران شعّ كبلّـور مكسور في مجـاز السجين. فرأيـت إلى نفسك في المطار التالي شخصاً غير مرغوب فيه، لافتقار الوثائق إلى فِقْهِ الربط بين الجغرافيا وأسمائها: فَمَنْ وُلِدَ في بلدٍ لا يوجد... لا يوجد هو أيضاً. وإن قلتَ مجازاً إنك من لا مكان قيل لك: لا مكان للامكان هناك. وإن قلـت له، لموظف الجوازات: اللامكان هو المنفى، أجابـك: لا وقت لدينا للبلاغة... فاذهب إذا كنت تحبُّ البلاغة إلى لا مكان آخر /

ورأيتَ إلى نفسك في مطار ثالث ورابع وعاشر تشرح لموظفين لا مبالين درساً في التاريخ المعاصر عن شعب النكبة الموزع بين المنافي والاحتلال، دون أن يفهموك وأن يمنحوك إذناً بالدخول. ورأيتَ إلى نفسك في شريط سينمائيّ تروي على رسلك ما حلَّ بأهلك مسروقي اللسان، والقمح والبيت والبرهان... منذ هَبَطَتْ عليهم

جرّافة التاريخ العملاقة وجرفتهم من مكانهم وسوَّت المكان على مقاس أسطورة مدجّجة بالسلاح وبالمقدّس. مَنْ لم يكن آنئذٍ في الأسطورة لن يكون الآن. وتساءلت: هل من جلّاد مقدس؟ ورأيتَ إلى نفسك تكمل ما تيسَّر لك من عمرك، بلا مؤرخين ومؤلفين في المطار المزدحم بالمسرعين إلى مواعيدهم التجارية والغرامية /

وأنت المُفْرَغُ من لقاء أو وداع، تجلس على المقعد الجلديِّ وتنام. وتستيقظ لأن مسافراً مستعجلاً تعثّر بك واعتذر دون أن ينظر إليك. تمضي إلى الحمَّام وتغسل ثيابك الداخلية وجوربيك وتحلق ذقنك، ثم تتوجَّه إلى الكافتيريا لتحتسي فنجان قهوة، وتبحث في الجرائد عن آخر أَخبارك: هل من بلد يقبل بي؟ فلا تجد فيها، في الجرائد، إلّا أخباراً مُفَصَّلة عن الحروب والزلازل والفيضانات. لعل الله غاضب على ما يفعل البشر بالأرض! لعل الأرض حبلى بالقيامة!

ما معنى أن يحيا إنسان في المطار؟ تهجس: لو كنتُ مكاني لكتبتُ مديحاً لحريتي في المطار: أنا والذبابة حُرَّان / أُختي الذبابة تحنو عليَّ / تحطُّ على كتفي ويدي / وتُذَكِّرني بالكتابة / ثم تطير. وأكتب سطراً: كأن المطار

بـلاد لمن لا بلاد لـه / وتعود الذبابة بعـد قليل / وتمحو الرتابة، ثم تطير تطير تطير / ولا أستطيع الحديث إلى أحد / أين أختي الذبابة، أين أنا؟

تـرى إلى نفسك فـي شريـط سينمائي تُحَدِّق إلـى امرأة تجلس فـي الركن المقابل لك في الكافتيريا. وحين تراك وأنت تراهـا تتشاغـل بتنظيف قميصك مـن قطرة نبيذ، وَقَعَتْ ككلمةٍ شاردة من عبارةٍ كُنْتَ ستقولها لها لو كانت معـك: جمالك هذا كثيـر عليَّ كسمـاء، فارفعي السماء قليلاً لأتمكَّن من الكلام. ترفع عينيك عن صحن الحساء الساخن، فتراها تراك، لكنها سرعان ما تتشاغل برشِّ الملح على طعامها بيد يرتجف عليها الضوءُ، فتخاطبها في سرِّك: لو كنتِ مثلي ممنوعةً من الخروج، لو كنتِ مثلي! تشعر بأنك أَحْرَجْتَها، فتتظاهر بأنك تخاطب النادل: لا، عفواً. لُؤْلُـؤةٌ من عَـرَقٍ تلمع في جيدها المرفـوعِ للثناء، فتقول لهـا في سرِّك: لو كُنْتُ مَعَكِ لَلَحَسْتُ حبَّة العرق. الرغبة ماثلة واضحة كالصحن، كالشوكـة والملعقة والسكين، كزجاجـة الماء، كالشرشف، وكأرجـل الطاولة. والهواء مُعَطَّـر. تلتقي النظرتان وتشعـران بالحرج فتفترقان. هي تحتسـي جرعة مـن كأس النبيذ الذي ذابـت فيه اللؤلؤة. وأنـت تشعـر بأنها قد سمعـتْ بكاءَ الحـوت في محيط

عميـق، وإلّا، فما الذي يُغْرِقُها في هذا الصمت الكثيف؟ تقول لها في سرّك: إن أعلنوا أن قنبلةً ستنفجر في المطار، فـلا تصدِّقي... لأنـي أنا من أطلق هـذه الشائعة لأقترب منـك وأقول لك إني، لا غيري، مـن أطلق هذه الشائعة. يخيَّـل لك أنها اطمأنت، فرفعتْ نخبـك متلألئاً، وانسلَّ خيـط من الرغبة من أطراف أناملهـا، وحرَّك في عمودك الفقـريّ نبضة كهربائيـة، وهزتك قشعريـرة... فتولَّهْتَ وتأوهت، وفاحت رائحـة المانجو من سرير سريّ مُعَلَّقٍ في الهواء، وناحـت كمنجات بعيدات وارتخت أوتارها في نهاية الهياج /

لـم تنظر إليها، لأنك تعلـم أنها تنظر إليك ولا تراك، فقد حَلَكَ الضبابُ على طاولتك الدائخة من فرط ما كدَّستَ عليهـا مـن أدوات التأويل، ومـن أوراق بيضاء لا يكفي عشرون مؤلفاً لإشباعهـا بالكنايات. لم يكن النادل، بل هـي من ربَّتت على إغمائك، وقالت: هل كانت وجبتك شهيّة؟ وأنتِ – سألتهـا، فقالت: سعدتُ بلقائك... هل تذكرتَني؟ قلـتَ: قد يفقد المرء ذاكرتـه في المطارات. فقالـت: وداعـاً! لم تنظـر إليها وهـي تبتعـد، لأنك لا تريـد أن تـرى الرغبة وهي تـدقُّ بكعبيـن عاليين رخام الكاتدرائيات، وتوقظ في أجسـاد الكمنجات شبقاً إلى

الرحيل. لكنك تذكَّرتها حيـن تسلَّل النعاس، كما تسلَّل خدر النبيذ إلى جسدك، بدءاً من الركبتين إلى ما لا تتذكر مـن غابة الجسد. أمَّا اسمها، فقد تعرفه غداً، على طاولة أخرى في مطار آخر!

VII

السجنُ كثافةٌ. ما مِنْ أحدٍ قضى ليلةً فيه إلّا درَّب حنجرته على مـا يُشْبِهُ الغناء، فتلك هي الطريقـةُ المتاحةُ لترويض العُزْلـة وصيانةِ كرامة الألـم. أن تسمَعَ صوتك المبحوح يعنـي أن آخَرَك قد سامَرَكَ وأسرَّ لك بأخبارك الشخصية، في غرفة كلما ضاقت اتسع مـا وراءها واحتضنتَ العالم بشَغَفِ المصالحة /

وأنـتَ إذ تغنِّـي لا تُغَنِّي لتتقاسم الليل مـع أحد. ولا تغني لتقيس إيقـاع وقتٍ بلا إيقـاع ولا علامة، بـل تغنِّي لأنّ الزنزانـة تُغْريـك بمناجاة الخـارج، نُقْصانِـكَ في كمال العزلـة: تأتي الحقـول إليك بحفيـف السنابـل الذهبية.

والشمس تملأ قلبك بضوء البرتقال. وتأتي إليك زهور السفوح المبعثرة كشعر فتاة فوضوية. ورائحةُ القهوة المشحونة بهياج الهال تأتي إليك. كأنك لم تنتبه من قبل إلى ما في خارجك من سعة ودعة... وإلى ما كان ينقصك من احتفاء بالطبيعة.

وكما في القصائد والغَسَق، يحتفل الغموض بالوضوح، لأن بؤرة سرية تطلق إشعاعها في الجهات وفي الكلمات، وتحرم الظلام من أبديَّة الصفات. تزورك الذكرياتُ الصغيرة قطيعاً من ماعز وأيائل تتقافز كأكواز صنوبر على طريق جبليّ. في كل أغنية فتاةٌ تنتظر على محطة باص أو على شرفة. وعلى كل شرفة منديلٌ يلوِّحُ وحمامةٌ آمنة.

وأَنت، أنتَ وأكثر /

مأهولٌ، كمجمّع سكانيّ، بالصاعدين على الدرج وبالنازلين إلى الشارع. مأهول بأدوات المطبخ والغسالات ونزاع الأزواج على أفضل طريقة لتقشير البطاطا وقلي السمك. وَجَعٌ خفيفٌ في المعدة يتبعُهُ وَجَعٌ ميتافيزيقيّ: هل تصاب الملائكة بالزكام؟

وأنتَ، أنتَ وأقلّ /

لا تستطيع وُلُوجَ يومٍ جديد بلا حمّام، وحلاقة، وصحيفة، وفنجان قهوة. حجمُ الأرض هنا متران مربّعان لهما بابٌ حديديٌّ دائمُ الإغلاق. أصواتُ أحذيةٍ غليظةٌ تحمل إليك حساء العدس المطبوخ بالسوس، فتدرك أن نهاراً جديداً قـد حلَّ ضيفاً علـى العالم. لكنك لا تُحصـي الأيّام، فلا خَرَزَ فـي زنزانتك ولا حصى للتقويـم الجديد. ولا تعلم إن كانـت حـرب جديدة قد اندلعـت، أو كانت الحرب القديمـة قد وضعت أوزارها. ولا تعرف إن كانت ثيابك قـد توقفت عن بثّ رائحتهـا، أم أن حاسة الشمّ فيك هي التي تعطلت.

لا جديـد إذاً. لا جديد في هذه القطيعة الصلبة مع الزمن. لا جديـد سوى قديمـك الزاحف منـك وإليك، متحولاً فكرةً وصورةً تتناوبـان، بلا مهارة، ذرائعَ هدوئك الذي لا غنـىً لك عنه للتنفُّس الطبيعي فـي هواء فاسد. لا شيء رهن إشارة القلب الذي كان يأمرك فتنصاع، ويأمرك بأن تعصى فتعصى، ويأخذك إلى أقصى ما في مطاردة الحجل من بريّة، وإلى أَقسى ما في الكلام من خشونة الهجاء.

كم أنـت هادئ لتقول: الهجاءُ فحولـةُ اللغة القادرةِ على مناطحة الجنادل، كلما توقفت البلابل عن الغناء، وامتثلت

فرسٌ غير أَصيلةٍ، إلى إغواء حمار. الهجاء فروسيَّةٌ مقهورةٌ تعوِّض نقصان التشبّه بالقادر برفع إنشاء الخاسر إلى مرتبة العرش، لكنه، الهجاء، يُطرب الجمهور الغاضب، ويعذّب الغالب بطنين الأولاد الذين يلاحقونه بأصوات التنك والشتائم، ويحرمه من تتويج النصر بالطرب.

وأَنت، تقريباً أنت /

لا سجين ولا طليق. فالسجن كثافة. ما من أَحد قضى ليلة فيه إلّا وأمضى الليل كله في تدليك عضلات الحرية المتشنّجة، من فرط السهر على الأرصفة، حافيةً وعاريةً وجائعة. وها أنت ذا تحتضنها من كلِ ناحية، حراً متحرراً من عبء البرهان. ما أصغرَها وما أَبسطها وما أسرعها في الاستجابة إلى نشاط السراب. وهيَ فيك وفي متناول يدك التي تدقُّ بها جدران الزنزانة: في اقتباسك أُمثولة الطير، وفي هطول المطر، وفي هبوب الرياح، وفي ضحكة الضوء على حجر منسيّ، وفي كبرياء شحاذ يُوَبّخ مانحيه إذا بخلوا، وفي حوار غير متكافئ مع سجانك حين تقول له:

أنت، لا أنا، هو الخاسر، فمن يحيا على حرمان غيره من الضوء يغرق نفسه في عتمة ظلِّه. ولن تتحرر مني إلّا إذا

بالَغَـتْ حريّتي في الكرم، كأنْ تعلِّمـك السلام وترشدك إلـى بيتك. أنـت الخائف، لا أنا، مما تفعلـه الزنزانة بي، يا حارس نومي وحلمي وهذياناتي الملغومة بالإشارات. لـي الرؤيا ولك البرجُ وسلسلة المفاتيـح الثقيلة والبندقية المصوَّبة إلـى شبح. لي النعاسُ حريريُّ الطبع والملمس، ولـك السَهَرُ عليَّ لئلا يسحـب النعاسُ سلاحَكَ من يدك قبل أن يرتدَّ إليك طرْفك. الحلم مهنتي، ومهنتك استراق السمع، سدىً، إلى حديث غير وُديّ بيني وبين حريتي /

لا يصغي السجّان إليك، ولا يراك وأَنت تغافله وتدخل في نفسك دخول الغريب إلى مقهى على الرصيف. لم تحبَّ المقاهي وملاهـي الليل، كما أشاعـوا عنك. المقهى هو امتلاء الروائيِّ بفضول النص المتعطش إلى مراقبة المصائر. المقهى هو إفراغ الوقـت من ضجرٍ مصاحب للكائن في كؤوس نميمة. والضجر مُذلٌّ كالشهوة المتأججة في غير موضعهـا. المقهى هو الشَّـرَكُ الملائم لاصطيـاد أفكار نسيها أصحابهـا مع البقشيش علـى الموائد، واقتباسات غير دقيقة لعناوين ثقافية تشبه الوجبات السريعة.

لكنك تحسُّ الآن برغبة ملتهبة فـي الذهاب من الزنزانة إلـى المقهى. ستجلس وحدك مع فنجـان قهوة وجريدة

قـد تقرأها وتنسى ما قرأت. وقـد لا تقرأها وتتذكر ما لم تقرأ. لكنهـا ستارة ورقية لاختلاس النظـر إلى الآخرين: إلى سيدة تخاطب كلبها بحنان عائليّ، وإلى جنرال يأكل بنهم، فالجنرال هو أَيضـاً كائن يجوع... وإلى فتاة تنزل خصلـة شعر على جبينها بنزق المنتظرة... وإلى صحافيّ يـدوِّن ملاحظات عن رجل أمامه يحـاول حل الكلمات المتقاطعـة. وحيـن تختلس النظر إلـى نفسك، تكتشف أنـك لا تفكر بشيء ولا تنتظـر أحداً، ولا تشعر بفراغ أو امتلاء أو ضجر.

الضوءُ ساطع، فتخرج إلى الشارع النازل من قِمَمِ الصنوبر إلى البحر. السجنُ هو حرمان الكائن من مشهدَ الشجرة والبحر. والحرية هي المخيّلة القادرة على استدعائهما إلى السجن، وجعل ما ليس مرئياً مرئياً. لا... هذا ما يفعله الشعر. الشعر إذاً فعل حريّة، ويجعل ما هو مرئيّ غير مرئيّ عند مواجهة الخطر. والمشي رياضة وحرّية. تتخيّل أنك تمشي على شارعك الشخصي بطيئاً في البداية. تتملّى شبابيك مفتوحةً على الداخل، على أسرار صغيرة وحمّامات. تقيس المسافة بين لقاء طويل ووداع صغير، فينتابك شعورَ حامض بالندم على خطأ لم ترتكبه: لست أنا المسؤول عما حدث. لكنَّ الحربَ أعادت كُلَّا

منا إلى خيمته. أنتِ إلى نشيدكِ الوطني، وأنا إلى السجن، فلم تَعُدْ أغنيةُ الجَسَديْنِ مشتركة!

المشي رياضةٌ وحريّةٌ. تتخيَّل أنك تمشي على شارعك الشخصيِّ سريعاً سريعاً لتحرق السعيرات الزائدة لساندويتش الشورما وألواح الشوكولاته. ألدِّهْنُ والسّكّر هما شهوة السجين إلى استرداد عافية المألوف. والمشي رياضة الكلمات وتدريب الذاكرة على ما تحتاج إليه من نسيان الزؤان والإهانة. المشي السريع يخفِّف عن الكلمات شحم النعوت والمترادفات وما يجعل السهم طائشاً. المشي السريع يضع الرمزيَّ في موقعه الصحيح من الواقعيِّ مهما تحرَّش الضباب بالصورة والفكرة والرؤيا. المشي السريع يلفُّ الكلامَ بسَرْوَةِ القِوام الرشيقة تحت سماءٍ صافية. فلتُسْرِعْ قبل أن يوقفك السجَّانُ عن رياضة المجاز في منتصف هذا الشارع الواسع. ولتسرع قبل أن يوقظك، ويرمي إليك بوعاء البول الصباحيّ.

وأنتَ أنتَ ولا أنت في آن واحد /

منقسمٌ إلى داخل يخرج وإلى خارج يدخل. لكنك حُرٌّ في الاختلاء بحيريّةٍ غير حَمّالة أوجه... حرّ في وضع الخيال على ركبتيك. ولا تجري، كما هي العادة، مقارنة

بيـن سجن كبيـر وسجن صغير، لأن لا شــيء في الزنزانة يلهيـك عن التحديق إلى بؤرة سـوداء تشعّ نوراً، فتغنّي له وتطيـر، كما يفعل المتصوف، أبعد من هدهد في أقاصي السؤال!

VIII

لـم يسحرك أَكَلَةُ اللوتس بمذاق النسيان العسليِّ. خرجوا مـن أسطورتهـم سالمين، ودخلـتَ وأَهلك بـلا استعداد كاف في التيه. تعرف تماماً ماذا تركت وراءك: ماضياً غير مُـدوَّن في نشيد، عن طُرْواديِّين جُدُدٍ لا يُرْوَى عنهم إلّا ما يقول أعداؤهم عنهم. لكنهم لم يخطفوا هيلين ولم يكونوا سبباً للحرب. كانوا طيِّبين مسالمين، ولا ذنب لهم غير أنهـم وُلِدُوا على سفوح شُبّهتْ بالدرج المؤدِّي إلى اللـه. وكانوا شجعاناً بلا سيوف، وعفويين بلا بلاغة، فانكسروا أمام الدبابات، وهُجِّروا وبعثروا في مهبِّ الريح، دون أَن يفقدوا إيمانهم بالشفاء من جرح التاريخ.

فمـن أَنت فـي هذه الرحلـة؟ أشاعـر طـرواديّ نجا من

المذبحة ليروي ما حدث، أم خليط منه ومن إغريقي ضلَّ طريق العودة؟ إنَّ فتنة الأسطورة تجعلك نهباً لانتقاء الاستعارات... فَخُذْ منها ما يصلح لصعود النشيد إلى ختام آخر، يتّسع لصوت الضحية الطرواديِّ المفقود، ولعجز النصر الإغريقي عن إعادة الشباب إلى المحارب الذي شاخ في ثنائية البيت والطريق.

مشدوداً كالوتر بين الماضي والغد، تعرف كل ما خسرت وتركت وراءك. ولا تتبيّن أمراً من أمور الأمام. لكن جاذبية أُفقية تدفعك بقوة العاصفة إلى محتويات الأمام، إلى مجهول فاتن في قصيدة لم تكتمل تبدأها أنت، ثم تقوم هي بتولّي مسارها، حيث يتغلَّب المصنوع على الصانع والوليد على الوالدة. سمّوك الحالم، حين قلت إن الطروادي يقاوم. وفسروا أحلامك قبل أن تراها. وقلتَ: ابتعدتُ قليلاً لأقترب، فقالوا: هذه هي طريقة النادم في الكلام. فهل ندمتَ حقاً على هذا السفر؟ قلتَ: لا أعرف ما دمتُ في أوّل الطريق.

وكان عليك أن تختار الهامش لتعرف أَين أَنت. الهامش نافذة تطل على العالم، فلا أنت فيه ولا أنت خارجه. الهامش زنزانة بلا جدران. الهامش كاميرا شخصية تنتقي

من المشهد ما تشاء من صور، فلا يكون الملك هو الملك. ولا يكـون مقـلاع داود إلّا سلاح جوليـات. هل صحيح أنَّ من يكتـب قصته قبل الآخر يكسب أرض القصة؟ لكن الكتابة تحتاج إلى مخالب كي تحفر الأثر في الصخر.

وسَمَّوْكَ الحالم حين اخترتَ الهامش لترى حلمك ويراك مُنْكَبّـاً على تذكّر اسمك القديم الذي يتبعك كظِلِّك، ولا ينطـق. لو نطق الظلُّ لأرشدني – قلت لي. أمّا أنا فذهبت إلـى الشـارع أهتـف وأنزف وأهتـف بسقـوط الذرائع والأسباب، حتى خُيِّل لي أنني حَرَّرتُ وَتحرَّرتُ وكَفَّرْتُ عن ذنوب لم أرتكبها. وكنت تنظر إليَّ من الهامش، لأن المسافة كما قلت لـي مصفاة ومرآة. وفي المساء التقينا، كمـا هي العـادة، فعانَقْتَني وربّتَّ علـى كتفي وقلت لي: سأمضي غداً معك، لأن الهامش يتأمَّلُ ولا يفعل.

طريق يعلو ويهبط، يتمـوَّج ويتعرَّج ويطول، ويتفرع إلى طـرق لا حصر لها ولا نهاية تجتمع بالبداية. كم مرة نبدأ مـن البدايـة؟ ونجونا من مـوت كثير، وهزمنـا النسيان، وقلـت لي: نحن ننجو ولا ننتصر، وقلت لك: النجاة هيَ انتصار الطريدة الممكـن على الصيّاد. الصمود هو البقاء والبقـاء هو أول الوجـود. وصمدنا، سـال دمٌ غزير على

السواحل والصحـارى... دمٌ فاض عن حاجة الاسم إلى هوية، حاجة الهوية إلى الاسم.

وبحثنـا عن زهرتنـا الوطنية، فلم نجد أفضـل من شقائق النعمان التي سمَّاها الكنعانيون «جراح الحبيب»، وبحثنا عن طائرنا الوطنـي، فاخترنا «الأخضر» تَيَمُّناً بانبعاثه من الرمـاد، وتجنّباً لسوء فهـم مع أخوة «الفينيـق»، وبحثنا عـن علَمنا الوطني، فأرشَدَنا بُعْدُنا القوميُّ إلى بيت الشعر إياه، الذي أغدق على الألـوان الأربعة أوصافاً قد تجافي الموصوف، ولكنها تهيّج الحماسة.

وسال دم غزير حتى صارت قيافَةُ الدمِ... دَمِنا دليلَ العدوّ إلـى طمأنة ذاته الخائفة مما فعل بنـا، لا مما قد نفعل به. فنحـن الذي لا وجود لنا على «الأرض الموعودة» صرنا شبـح القتيـل الذي يطـارد القاتل فـي النوم وفـي اليقظة وفـي ما بينهمـا، فيضطرب ويكتئب ويشكـو من الأرق ويصرخ: «ألم يموتوا بعـد؟» كلا... فقد بلغ الشَبَحُ سنَّ الفطام وسنّ الرشد وسنَّ المقاومة وسنَّ العودة. الطائرات تطارد الشبح فـي الهواء. الدبابات تطارد الشبح في البرِ. والغوّاصات تطارد الشبح في البحر. والشبح يكبر ويحتلُّ وعيَ القاتل حتى يصيبه بالجنون:

علـى شرفة في مشفى الأمراض النفسية تطلّ على آثار دير ياسين، يجلسـ ملك إسرائيل الجديـد ويهذي: هنا، هنا كانت بدايـة معجزتي. هنا قتلتُهُـمْ ورأيتُهم قتلى. رأيتهم موتى مـلء البصر والسمـع. هنا سمعت أنيـن الوحوش البشرية الذي لم يعكـر صَفْوَ مُوسيقاي. ومن هنا نشرتُ أصواتهم شمالاً لتُفْزِعَ سائر القطيع الذي يُرَنِّق ماء الأرض المقدسة. ومن هنا أذعت الذعر في ما تبقى من حيوانات تدبُّ على اثنتين... ليدخلـوا في رحلة التيه. لا، لا فالتّيه ليسـ اللفظ الملائـم لمصيرهم. التيـهُ خُصوصيَّتي. التيهُ يفضي إلى الهداية. التيه يفضي إلى عودة. التيه احتكاري كمـا هو الله لي. يتناول الملك أقراص المهدّئ ويتذكّر: لـولا بطولتي، لـولا ما فعلـت بديـر ياسين، لمـا قامت مملكتـي. لولا الغيـاب، غيابهـم، لما حضـرت. أن لا يكونـوا هـو أن أكون. فمن أين طلعوا علـيَّ، أنا الذي لم أرضـ بهم جيرانـاً أو عبيـداً، لا حطّابيـن ولا سقاة ماء. يضغط الملك على كأس الماء بعصبيّة فيهشِّمه، فيبزغ من يده خيط دم، فيهذي: لم أرَ دم الشبح الذي يطارده جيشي فـي لبنـان وأرى دمي؟ هنا قتلتُهُـم ورأيتهم قتلى، فكيف غَشُّـوا الموت وعصوا أوامـري... وأنا من يهَب الموت والحياة... أنا الملك، ملك إسرائيل الجديد. وكيف صار الميـت شبحاً وكيف تطاول الشبـح عليَّ؟ أَأنا في حلم أم

في كابوس أنا؟ أما من شرفة في هذا العالم تطلّ على نهاية أخـرى؟ أبعدوا عني دير ياسيـن ثانية، أبعدوا عني صراخ هـذه الأشباح، أو أبعدوني عنهـا... فلا أستطيع الاعتذار لهـا ولا أريد. حيرام! حيرام يا ملك صـور أَسْعِفْني. لقد غضـب عليَّ شعبي، وقـال إن حربي عبـث، وإن اغتيال الشبح عبث، وإن سلامي عبث. وإن اغتيال الشبح عبث، وإن سلامي عبـث. أَسعفني يا حيرام ولـو بصُلْحٍ كَذِب، أخـدِّر به عقلي وقلبـي وشعبي، وأشفى مـن أَتراحي. ألا تعرفنـي؟... ألا تسمعني يا ابن الكلبـة والكلب! لا أحد يستمـع إلـى الملك المعتكف في بيتـه المطل على موقع جريمته الأولى. وحين يخرج متكئاً على عكاز لزيارة قبر زوجته لا يتكلم مع أَحد. الشبح هو رفيقه الوحيد. عدوُّه الذي لا يغادره، عدوُّهُ الذي يعوده في مرضه، ويقوده إلى لقائهما الأول: هنـا قَتَلْتَني، ودَفَنْتَني في هذه الحفرة، فلا يقوى على صدِّه، وينهار: يسقط القاتل في قبر القتيل!

سألتُـكَ: ما معنى ذلك؟ فقلتَ لي: قد يحتاج المعنى إلى وقـتٍ آخر لينضج في ملح الأرض. وقد يحتاج إلى شاعر آخـر خلو من الطروادين والإغريـق، شاعرٍ ينظر من علٍ إلـى هاويةٍ لم يَقَعْ فيها، فتصير بحيـرة. أمَّا الآن، فنكتفي مـن المعنى بتلويحة يد من بعيد: ما زلنـا أحياء، وقادرين

على تعديل النصِّ الإغريقي، فالفصل الأخير، فصل النهاية مفتوح إلى ما لا نهاية!

المجازُ، الكنايةُ، والاستعارةُ، والتوريةْ

هي ظلُّ الكلام، فلا

صورةُ الشيء كالشيء... أو عكسُهُ

إنها حيلةُ الشعر في التسميةْ

ولي في المجاز مآربُ أخرى

كأنْ أترك الأغنيةْ

على رِسْلها...

تتلفَّتُ شرقاً وغرباً

وتقفز بين السماوات والأوديةْ

وتعالج أوجاعها

بقليلٍ من السخريةْ

IX

سألتُكَ، فقاطَعَتْني قذيفةٌ تبحث عن هدف مراوغ. هبطنا إلى ملجأ وسألتُكَ بمكرٍ تعرفه فيّ: متى تُبْحرُ السُّفُن؟ قلتَ بنـزق: إلى أَيـن؟ قلتُ: إلى ما لا نعـرف... إلى مجهول جديـد. أَليس هذا هو طريق المعنى؟ لم تعجبك السخرية التي تحلّ في غير مقامها، كأنْ يضحك المرء في جنازة، أو يبكي في عرس. فأشحتَ بوجهك عني وابتعدت وغبت، وأَصغيتَ إلى صوتٍ فيك يناديـك ويرميك بوَخْزِ الإبر، كلما وصلتَ إلى مفترق أو منحدر: لماذا... لماذا نزلتُ عن جبل الكرمل؟ لم تصـدِّق مَنْ صدَّقوك. فقد عاملوك كما يعامـل المضيفون طائراً مهيضـ الجناح توارى عن

السـرب، فعالجوك ودرَّبـوكَ على الطيـران التدريجيِّ، فطرت. وعلّموك الغناء فغنَّيتَ وقلت: أنا ما سأكون.

في القاهرة الساحرة الساهرة تحلم بأنك في الجنة، فتقوم في الليل وتفتح النافذة لتتأكد من صحَّة الأبديَّة كلما رأيتَ النيل. لكن، لمـاذا نزلت عن الكرمل؟ يغيب السؤال عن الآخريـن ويحضر فيك وحدك، سرّيـاً خفيّاً كآلام الشبح التي يوقظها عضْوٌ مبتور. فتقول: كفى هذا. وتنام.

يوقظـك سؤالـي: متـى تبحر السفـن؟ فتجيـب بعصبيّة تستـدرج المعنـى إلى البعث: لـن أَخرج! فأذكِّـركَ بأن بيـروت ليست حيفا. وكان عليـك أَن تقول ذلك هناك، فتخجل من تصويب الخطأ بالخطأ، وتستدرك: أَعني لن أَخرج من جهة البحر، لأنـي لا أُجيد السباحة. أُمازحك قليلاً: لكنَّ كلامَكَ منظومـاً بحريٌّ كله، وأَنت لا تعرف البحر؟ تهدأ وتقـول: البحر سرير استعارات مائية. البحر مشهدٌ لغويّ. البحر إيقاعات.

خرجنا من الملجأ إلى شوارعَ خاليةٍ من المارة والقذائف. إنها هدنـة تصمّ الآذان. لقد أفرغتِ السماءُ من الطائرات وامتـلأت بالأزرق الذي يتصبَّب بخاراً. بوسعك الآن أن تحصي دقـات القلب، في الوداع الحزيـن لثورةٍ تبحث

عن طريق أبعد أَبعد، للوصول إلى أرضها التي كانت على مرمى تفاحة، فسألتك: هـل ابتعدتَ لتقترب، أم اقتربتَ لتبتعد؟ قلتَ: المناخُ غيـرُ ملائمٍ لتمليح الجرح وتشريح التورية.

وبكيـتَ كما لم تفعل من قبـل. بكيت من كل الحواس. بكيـت كأنك لا تبكي، بل تـذوب دفعة واحدة وتمطر. فلممتك من كل جهاتك وحملتـك إلى شُقّتك الصغيرة فـي الطابق الثامن مـن بناية تطل، من بعيـد، على البحر الـذي ستبحـر فيـه السُّفُـن. كل شـيء يبكـي: السماء الواطئة. الرصاص الذي يودِّع المقاتلين يبكي. الشوارع تبكي، والشرفـات وأطلال البنايـات، والشعارات على جـدران المدينة تبكي، والمواعيـد المرمية في الممكن والمستحيل تبكي.

تركتُكَ وخرجـتُ ألقي نظرات الوداع علـى مَنْ تدرّبوا على إخفـاء الدموع ولوَّحوا بالبنادق باسمين، فأوجَعَتْني إشاراتُ النصر المرسومةُ بأصابع لم ينتبه أبطالُها إلى ما بُترَ منها. وسمعت هتافات تزفّ البطولة إلى بدايات جديدة. الفكرة جمـرة. والطريق هو البحث عن صواب الطريق. وسننجـو وننتصر. لم أَعد قادراً علـى البكاء، فقد أحرق

الغضب دموعي، ولم أَعد قادراً على النظر إلى الحاضر، فقد رفعتني الحماسةُ إلى أَعلى مدارجها، وأضاءت شمسُ الغد أنفاقي كُلَّها. فكأني أقوى مني ما دامت البداية فينا حيَّة، وفينا من كثافة الغيم ما يروي الصحراء لو تقطَّر ومطر. وفينا من آثار الظلم ما يُغنينا عن طلب العدالة بفصاحة اللسان والتبيين والبيان. لم يعد البحر مجهولاً وكفَّ صوت السفن المبحرة عن العويل، وصرختُ: من كل مرفأ.. نبدأ.

وحين عدتُ إليك، ورأيتُ الأخضر الرماديَّ في عينين صافيتين، سألتُكَ: هل تعجبك الهمزةُ في آخر الكلمة؟ فأجبتَ: تعجبني أينما وَقَعَتْ، ولا يعجبني سؤالك. فاذهبْ عني، فقد اشتقتُ إلى الصمت!

بيروت نائمةٌ حالمةً بيوم آخر. غداً تحصي قتلاها وجرحاها. وتمددتَ على هدير الصمت. الصمت كُلّيٌّ كونيّ مشحون بوحشةٍ بريَّة، يعلو ويهبط صدىً لصدى خلاء السماء من عواء الفولاذ. كأنك تسمع قطرات الماء تُنَقّطها حَنَفيَّةٌ غيرُ مُحْكَمَةِ الإغلاق... أو تصغي إلى خطوة تتقدم من الباب ولا تصل أَبداً. للصمت نميمة الجدران، ووشاية الفراغ للفراغ. وللصمت صوت

العتمة التي تنساب وتنساح بهيبة جيش سريّ المواقع. وللصمت هَسِيسُ حاسَّةٍ تتطلّع إلى وظيفة حاسة أخرى بين النوم واليقظة. الصمت تأتأةٌ ثرثارةٌ بين عناصرَ لا تتقن الكلام. الصمت ما يتناهى إلينا من قَهْقَهَةِ عاصفةٍ بعدما أدَّتْ واجبها العبثيَّ بنجاح. الصمت طنين يحوِّل غرفة النوم غابة أشباح.

تصرخ وتصرخ كي تكسر هذا الصمت الملحاح بصمت أعلى، فيندحر الصمت ثم يعود إليك مستعيناً بطاغوت الأرق، فتوقد شمعة وترشد الصمت إلى باب الخروج: من هنا... من هنا تمضي وتصل إلى مقرّك الدائم: ضمير العالم، فيطيعُكَ ويمضي مُخَلِّفاً لك الأرق... وتلك مسألة أخرى يسبّبها سوءُ التفاهم المتبادل بين الوعي وأعضاء الجسد، وسوء الفهم الدائم بين الواقع والخيال. لكنك اعتدت حلّها بالمراوغة، إذ قلتَ للواقع: أنتَ الخياليُّ الوحيد، وقلتَ للخيال: أنت الواقعيُّ الأكيد.

ونمت. همت بجسدك وهام بك تعب شهيُّ الخَدَر يَلِجُكَ سُمّاً سُمّاً. ويرفرف عليك سربٌ من النوارس المتزاحمة على نشيد البحر للسفن. نشيدٌ شجيّ يلتفت إلى الوراء، إلى يابسة تبتعد وإلى زمن يبتعد كنصٍّ

زائدٍ دوّنه شعب زائد لا كتاب له على اليابسة. فجأة، تخلع النوارسُ بياضها وترمَدّ وتسوَدّ، ويشتدّ سوادها وتصير إلى جوارح تنقضُّ على أطفال ينامون في العراء، تخطفهم بمخالب مُقوَّسة، فيصرخون من الهلع والوجع، ويصرخون ويصرخون ثم يتوقفون عن الهلع والوجع والصراخ في بطن الوحش.

يضربك الكابوسُ بقبضته الحديدية فتصرخ بلا صوت. تتفقَّد أعضاء جسمك التي قطَّعها الكابوس بمهارة جزّار، فتجدها سوية سليمة لكنها ترتجف وتصرخ من أَثر الذبح. تحاول أن تنهض من السرير لترى أين قُتِلْتَ، فلا ترى دماً في الغرفة. تبحث عن وجهك في المرآة، وعن قدميك في الحذاء، وعن يدك حول كأس الماء، وعن قلبك تحت القميص. وتتأكّد من أنك حيّ، أو ميت وجد نفسه حيّاً، من آثارك لا من حياتك /

أنتَ والفجر وحيدان. وحيدان أنت والفجر في الشارع. الفُرْنُ مغلق والباعة غائبون والأبواب موصدة. لا قطط في الشارع المزدحم بأكوام القمامة. والشجرة الوحيدة واقفة وحدها على باب البناية، لاستقبال الفجر المبشِّر بأبدية لا تعني أَحداً في هذا الوقت الزائد. أنت والفجر وحيدان

غريبـان اجتمعا عنـوة، دون أن تجمعهما أُلفة ولا فضول. لا تـدري إلى أين تمشي، لكنك تمشـي على خُطَىً سابقةٍ ريثما يدلق الفجر زرقته الكحلية وينصرف. وتعترف بأنك أخطـأت: لماذا نزلتُ عن الكرمـل، ولم أكمل رحلتي مع إخوتي إلى البحر... إلى ما لا أعرف؟

ترى دَبَّابَةً عملاقة في منتصف الشارع، فلا تدري إن كان عليـك أن تعود القهقرى أم تواصـل السير كأنك لا ترى ما تـرى. تنظر إلـى الساعة كأنك علـى موعد، وتمشي بخطـى تسابق دقات قلبـك إلى لا هـدف، فلا يكترث بك الجنود المأخوذون بمتعـة التعرُّف إلى أول عاصمة عربية يغزونها. ستعلم من الإذاعات أن ليل صبرا وشاتيلا كان مضـاءً كُلُّهُ، لينظر القَتَلَةُ في عيون قتلاهم فلا تفوتهم لحظـة نشوة على موائد الذبح، وستقـرأ ما سيكتبه جان جونيه:

«يـا لهـا من حفـلات ومآدب فاخـرة تلك التـي أقيمت حيث كان الموت يبدو وكأنه يشارك في مسرّات الجنود المنتشيـن بالخمـرة والكراهيـة. ولا شـك أنهـم كانوا منتشين أيضاً بكونهم قد نالوا إعجاب الجيش الإسرائيلي الـذي كان يستمع وينظر ويشجع ويوبِّخ المترددين. إنني

لم أَرَ هذا الجيش رؤية العين، غيرَ أني رأيت ما فعله. إنَّ قتلة قد أنجزوا العملية، لكن جماعات عديدة من فرق التعذيب هي، في غالب الظن، التي كانت تفتح الجماجم وتشرِّح الأفخاذ وتنثر الأذرع والأيدي والأصابع. وهي التي كانت تَجُرّ، بالحبال، محتضرين معاقين، رجالاً ونساء كانوا لا يزالون على قيد الحياة. حفلة وحشية جرت هناك: سمر، نشوة، رقص، غناء، نداء، عويل، تأوّهات... على شرف متفرّجين كانوا يضحكون وهم جالسون في الطابق الأخير من مستشفى عكا».

لا تستطيع اجتياز منطقة الألم، ولا الوصول إلى مصدر الكابوس، لتكون شاهداً على تقطيع جسدك والنظر عميقاً في عيني قاتلك الذي تعرفه جيداً. ولا تستطيع الكلام إلى أَحد، فقد خلا العالم، خلا تماماً من الأحياء، واكتظّ بالقتلى الذين ودَّعوا أمس إخوتهم وحراسهم المبحرين على سُفُنٍ يونانية الصنع، طروادية الدلالة. لم يكمل القتلى عملاً من أعمالهم: لم ينهوا عشاءهم، ولا صلاتهم، ولا كوابيسهم.

وتجنَّبتَ البلاغة، فهي في غير موضعها ضرب من ضروب المشاركة في التعذيب. وفي السيّارة ذات الحصانة

الدبلوماسيـة، التـي هرَّبتك من بيروت إلـى دمشق، قال لـك السفيرُ الليبيّ: لو عرفت جـزءاً مما أَعرف، لكفرت باللغة العربية. قلت له: شكراً، وشَرَقْتَ بأحرف العلّة. لم تبك هذه المـرة... لأن النار والدمع لا يجتمعان في عين واحدة وفي عبارة واحدة. وحين دخلتَ إلى حمَّام مطعم علـى شاطئ طرابلس تغسل يديـك، ونظرت إلى المرآةً، رأيت وجهاً لا تعرفـه: كان أنفاً كبيراً يحمل نظارة طبية، ولا يشبهك!... لكنه وجهك.

إذا كنتَ أنتَ أنا، وأنا أنتَ يا

صاحبي، فلنا موعدٌ مرجأ

في الأساطير. أيَّ طريق سنسلك؟

قلـتَ: الطريـقُ طريقُنا فـي الكلام عن الغـد. قلتُ لك: الرحلـة ابتـدأت. قلتَ: كـم مـرَّةً ستقول لـي: الرحلةُ ابتدأتْ؟

قلتُ: لا غد يبقى على حاله!

قلتَ: لكنه لم يصل

قلتُ: مرَّ بنا ومررنا به ذات يوم ولم ننتبه.

قلتَ: كم مرة ستقول لي الرحلةُ ابتدأت؟

قلتُ: إنَّ القصيدة ناقصةٌ...

X

خريفُـكَ هذا. فاعْتَنِ به كما يليق بشاعرٍ يُتْقنُ الزجَّ بنفسه في الشَبَه: كم أُحبُّ الخريف. وجُرَّ المكان برَسَنِ العبارة، قبل أَن يركلك الوقتُ إلى هاويةٍ عالية. جُرَّه... جُرَّه بكل مـا فيك من نضج خسارة، وائتمانٍ على حنين يتلفت إلى خُلُوِّ الجهات من اليقين.

هـذا الخريف لَكَ، ولَكَ ما تستغني عنه الأشجار من زينةٍ ورقـةً ورقةً. وما مـن زينة لك غيرهـا، وأنت تتغاوى في الدخول إلى قاعات فارغة. تدقُّ البلاط دقَّاً لتُسمع نفسَكَ صوتَ خطواتك عالياً عاليـاً، بلا سبب. كأنَّ الوقتَ كُلَّه يومُ أَحَـد... ما من أحد يصحو، الساعـة، ليتأكد من أيِّ

شـيء. وفي الضوء على الأرصفـة ثقوب فضّية كحروف من لغة لم تـدوَّن بعد. وفي الورد المطمئن في المربعات فـرح يُحَيِّـك ويُسَلِّيـك: تمهَّـلْ! وتأمَّلْ في مـا ينسيك المقارنة الجاهـزة، وأرخِ رسن المـكان قليلاً، فالذاكرة هـي أيضاً في حاجة إلى ما يرتِّـبُ فوضاها، دُرْجاً دُرْجاً، في هذا الخريف.

هـذا خريفك من أوَّله، ينشر رائحـة منفى فائغة، ورسائلَ فارغة، فلتمْلأْها بالأصفر البُنيِّ الذهبيِّ النحاسيّ المرسل إلـى اشتقاقـات اللون، غيـر المترادفة، مـن أوراقٍ تأخذ وقتهـا الكافي في وداع الشجـرة، إذ لا ريح تهب اليوم. وأَنت، من فرط ما أنت وحيد، لا تفكر بالوحدة. ولأنك لـم تودِّع أَحداً، من البارحـة، لم تكترث لظلِّك «إن كان يمشـي أمامك أم خلفك». الهواء خفيف، والأرض تبدو صلبة.

وليست تلك، كما قالوا، إحدى صفات المنفى /

هذا هو خريفُكَ الخارج من صيف حارّ، من فصل كونيٍّ الإجهـاد، ومن حرب لا تظهر لها نهايـة. خريفٌ يُنضِجُ عِنَـبَ الجبـال العالية المنسيّ. خريـف يُعدُّ لاجتماعات كبرى يراجع فيها مجلس الآلهة القدامى مُسَوَّداتِ مصائرَ

ما زالـت قيد التأليف، ويختلفون ويتَّفقون على هُدْنَةٍ بين الصيف والشتاء. لكن خريف الشرق قصير، يمر كتلويحة يد سريعة من مسافرٍ على حصانٍ على مسافر على حصان في اتجاهين متعاكسين، فلا يعوِّل أَحد على خريف كهذا، على عواصفَ من غبار... وعلى زواج متعة.

أما الخريـف هنا، فخريـف باريس العائدة مـن إجازتها الكبرى، فهو انكباب الطبيعة التي أَغواها المطر على كتابة أشعارها الباذخة بـكل ما أُوتيتْ من مهارةٍ ونبيذ يتخمَّر. خريـفٌ طويل طويل كعقـد زواج كاثوليكي لا يشي بما فيه من سعادة أو شقـاء لعابرٍ مثلك على المشهد. خريفٌ طويلُ البـال. عناق إيروسـي بين الضوء والظـل والأنثى والذكـر، وبين سماء تنخفض باحتـرام على شجر يتعرَّى بكرامة، أمـام التباس الغوايات بين قطـرات ضوء يُمطر، وبين قطرات ماء يشعّ ويُشْرِق... خريف يتباهى. خريف يتماهى مـع أوائل فصول ثلاثة: عُـرْي الصيف، وجِماع الشتاء، وفتوة الربيع.

وأَنت، أنت تمشي خفيفاً على سطح هذا النهار الخريفيّ تنتعشـ وترتعش وتندهش: «أفي مثـل هذا النهار يموت أحـد؟». ولا تعرف إن كنت تسكن الخريف أم هو الذي

يسكنك، حتى لو تذكرت أنك الآن في خريف العمر، حيث يُتْقِنُ العقلُ والقلب الإنصات إلى الزمن بتناغمِ التواطؤِ بين المتعة والحكمة. إيقاع نبيل يرفع الجسدَ إلى مرتبة الانتباه لما ينقص، فيزداد امتلاء بما يفد إليه من جماليات الصحو والغيم. ويستعدُّ، كَمَرْصَدٍ جَوّيّ، لرصد المناخ المناسب لحوار عابر: هذا النهار جميل، أليس كذلك؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نحتسي القهوة معاً؟ لرائحة القهوة أبواب تفضي إلى سفر آخر: إلى صداقة، أو حب، أو إلى ضياع لا يؤلم... فتنتقل القهوةُ من الاستعارة إلى الملموس.

إيقاع سريّ يقود التجربة إلى ذهاب أَقصى... إلى لقاء بين خريف يتنزَّه في الساحات مع الجميع، مع الناس والحمام، وبين خريفك الخاص بك، خريفك الجوّاني. وتتساءل كما تساءل غيرك: «هل نحن ما نصنع بالزمن، أم نحن ما يصنع الزمن بنا؟». لا تعنيك حيرةُ الإجابة قدر ما يعنيك تخفيف السرعة. لا تريد لهذا الخريف أن ينتهي، كما لا تريد للقصيدة أن تمتلئ فتنتهي. لا تريد بلوغ الشتاء. فليكن الخريف أبديتك الخصوصيَّة.

وليست تلك، كما يقولون، إحدى صفات المنفى! /

ليس المنفى سفراً، ذهاباً وإياباً، وليس إقامة في حنين. فقد يكون زيارة، وانتظـاراً لما يفعل بك الزمن، وخروجاً من الـذات إلى غيرها للتعارف والتآلـف أو لعودة الذات إلى الصَّدَفَة. لـكلِّ منفى طبيعةٌ ولكل منفيّ طبائع. في المنفى تدريـب علـى التأمُّل في ما ليس لـك، وإعجاب بما ليس لك. فالمنفى يهـذِّب الجسد، يفتنك جمال الشكل، ولو كان المعنـى ناقصاً، فالكمال هو وعـي النقصان. تماثيل تمجِّد الماضي وتماثيل تتوثب للقفز عن عاطفة الهوية إلى هويـة العاطفة، وتماثيل تحرِّر الغد من الجماليات وتحرِّر الطبيعة من نظام المخيلة الصارم. الجمال هو العُلُوّ. لكنك تنحـاز، لأنك ريفيُّ التكوين، إلـى الأشجار التي تنعكس في ماء النهر، وإلـى الحمام البر – جَوّيّ، وتتوقف طويلاً عنـد سوسنة نبتت، وحدها، خارج الأحواض... لا لأنها مثلـك غريبة بين الأزهار، بـل لأنها تعتمد على نفسها في نموّ بلا رعاية. ألمنفى سفر الشاعر في قصيدة، سفر داخل السفر، لكن اللغة المجازية تتلفت إلى الوراء.

والنظر إلى الوراء، يقولون، صفةٌ من صفات المنفى /

إلى أَين أَعـود؟ تساءلتَ وأنت تعلِّق لوحاتٍ على جدران عنوانـك الجديد، وإلى أَيـن أذهب؟ كان الأمـام مؤقتاً.

وكان الـوراء الطاعن في المؤقـت مُشَتَّتاً. وكانت الأبدية الطالعة مع الضوء من الحديقة تقهقه. مازَحْتَها قائلاً: أنتِ أَيضاً منفى. وتساءلت: كم من مساميرَ دَقَقْتَ على جدران بيوت أخرى؟ وكـم من لوحات عَلَّقْـتَ، وكم من أسرَّة هجـرت لينام عليها غيـرك، وكم من مُسَـوَّدَاتٍ ومطالعَ نسيتَ في أدراج أخرى، وكم من صور نساء ضاعت في طيـات كتب لم تقرأها. وكم مرة قلت: كم مرة أسافر، أو أهاجـر، أو أرحل؟ دون أن يتضح الفارق في مصيرك بين السفـر والهجرة والرحيل، من كثرة مـا تتسع المفردات لوهـم المترادفـات، ومن فـرط مـا تتعرضـ الاستعارة للتحولات: من «وطني ليس حقيبة» إلى «وطني حقيبة».

وفي المنفى تختار حيزاً لترويض العادة، حيِّزاً خصوصياً ليومياتـك، فتكتب: ليس المكان هو الفـخ / في وسعنا أن نقـول: لنا شارع جانبـيٌّ هنا / وبريـد / وبائع خبز، ومغسلـة للثياب / وحانوت تبغ / وركن صغير / ورائحة تتذكَّرُ ...

المدن رائحة: عكا رائحةُ اليود البحري والبهارات. حيفا رائحة الصنوبر والشراشف المجعلكة. موسكو رائحة الفودكا على الثلج. القاهرة رائحة المانجو والزنجبيل.

بيروت رائحة الشمس والبحر والدخان والليمون. باريس رائحة الخبز الطازج والأجبان ومشتقات الفتنة. دمشق رائحة الياسمين والفواكه المجففة. تونس رائحة مسك الليل والملح. الرباط رائحة الحناء والبخور والعسل. وكل مدينة لا تُعْرَفُ من رائحتها لا يُعَوَّل على ذكراها. وللمنافي رائحة مشتركة هي رائحة الحنين إلى ما عداها... رائحة تتذكر رائحة أخرى. رائحة متقطعة الأنفاس، عاطفيَّة تقودك كخارطة سياحية كثيرة الاستعمال إلى رائحة المكان الأول. الرائحة ذاكرةٌ وغروب شمس. والغروب هنا توبيخ الجمال للغريب.

وليس حُبُّ الغروب، كما يقولون، صفةً من صفات المنفى /

تُدْخِلُكَ الذاكرة وهي متحفك الشخصيّ، في محتويات الضائع... في حقل سمسم وحوض خسّ ونعناع... وفي قرص شمس يتهاوى في دخول البحر. يكبر الضائع فيك، ويكبر في هذا الغروب الذي يضفي على البعيد صفات الفردوسِ، ويُنَقِّيه من كل سوء. فكل ما هو مفقود معبود. وهو ليس كذلك!

جُرَّ المكان إذاً برسَن العبارة، واحمله كما تحمل اسمك،

لا ظلَّـك، في خيالك لا في حقيبة. الكلمات هي وحدها المُؤَهَّلَـةُ فـي هـذا الغروب لترميـم ما انكسـر من زمان ومكان، ولتسميـة آلهة غفلت عنـك وخاضت حروبها بأسلحة بدائيـة. الكلمات هي المـواد الأولية لبناء بيت. الكلمات وطن!

ضع قمراً على كل صفصافة، وفتاةً على كل نافذة، وغزالاً على كل نبع. وَدَعِ القصيدةَ تبني الجهة الجنوبية من العدم. إن أوجعـك المنفَى ولم يقتلـك أرجعك إلى مهد الخيال وقـوَّاك وسـاواك بمن يسهـرون على تدجيـن الغامض. والمنفـى، وهو سوء تفاهـم بين الوجـود والحدود، هو جسـرٌ لعبور الحساسيـة بين الصور، وهـو اختبار لقدرة النرجسـ على الزهو والتواضع معـاً، ومناظرة المختلف للمختلـف، ومُجانَبَةُ الشبيه للشبيـه. فليس كل ما ينبذك هنـا يحتضنك هناك. وليس كل ما تشبهه هناك يحتضنك هنـا. فدع للخيال ما للخيال: حريـة الكلمات في إِطاعة العواطف.

لكن إعلان العاطفة – يقولون – ليس من صفات لمنفى /

فلتصقـل المسافة بكفاءة المحتـرف الماهر، لا بهشاشة المشتاق الحائر، فليس شعر المنفى ما يقول لك المنفى،

بـل ما تقول له أَنت، نـدّاً لندّ. المنفى هـو أيضاً مضياف الاختـلاف والائتلاف. فلتصنع نفسـك من نفسك. ولا تنسَ أن تشكر المنفى بشهامة: سأمدحك، أيها المنفى، حيـث يليق بك المديح. هناك... تحت شجرة التين التي تستضيفني، عند بيت أمي، عابراً في خريف عابر!

XI

عاديٌّ يومك. الغيم رماديٌّ يهمل ما تقرأ عليه وما تكتب من خواطر، ويكمل جملةً موسيقية بعيدة بعيدة في مكان ما وزمان ما. تشعل الضوء صباحاً لترى القاموس الذي تفتحه عشوائياً على كلمة ما تُجْرِي عليها تدريبك الذهنيّ. ويفرحك أن تعرف أنك لا تعرف. تصحِّح أخطاءك اللغوية، والماء يغلي في المطبخ. تضع القاموس جانباً، وتمشي إلى المطبخ. تشرب كأساً من عصير البرتقال البارد. يُنعشك السكريُّ الحامض، وتحس بتيّار عافية يسير في العضلات وفي المعنويات. تصنع قهوتك طبقاً لتقاليدك الصارمة، ولتعاليم ديك الهال. تعود إلى القاموس وتحفظ أبياتاً من الشعر مصاحبة لتنوع استخدام

الكلمة. تتجه نحو الباب فلا ينفتح. تنسى أنك قد سحبت المفتاح من القفل ووضعته على الطاولة. فأنت تفعل ذلك منذ فترة طويلة، منذ مات صاحبك في غرفة مغلقة: تبقي القفل جاهزاً لاستقبال مفتاح آخر تحتفظ به مُدبِّرة المنزل التي تأتي في منتصف النهار. فقد تموت ولا ينفتح الباب، فتبقى أنت والموت وحيدين في الداخل. يا لها من خاطرة خبيثة: تريد أن تتزوج من امرأة لا وظيفة لها إلّا إعلان موتك! يا لها من أنانية! ويا له من حُبّ يزفّ النعي للنعي. تشرب فنجان قهوة آخر. ثم تجمع البريد الملقى خلف الباب. تفضّ الرسائل على عجل: فاتورة الهاتف، ضريبة التلفزيون، أجرة الشقة، فاتورة الكهرباء، إعلان عن موسم تنزيلات للسجاد الفارسي، إعلانات عن تخفيض في أسعار السفر إلى جزر نائية، ودعوات إلى مزاد علني لأثاث من عصر لويس الرابع عشر، وإلى معرض مجوهرات. تبتسم: لا شيء يعنيني. ثم تدير زرّ الراديو لتستمتع إلى نشرة الأخبار: ثلوج ومنزلقات، ثلوج وإضرابات، ثلوج وموتى من المسنين. لا ثلج في شرق المتوسط، فلا خبر. تغلق الراديو وتمضي إلى الحمّام. تحدِّق إلى وجهك في المرآة: لا جديد سوى ارتفاع السخرية إلى الحاجبين. لا عدو أقوى من الزمن، ولا خصم لك أنبل من المرآة. كان الزمن، فيما مضى،

يمضي بطيئاً كنملة. وكنا نستحثّه: عجِّل بنا! فلنا موعد بعد ساعة، فلا تستجيب عقارب الساعة لخرير دمنا الساخن. كان الزمن كسولاً كتلميذ خامل، ثقيلاً كأستاذ. كان يحرِّضنا على التأفُّف من بطء الغد، ولا يمحضنا نظرة إلى الماضي، إذ لم يكن للفُتوَّة ماض بعد. وما أن أتقنَّا قراءة الكتب الصعبة، ودخلنا في التجربة، حتى تحوَّلت حكمةً مطبوخةً في قِدْر الزمن، مطبوخةً كوعل بريّ يحتاج إلى توابل يمنعنا الأطباء من تناولها، فقد تأخَّرْنا عن الوصول إلى الوليمة في موعدها الصحيِّ، ودخلنا في سباق غير متكافئ مع الزمن الذي يقود مركبته الفضائية بأقصى سرعة. وصرنا نستمهله: أيها الزمن انتظرنا! فلنا موعد بعد شهر، فلا تسرع... لا وقت كافياً لنا لانتقاء الكلمات اللائقة بالمرأة الناضجة ولحجز مقعدين في الأوبرا، والتأكد من أنَّ أَحداً لن يُقْتَلَ نيابةً عنا، من فرط الشبه بين المارة على الليل، ولا وقت كافياً لنا لمراجعة ضرورية لأسماء العاطفة في موسوعة المترادفات. ونقول للزمن أيضاً: لا تلتهمنا قبل أن نعبر النهر وننظر من الضفة الثانية إلى المقاعد الخشبية التي تركناها خلفنا، على الضفة الأولى، نظيفةً لاستقبال عشاق آخرين سينظرون إلينا ونحن ننظر إليهم قائلين: كانوا مثلنا، فهل نصير مثلهم. تحدِّق إلى وجهك في المرآة. تضع عليه رغوة

الصابون وتشرع في الحلاقة. تبدأ من الجانب الأيسر، من أسفل السالف نزولاً إلى الذقن، ثم من تحت إلى فوق. تفتح حنفية الماء الساخن لتنظيف ماكنة الحلاقة، وتباشر العملية ذاتها في الجانب الأيمن. تواجه صعوبة في حلاقة العَنْفَقَة والسامِغَيْن. وكالعادة تسيل قطرات من الدم، فتضغط على الجرح الصغير بإبهامك، ثم تنظر إلى المرآة برضا مَنْ يتناسى مخاتلة الزمن، تتعرّى، تغطس في حوض الماء الساخن، تداعب فقاعات الصابون والرغبة الملونة كقوس قزح ذائب. تفرك أعضاءك عضواً عضواً بعناية فائقة، كأنك أمّ تُحمِّم طفلها. ويحلو لك أن تغنّي، فينقِّحُ الصدى نشاز اللحن وتطرب... وتعجب من ارتباط الماء بالغناء، صوت الماء إيقاع. ولعلَّ الموسيقى هي انتظام قطرات الماء في روح تتجلَّى بيد العازف على آلات مصنوعة من مادة مائية عاطفية. تدلف إلى غرفة النوم، تفتح خزانة الثياب. ترتدي ملابسك الداخلية البيضاء، ثم قميصاً أزرق وبنطلوناً كحلياً وجوربين كحليين [لا تميّز بين الكحلي والأسود] وتنتعل حذاءً أنيقاً أسود [الأناقة تبدأ من الحذاء]، وتمضي إلى موعدك الصباحي... إلى الغامض، إلى الهواية التي صارت حرفة، والحرفة التي ظلَّت هواية. فنجان القهوة على يسار المكتب، وعلبة الأقلام على يمينه قرب دواة الحبر الأسود. وفي الوسط

أوراق بيضاء ملأى بكتابة بيضاء. تناديك وتناديها، وفيها ما فيها من ذاكرة السابقين المتخفّية. وأنت وحدك بلا معين وبلا ضمان، تحاول أن تعثر على سطرك الخاص بك في هـذا الزحام الأبيض الممتد ما بين الكتابة والكلام. لم تعد تسأل: ماذا أكتب، بل كيف أكتب؟ تستدعي حلماً فيفرُّ من الصورة، وتناشد معنى فيضيق به الإيقاع. وفي ظنك أنك قد تخطَّيتَ العتبة الفاصلة بين الأفق والهاوية، وتدرَّبت على فتح الاستعارة لغياب يحضر ولحضور يغيب بتلقائية تبدو مطيعة. وتعرف أن المعنى في الشعر يتكوَّن من حركة المعنى في إيقاع يتطلع فيه النثر إلى رعوية الشعر، ويتطلع فيه الشعر إلى أرستقراطية النثر. «خذني إلى ما لستُ أعرف من صفات النهر... خذني». جملة موسيقية كهذه تشق طريقها في مجرى الكلام، جنيناً يتكون، ويكوِّن ملامح صوت ووعداً بقصيدة. لكنها في حاجة إلى فكر يقودها وتقوده في مناخ الإمكانيات المفتوحة، وإلى أرض تحملها وإلى قلق وجودي وإلى تاريخ أو أسطورة. ألسطر الأول هو ما سمّاه الحائرون، إزاء مصدره، الإلهامَ أو الإشراق. الباقي عليك وحدك. عليك أن تجد الباقي وعناصر البناء الكفيلة بصب الشعر، شعر الحياة، في نظام القصيدة. فمنذ هبط عليك السطر الأول أصبحت أنت الصانع

الماهر والشاعر إن حالفك الحظ وأدركت الخطأ. أليس الشعر محاولة ما لإصلاح خطأ؟ تترك المكتب مطمئناً إلى أن صباح الغد سيوفر لك عملاً ما دام السطر الأول في انتظارك. تتناول وجبة الغداء مع كأس النبيذ، على وقع جيتارات جُنّت على طريق الأندلس. ويعجبك أن تظن أن الغيم الرماديَّ ذاكرةُ موسيقى متخفيَّة. تتمدَّد في القيلولة نصف ساعة لا أكثر، نصف ساعة تكسر روتين النهار وتهدّئ دقات القلب. تستيقظ نشيطاً بعدها، وتقضم تفَّاحة أو أجاصة على عجل، وتذهب إلى موعدك بعد الظهر. تصل دائماً قبل الوقت بعشر دقائق. تختار مقعداً قرب الحائط الزجاجيِّ في مقهى غير مزدحم. تتصفَّح الجرائد التي لا تقرأها في الصباح. تنظر إلى الساحة المزدحمة بالمشاة والطيور الجريئة. تتأمل مشي النساء: منهنَّ مَن تمايلت، ومنهن مَنْ تثاقلتْ، ومنهنَّ مَنْ تَهَادَتْ، ومنهنَّ مَنْ تمادت في إيقاظ البرق بين الساق والساق. ثم تتلهَّى بالنظر إلى أشجار الجوز الباسقة السامقة تتشرَّب قطرات الضوء. وتحسُّ بيد تربِّت على كتفك. تعانق صاحبك النحّات الذي يهدِّدك: هذه آخر مرة أرشِّحُكَ فيها للخلود. تضحك من تواضعه ومِن الخلود معاً: ألَم أَقل لك إن الخلود عَلَف الحمار المُفكِّر، ورِشْوَةٌ يعرضها الماكرُ على تاريخ أمكر؟ يتدخل النادل وهو يضع فنجان

القهوة: الخلود ورقة يانصيب رابحةٌ مات صاحبها قبل إعلان النتيجة بدقائق. يسألك النحّات: لماذا ترفض أن أصنع لك تمثالاً صغيراً تضعه إلى جانب ألبوم الصور. تقول له: ليس عندي ألبوم صور ولا أَرشيف. يسأل بدهش: وإن متّ فأين سيجدونك. تقول: في قبري. يلحّ بالسؤال: لماذا ترفض التمثال؟ تقول: لأني أريد أن أتحرّك... أن أمدَّ يدي لأكشّ الذباب عن وجهي، وأن أمدّ لساني ساخراً، وان أُنْزل رِجْلي إلى الشارِع. يقول: ثق بيِ، سأجعل الحركة مرئيَّة. تقول: ولا أُريد أن يكسرني أَحد. أنا من يفعل ذلك. والتمثال غير قادر على النقد الذاتي. يقول لك: أنت إذاً حمار. تقول: كخلودك هذا. تفترقان بمودّة. تعود إلى شُقّتك ماشياً لا على أربع، لأنك لست حماراً. تبحث في التلفزيون عن مباراة كرة قدم، وعن فيلم بالأسود والأبيض، ولا تجد. تنتظر مكالمة من امرأة غضبت منك لأنها اختلفت معك على تعريف الحب. تقرأ حتى منتصف الليل. ثم تضع رأسك على المخدة وتستعرض يومك: هل أسأتُ إلى أحد؟ وتنام على سطرين:

«خُذْنـي إلى ما لَسْتُ أعرف مـن صفات النهر، خذني !
خذني إليك ...»

XII

تحبُّ النوم... اليقظـةَ المغمى عليها كحالك هذا. ألنوم سيِّـد وسلطـان. وأَنت، نائمـاً، سيِّدُ نفسـك وسلطانُها. حـيٌّ بلا تكاليـف حياة. حيّ فـي موت مجـازي مُنْتقىً بعنايـةِ ملاك، لتمريـن الجسد على زيـارة اللامرئيّ بهيئة اللائق باللائـق. النائم لا يكبر في النـوم، ولا يخاف ولا يسمع أنباء تعصـر العلقم في القلب. لكنك تسأل نفسك قبل النـوم: ماذا فعلتُ اليوم؟ وتنوس بيـن أَلم النقد ونقد الألـم... وتدريجياً تصفو وتغفو في حضنك الذي يلمّك من أقاصي الأرض، ويضُمُّك كأنك أمُّـك. النوم بهجة النسيـان العليـا. وإذا حلمت، فلأنَّ الذاكـرة تذكَّرتْ ما نَسِيَتْ من الغامض.

تنام، وتعلـم أنك تنـام فيفرحك النوم وتمـدح الكسل، صديـق النـوم والمواهـب. ولا يهمُّـك أن يُطيـل النومُ عمـرك، بل يهمك أن يطيـل العمرُ نومَـك. النوم ضيافة الأبيض علـى الحواس، وارتيادُ الأزرق أرضَ المُطْلَقِ بلا مرشدين وكهنة وصوفيين. والنائمون سواسية على الرغم من اختلاف السُّرُر والسرائر. لكن اليقظة هي التي تفرِّق بين النائمين، وتجرهم إلى حروب ما قبل النوم وبعدَه. لو نام العالَمُ أكثرَ لصارتِ الفوارقُ أقلَّ.

وأَنـت نائـم تعلم أنـك نائـم فتتوغَّل في النـوم، وتنتشي بسحابة دافئـة تحتضنك وتحتضنهـا، طائرين بلا موعد وبلا مقصد غير هذا العناق المجانيِّ. جناحُكَ الأيسر لك وحدك، والأيمن أَيضاً. يوقظُكَ شخيرُكَ ليذكِّرَكَ بما أَنت فيـه من لهفة إلى مزيد من الخفة: أنت نائم. قد تنسى أين أنت ومن أين أتيت ومتى وصلت، فتشعل ضوء المصباح وتعلم أنك في أرض النوم، فتشكر خفَّة الريش المباركة. وتغفو غير آبـه بشعاع يتلصَّص عليك مـن النافذة، وغير آبه بصخب الشارع. فالنوم، معافىً، لا يُصْغِي ولا يُبْصر.

لكنـك ترى النوم وتسمعه وتشـم روائحه وتذوق نعماه وتلمسـه عضـواً عضواً، وتنـام وتعلم أنك نائـم، وأنك

موغل فـي سفر بلا طـرُق وخرائط وعناويـن، في نزهة منزّهة عن أية غاية. تغادر العالـم، عالـم الأشياء والكلمات ومـا يفرق بينها، ويجمـع في ساعات الليـل، كأن الليل سرير. وتعجب لمن جعلوا الليل نهاراً والنهار ليلاً. النوم امتـلاء الجسد بالطمأنينـة والسكينة، وخلـوّ الذهن من الرعب والضجر. لا ضجر في النوم ولا خطر. هو حاجة الصحو إلى غيبوبة قريبة من تشبيه الشيء بشبيهه الغائب، وتنبيه المخيلة إلى آثـار الوقت السلبية فيها، إن لم نعطِّل الساعة. النـوم يوقف الوقت عن العمل. ثماني ساعات، ثمانـي ساعات نائمة لا أقلّ. فإذا نَقَصَتْ لسببٍ ما، كأن يوقظها رنينُ الهاتف أو جرس الباب، كان صَحْوُكَ دائخاً ومشوباً بالكمد. كأنَّ الأرق الذي لم يُصِبْكَ في الليل قد أمسك بتلابيب النهار كلّه.

كـم كُنْـتَ تمقت الأرق! لأنه يستعصـي على المحاورة، عنيـد شديد المراوغة سعيد بقدرته علـى المناورة. كلما جامَلْتَـهُ ازداد ثرثرة واستبسـالاً على وهن الجسد العاجز عن شرف المقاومة أو راحـةِ الاستسلام، واستعان عليه، ليذلَّـهُ، بتسليط الوعي على الحواس. الأرق ضَيْفٌ ثقيل يحـلّ عليك بـلا موعد. يحرمـك من النوم ومـن اليقظة معـاً. الأرق طنين بعوضـة، وصراع خفـيّ على لحاف

ومخـدّة وركبتين. وأَنت الذي تُقْتَلـعُ عُنْوةً من جسدك، وتُعادُ إلى جسـدك الأول مُخَدَّراً مُسَهَّـداً لا تجد وصفاً لعـذاب الخَـدَر إذا ما طـال وصحا. والنـوم، إذا تدخّل الأرق لا يُفاوَض، كالوحي لا يُفاوَض، وكأيّ عضو يأبى الاستجابة لا يُفَاوَض.

تحاول أن تنتشل جسدك العالق بين النعاس واليقظة، فتضغط على زر الضوء بصعوبة. وبصعوبة تفتح كتاباً، بصعوبة تقرأ، وبسهولة تنسى ما قرأت. تحاول أن تحلم يقظاً، أن تحلم بأنك نائم، فتنام وتعلم أنك نائم... ولا تحلم كثيراً. منذ متى لا تحلم كثيراً؟ منذ وَضَعْتَ قلماً ودفتراً على طرف النوم لتدوّن أطراف كلام خفيف الوزن خفيف اللحن، يهبط عليك كحبيبات الندى، لا هو شعر ولا هو نثر، لا أَرضيّ ولا سماويّ. لكنه يطير بك وتطير به، فتصفو وتخفّ وتشفّ، وتفنى في معنى لا تفهمه. تستيقظ في الصباح مرحاً فرحاً كأنك تتمّم ما هبط عليك من نداء لا تتذكر منه إلّا الرعشة التي تَمُدُّكَ بطاقةِ إنشاد، فتدرك أن يومك هو امتداد حلمك... فاعرف –قُلْتَ لنفسك– كيف تحلم.

ومنذ نصبـت القلم والدفتر شـرَكاً لاصطياد الحلم جفل

الحلم من التدوين، ربما لأنه لا يرغب في أن يُكْتَبَ أو يُطْلَبَ عند الحاجة، فلا تنتظِرْهُ كما تنتظر الوحي. سيأتي هو السيِّد كما يأتي الحب بلا استئذان. سيأتي هو السيِّد، حين لا تنتظره، شفّافاً لتعرف أنك نائم لا ميت. وقد يأخذ بيدك كي تمشي معه في جولة تتفقَّد فيها آثار نفسك المنسية على أرض بعيدة. تقول: أنا هو، وهو الظلّ... وتركض في ذكراك. وحين يراك الحلم على وشك الانتباه إلى خارطة الذاكرة يعيرك أحد جناحيه، ويقلع بك إلى بساتين برتقال مُعَلَّقةٍ فوق الغيوم، وإلى طيور لا تعرفها، لكنها تخاطبك بمنطقها الذي تفهمه دون مكابدة... فتولد من ذاتك ذاتٌ أخرى أعلى، وتحتضن الكون ويحتضنك الكون، فَيَصير داخِلُك خارجَك، وخارجُك داخلَك. وتقولك أنا هو أنا!

تصحو في الصباح مُبلَّلاً بندى يرشح من عناق الليل والنهار، وتسير إلى الغد الذي فتحه لك الحلم بكلمات مبهمة، تأخذك إلى أعلى وأَبعد من هذا القاع. فاذهب معها... مع الكلمات، والعب بها لعبة البراءة والقَصْد. واكتب بها ما فاتك من أسماء، وتوقاً إلى طيران يجعل الأرض أكثر استدارة، تُفَّاحةً تسقط إلى فوق، وتدور على نفسها ويدور الزمان معها، فليس كل ما كان سيكون،

وليس كل ما سيكون كان. فلا تثريب عليك إذا حدث خلل طارئ في هبوط الحلم عليك. فهو مثلي ومثلك يصاب بالحُمَّى، فيهذي مثلنا بكلمات تحتكّ بكلمات لا تنتج عبارة، ويتواصل اللامعنى مع ارتفاع الحرارة.

ويأخذك الكابوسُ إلى مرتفع يُطِلُّ على مرتفعٍ بينهما هاوية لا يبلغ البصر قرارها. تحاول القفز من المرتفع إلى المرتفع فتسقط في الهاوية وتصحو على صراخك المبلَّل بالعرق. ويأخذك الكابوس إلى احتفال رسمي. وحين تصعد إلى المنصة تجد نفسك حافياً عارياً دون أن تتمكّن من النزول عن المنصة. ويأخذك الكابوس إلى امتحان في قواعد اللغة الصينية. لكنه لم يأخذك مرة واحد إلى موت أكيد وإلى زواج طويل.

لكنك تحبُّ النوم. وتُحَيِّي هيبنوس، إله النوم الإغريقي، وتنسى أَنه شقيق الموت. تحبُّ النوم... اليقظة المغمى عليها كحالك هذا، دون أن تعلم أن نومك هذا قد زاد عن حدِّه. ودون أن تعلم، هذه المرة، أنك نائم!

طال نومُك، فانهضْ وحُلْمَكَ، وآروِ لنا ما رأيت /

هل رأيــت ملائكةً يعزفون على النـاي ألحان موزارت / ولا يسكرون من الخمر ؟ /

هل دَلَّلوك وهل أطعموك من العنب السُّكَّريّ؟ /

وهل أخذوك إلى نزهة في ضواحي البساتين؟ /

هـل كُنْتَ تشبههـم عندما أنزلوك إلـى النهر، طفلاً، كما كنت أيّام رفقتهم؟ /

مَنْ تغيَّر منكم هناك، ومن قال: يا صاحبي في الطفولة؟ /

هل يشبه التينُ تينَ سياجك؟ /

هـل يشبه الحُلْمُ، حلمـك، أشياءَ بيضـاء، خضراء، زرقاء تعرفها ؟ /

طال نومك، فانهض وحُلْمَك، وارو لنا ما رأيت؟

«هل الموتُ نومٌ طويـلٌ، أم النوم موت قصير؟» تأخرت في النوم... فانهضْ !

XIII

فـي نومكَ هذا ذكرى نوم آخـر أَحملها الآن بدلاً منك: اختـرقَ خنجرٌ صدرَك، فصرختَ: في أيِّ قلبٍ أُصبتُ؟ لـم تسمع أَحـداً يذكِّرك بأن لك قلباً واحـداً، فقد أُغمي عليـك في ليـل فيينـا البـارد. وعشـتَ، لأن يـداً إلٰهيَّةً أسْعَفَتْـكَ. فلماذا لا تنهضـ الآن وتسألني: في أيِّ قلب أُصبـت! فأكذب عليك: من القلب المحفور على جذع شجرة!

نـومٌ أبيض. نـومٌ باهـرٌ كان يحملك كريشـة على غيوم بيضاء... تخرج من جسدك وتسبح ذرَّةً من ذرات الكون. تخرج من نفسك ولا تدخل في شكل. تسبح كما لو كنت

تطيـر، وتطير كما لو كُنْتَ تسبـح... خفيفاً شفيفاً كأنَّك روحُك، خالياً من الماضـي وخاوياً من الحاضر، مُفْرَغاً من الزمن والعاطفة. فلا أنت شيء ولا أَنت لا شيء. لكنك تـرى كما لم تَرَ من قبل. ترى الضـوءَ أبيضَ والغيمَ أبيضَ والهـواءَ أبيضَـ. ولا تسأل أَين أنـت. لا أَحد حولك ولا تريـد أَن تعرف إلى أَين تطيـر ولا تخاف الطيران. كأنك صِفَـةٌ من صفات المسرَّة الكبرى منثورٌ على قطن الراحة الأَبدية. لا تخشـى السقوط من علٍ، ولا تخشى الصعود علـى أَعلى، فلا انخفاض ولا عُلُـوّ في اللامكان الدائريّ هـذا. لا تُشبـه نجمةً خرجت عن مسارهـا وظلَّت تدور في المجـرَّة. ولا تتذكر متى خرجـت من جسدك لأنك لا تتذكـر أنك كنت في جسد. اجْتَزْتَ نفقاً ضيِّقاً نقَّطك كقطرة ماء، في الأفق. هكذا خُلِقْتَ قبلك في هذا الفضاء الأبيضـ المنعش. وعُدْتَ إلى أَوَّلـك. تنام ولا تعلم أنك نائـم ولا تحلم، كأن الحلم هو اختـراع المحرومين من السكنـى في مثل هذه السماء. كأنك روحُكَ وقد أُعْتقتْ مـن أَسر الزمن والشكل، وهامت وحامت وقامت إلى لا مستقرّ.

ثـم صرخـت، صرختَ فجـأة حيـن عُدْتَ إلـى جسد مربوط بأسلاكٍ وأَجهزة في غرفة رمادية. أَين أَنا؟ سألتَ،

فنهَـوك عن الـكلام. وعلمت فيما بعـد أَن صرخة الألـم كانت دليلَ عودتك إلى الحياة التي تبدأ وتنتهي بصرخة. وسألت: أَين كنتُ إذاً؟ فقيل لك إن الموت قد اختطفك لمـدة دقيقة ونصـف الدقيقـة وأن صدمـة كهربائية قد أَعادتـك إلى الحياة. وفكرت: هـل كان الموت جميلاً ومريحـاً إلى هذا الحدّ؟ لا. ليس هـذا موتاً. إنه حياة من نوع آخر. إنه نوم مُعافـىً. نوم كُلّيُّ الهناءة. وأدركت ما لـم تدرك من قبل: أدركـت أن الموت لا يوجع الموتى، بل يوجع الأحياء. وفي غرفة العناية الفائقة أذن لنا الأطباء بأن نحتفل بعيد ميلادك.

فاصرُخْ، يا صاحبي، لأعرف أنك حيّ. واسألني لأكذب عليك: أنا حيّ مثلك. ناجٍ من حادثةِ حياةٍ يذكّرنا الموت بمعناهـا فنحياها بفـرحٍ الذاهبين إلى نزهـة... وينساها المـوتُ فنحياها كما لو كانت غزواً بلا نهاية. وأَنا مثلك علـى هذا البـرزخ: أَصـرخ لأعرف أني حـيّ. لكنك لا تصرخ مثلي لأعرف أنك حيّ. طالت خطبتي ولم تنهض. وعلـيَّ أن أنهي خطبتي لألتحق بما يُمْليه عليَّ الموتُ من واجـب العزاء بمن ماتوا في هـذه الساعات... ولألتحق بمـا تُمْليه علـيَّ الحياةُ من واجب التهنئـة بمن وُلدوا في هذه الساعـات. الصرخة هي الصرخة فـي البابين: باب

الدخـول، وباب الخروج. أَمَّا العَـدَم، فإنه يكتفي ببلاغة الوعيد من بعيد.

ومـن بعيد تجيء القصائد. أشبهُكَ ولا أكونُكَ. وأكونُكَ ولا أشبهُكَ.

وفـي نومك هـذا ذكرى نـوم آخـر، أحملهـا الآن نيابة عنك. قال لنا الطبيب: ابدأوا منـذ اليوم بإعداد الجنازة. لم نصـدِّق، فلم نسأل: أين؟ لأنك لم تترك وصية. كانت باريس وضواحيها في هيجان الربيع. وكان الرذاذ يختلط بدموعنـا. أَلم نحتفل قبل أُسبـوع هنا بعيد ميلادك حيث قُلْتَ لنا مازحاً: لعلَّه الأخير؟ ثم دخلت إلى غرفة العمليات بحماسة لم نفهمها.

تهذي. تضرب الهواء والأسلاك الطبية بيديك ورجليك، وتهـذي. قيّدوك وخـدروك ونوَّموا الثـور الهائج فيك، وظللت تهذي.

سردابٌ كقاع بئر مهجورة. تصرخ ولا تسمع صراخك. تختنق بدخان ينشره خَلَلٌ ما في جهاز التنفس. لكنك تراه وتشمه وتختنق. يربطك مُمَرِّضان إلى صخرة وينهالان عليك ضرباً. ثم تنقلك حافلةٌ بلا سائق إلى زنزانة. تصرخ

ولا تسمع صراخك. ترى إلى نفسك تمشي عارياً في الشارع. تحاول أن تغطّي عورتك بيدك فتسقط منك يدك. يتناولها أَحد الصبية ويرميك بها ضاحكاً: أَبي مجنون. تصرخ ولا يخرج منك صراخك. يسقط في رئتيك كالحجر. تنزع أَحد الأجهزة الطبية، فيرنّ جرس الإنذار. يأتيك السَّجّانُ بهراوة غليظة. تحاول أن تقول له شيئاً، فلا يخرج منك صوتك. تشير بأصابعك إلى أنك تريد ورقة وقلماً. تكتب: فقدتُ لغتي!

حين تصحو من الهلوسة وتهدأ، تعلم أنك في المستشفى، فتسأل: متى يجرون العمليـة الجراحية؟ يقولون لك إنها تمَّـت منذ أسبوع. تواصل قراءة «باب الشمس». يزورك مؤلـف الرواية وتناقشه في بعضـ التفاصيل وأنت صافي الذهن. وفي نهاية الزيارة تهمس له: بعد قليل، حين يتلهّى الحُرَّاس، خذني معـك! هَرِّبني من هذا السجن! لا تفهم لماذا تدمع عينـاه، وما إن يودِّعك ويخـرج حتى تسقط ثانيـةً في قاع البئـر المهجـورة، وتصـرخ: أَخرجوني! فينهال عليك السجانون ضرباً إلى أن يُغْمى عليك.

كلما عادَكَ زائر بَدَوْتَ هادئاً في البداية. وفي نهاية الزيارة تروي قصة تعذيبك وتطلب منه التواطؤ على عملية التهريب.

لم تعرف أنك في صراع مع الموت. بل كنت تحسب أنك في صراع على الحرية... حتى ظَنّت ليلى، ملاكك الحارس وأصدقاؤك نبيل وصبحي والياس وفاروق، أَنك قد أُصبت بالجنون، فاتصلتْ بالطبيب في ساعة متأخرة من الليل لتسأله إن كنت قد جُنِنْتَ حقاً. فطَمْأَنها إلى أَنَّ ما تراه هو هلوسةٌ ناتجة عن جرعات التخدير العالية قائلاً: إن لا وعيه هو الذي يقاوم الموت. ولكن استعدّوا لما هو أَسوأ! وفكرتَ فيما بعد، أيهما أسوأ، أن ينتصر عليك الموت فتطير في رحلة البياض؟ أم أن تنتصر على الموت بالجنون فتسير في شوارع الفضيحة؟

ورأيتَ الفأر الذي امترق من أمامك قبل عام، واختبأ في غرفة النوم. بحثتَ عنه في كل زاوية ومعطف وحذاء ودُرجٍ ولم تجده، فنمت في غرفة أخرى. وحين فتحتَ حقيبةَ الملابس في مدينة أخرى رأيتَهُ يقفز من الحقيبة ويختبئ في ما يشبه الهوس، فطلبت من إدارة الفندق استبدال الغرفة بغيرها. وحين عُدْتَ من السفر وفتحتَ الحقيبة رأيتَهُ يقفز ساخراً منك ويختبئ في المراوغة. هل يطاردك الفأر أم تطارده؟ هل هو فأر أم وسواس؟ هل تخافه أم يخافك؟ سرداب كقاع بئر مهجورة. وفأر يقفز من هذيان حُرّ إلى هذيان حُرّ. وأنتَ مشدود إلى صخرة

كصخـرة مُكمَّمـة: ليتني كنـت هناك، فـي ذاك الموت الأول، غيمةً بين الغيوم. ولم يسمعك أحد سواي.

ورأيتَ الشعراء ينصبون الفخاخ لصيد الحجل.

ورأيـت الشهـداء واقفيـنِ، كلٌّ على نجمتـه، سعداء بما قدَّموا للموتى الأحياء من أمل.

ورأيـتَ رأيتَ رأيت بلاداً يلبسهـا الشهداء ويرتفعون بها أَعلـى منها /وَحْياً وحياً. ويعودون بهـا خضراءَ وزرقاء / وقاسيةً فـي تربية سلالتهم: موتوا لأعيش! / فلا يعتذرون ولا يَنْسَـوْن وصاياهم لسلالتهم: أَنتـم غَدُنا، فاحْيَوْا كي نحيـا فيكـم ! / وأَحِبُّوا زهر الرُمّان / وزهـر الليمون / . وصُبُّوا خمرتنا في عيد الحب /! فلم نجد الوقت لنشربها معكم /. عفواً! لم نجد الوقت /. فلا تَنْسَوْا أَنتم أن تجدوا الوقت لتحتفلوا بالحب /، وتنتقموا بالحب لنا ولكم! /

تصغـي إليهم إصغاء المديح للإيقـاع. فتقع الجرَّةُ من يد المـوت وتنكسر. تلمّ الشظايا حرفاً حرفاً وتركِّب الاسم وتنطق. وتدرك – حين تراهم يحملون أقواس قزح بخفّة الصاعدين إلى أعلى – أن البطولة أَبسط من وصفها. وأن ثمـة مشاريع وراءهم – أَمامك تتحـرَّق لاشتقاق المعنى

من العبث. وتدرك، حين تسمعهم يُرَتِّلون ما لا تفهم، أن الموت مجاز غامض أمـام كثافة الوضوح في هذا الممر الطويـل. فتنهض من سريـرك واثقاً من عافيـة الروح... وتزحـف. تزحف علـى يديـك ورجليك إلـى الحمَّام، معتمـداً على نفسك. وحين تسمـع صوت الماء يخرخر فـي دورة الميـاه تعلم أنك حـيّ. وتعيد الكَـرَّة، لتسمع صوت الماء. الماء الماء الماء.

ألا تسمع صوت الماء الآن. إنها تمطر!

XIV



ألحنينُ مسامرةُ الغائب للغائب، والتفات البعيد إلى البعيد. الحنين عَطَشُ النبع إلى حاملات الجرار، والعكس أَيضاً صحيح. الحنين يجرّ المسافة وراءً وراءً، كأَنَّ التطلُّعَ إلى أمام، وقد سُمّيَ أَملاً، خاطرةٌ شعرية ومغامرة. فعل المضارع حائر متردِّد، وفعل الماضي الناقص معلَّقٌ على سَرْوَةٍ وَقَفتْ خلف تلَّة، على ساقها الراسخة، والتفّت بأخضرها الداكن، وأرهفت السمع إلى صوت واحد: صوت الريح. الحنين هو صوت الريح.

وكلما توغَّلْتَ في وحدتك، كتلك الشجرة، أَخذك الحنين برفق أمومي إلى بلده المصنوع من موادَّ شفافةٍ هشّة،

فللحنين بلد وعائلة وذوق رفيع في تصفيف الأزهار البرية. وله زمن منتقىً برعاية إلهية، زمن أسطوريّ هادئ يَنْضجُ فيه التين على مهل، وينام فيه الظَّبْيُ إلى جانب الذئب في خيال الولد الذي لم يشاهد مذبحة. ويطوف بك الحنين، كدليل جنة سياحي، في أنحاء بلاده، ويصعد بك إلى جبل كنت تأوي إليه وتتمرَّغُ في النباتات البرية، حتى تتشرَّب مسامُّ جلدك برائحة المريمية. الحنين هو الرائحة.

وللحنين فصل مُدلّل هو الشتاء. يُولَدُ من قطرات الماء الأول على عشب يابس، فيصعِّد زفرات استغاثة أُنثوية، عطشى إلى البلل. وَعْدٌ بزفاف كونيّ هو المطر. وَعْدٌ بانفتاح المغْلَق على جوهر، وحلولُ المطلق في ماهيّاتٍ... هو المطر.

كم من سنديانة هناك تَشْرَئِبُّ إلى اثنين: أنتَ وهي: تركضان تحت المطر، بلا مظلّة وبلا قُبَّعة، سعيدين بفضيحةٍ شريفة، سعيدين بنصف عُرْي. تركضان ولا تعرفان إلى أين، متحرّرين من الطريق ومن الهدف. تلهثان معاً من تعب لذيذ السبب. وتندسَّان في جوف سنديانة ضيِّق لا يتسع إلّا لواحد. فتلتصق بك وتلتصق بها حتى تصيرا اثنين في واحد. وتَعْتَصِرُكَ وتعتصرها فيسخن الماءُ

عليكما وفيكمـا وتلهثان من الدفـء، ولا تحتاج الشهوة إلـى ذريعة المطر الـذي أدخلكما إلى مخـدع السنديانة وانصرف. الحنين هو اختلاط النار في الماء.

وللحُمَّى صفـةٌ أخرى هي الحنين. فـي كل شتاء يوجعك فـرح غائب، وتمشي تحت المطر واحـداً في اثنين: أنتَ ومن كُنْتَهُ في شتاء آخر، فتُفَتْفِتُ إلى نفسك كلاماً لا تفهمه لعجز الذاكرة عن استعادة العاطفة السالفة، ولقدرة الحنين علـى إضفاء مـا لم يكن على مـا كان، كأنْ تصبح الشجرة غابة، والحجر حجلة، وكأنْ تكون سعيداً في زنزانة تراها أَوسع مـن حديقة عامـة، وكأنْ يكون الماضـي واقفاً في انتظارك غـداً ككلب وفيّ. الحنين يكـذب ولا يتعب من الكذب لأنه يكذب بصدق. كذب الحنين مهنة. والحنين شاعر محبط يعيد كتابـة القصيدة الواحدة مئات المرات. وعجـوز مـا زال يحبو لأنـه نسي حركة الزمـن وتحاشي النظر في المرآة. الحنين هو التزوير البريء للوثائق لحماية مرجعيـة المنفيّ من الصدأ. وهو الكِلْسُ الضروري لتلميع البيوت المهجورة.

لكـن أحداً لا يحنّ إلى وجـع أو هلع وجنازة. الحنين هو اختصاصـ الذاكرة في تجميل مـا احتجب من المشهد،

وترميم شُبَّــاك سقط دون أن يصل سقوطـه إلى الشارع. والحنين قَصَاصُ المنفى من المنفيّ، وخجل المنفيّ من الإعجـاب بموسيقى منفـى وحدائق... فـأنْ تحنَّ يعني أن لا تغتبط بشيء، هنـا، إلّا على استحياء. لو كنتُ هناك –تقول– لو كنتُ هنـاك لكانت ضحكتي أعلى وكلامي أوضـح. فالحنين هو تـوق الكلمات إلـى حيِّزها الأول حتى لو كانت غامضة وغريبة عن الجماعة. لكني –تقول لنفسـك– أوثر الاغتراب في المنفـى على الاغتراب في البيت، ففي المنفى ما يوجب ذلك.

لذلـك تحنُّ في الزحـام إلى نفسك، إلى خلـوة للكتابة. الكتابـة اقتراب واغتـراب يتبادلان الماضـي والحاضر. ظمـأ الكلمـات إلـى مـاء يلمع فـي سـراب الأسطورة، وانقـلاب التشبيه على المُشَبَّـه، وتمويه الواقع بالصورة، بيديْ الحنيـن الحريريَّتَينْ تروِّضـ المسافة... إذ تسقف سمـاءك بكواكب مستعـارة، وتمضي مع امـرأة أخرى، حقيقيّـة، إلى غرفة دافئة، معافىً من أسباب الحُمَّى، ومن أنين متقطّع لا يكتمل. فلصوت المطر على الزجاج هياج الرغبـة. ليس أكثر من هذا ليبـزغ الضوء من ليل الجسد: سريرُكِ سـرُّكِ / ماضيكِ يأتي غداً / على نجمةٍ لا تصيب الندى / بـأذى. تلقي برأسك على ركبتيها لتستمع إلى ما

يقـول الجسد الخالي من الحنين، فقد خُلِقَتْ حوّاءُ للتوِّ، وللتـوِّ ولدتَ بلا ذاكرة. أنتِ غـدي وحاضري ولا أمس لـي – تقول لها. وتقول لك: أنـتَ غدي وحاضري ولا أمس لي. تنامان اثنين في واحد، ولا تحلمان بما هو أكثر من هذا. لم يسأل أحد منكما الآخر عن معنى الاسم، من شدَّة ما كان مجهولكما الشهيّ عاكفاً على تأجيج الفتنة. تفتنـك وتفتنها. وبعد أن تمتلكها وتمتلكك، وتمتلئ بها وتمتلئ بك، يناديك ما يناديها من أقاليم البعيد، فتحنّ هي إلى ماضيها خلف الباب، وإلى أغنية غير أُغنيتك /

ألحنينُ إلى البداية، إلى الطريقة التي تمَّ بها إيلاج المفتاح في قفل الباب. وإخفاء النظرة عن غايتها. واختيار المقعد وموسيقى الليـل بعفوية مُتَمَرِّسة – هـو التمرين العاطفيّ على جسِّ نبض الكون. وهو، أي ذاك الحنين، استرجاعٌ للفصـل الأجمل في الحكايـة: الفصـل الأول المُرْتَجَل بكفاءة البديهة.

هكـذا يولَدُ الحنيـن من كل حادثة جميلـة، ولا يُولَدُ من جرح. فليس الحنيـن ذكرى، بل هو ما ينتقى من متحف الذاكـرة. الحنيـن انتقائـيٌّ كبستاني ماهر، وهـو تكرار للذكـرى وقد صُفِّيتْ مـن الشوائب. وللحنيـن أعراضٌ

جانبيَّة من بينها: إدمانُ الخيال النظرَ إلى الوراء، والحَرَجُ من رفع الكلفة مع الممكن، والإفراط في تحويل الحاضر إلى ماض، حتى في الحبِّ: تعال مع لنصنع الليلة ماضياً مشتركاً - يقول المريض بالحنين. سآتي مَعَكَ لنصنع غداً مشتركاً - تقول المصابة بالحبّ. هي لا تحبُّ الماضي وتريد نسيان الحرب التي انتهت. وهو يخاف الغد لأن الحرب لم تنته، ولأنه لا يريد أن يكبر أكثر.

الحنين ندبة في القلب، وبصمة بلد على جسد. لكن لا أحد يحنُّ إلى جرحه، لا أحد يحن إلى وجع أو كابوس، بل يحنُّ إلى ما قبله، إلى زمن لا ألم فيه سوى ألم الملذات الأولى التي تذوّب الوقت كقطعة سكّر في فنجان شاي، إلى زمن فردوسيّ الصورة. والحنين نداء الناي للناي لترميم الجهة التي كسرتها حوافرُ الخيل في حملة عسكرية. هو المرض المتقطِّع الذي لا يُعْدِي ولا يُميت، حتى لو اتخذ شكل الوباء الجمعيّ. هو دعوةٌ للسهر مع الوحيد، وذريعةُ العجز عن المساواة مع ركّاب قطار يعرفون عناوينهم جيداً. وهو ما يُجمع لأحلام الغرباء من مواد مصنوعة من شفافية اللاشيء الجميل، ويُحمِّص لهم بُنَّ اليقظة.

ونـادراً ما يأتي صباحاً. ونادراً ما يتدخل في حديث عابر مـع سائق تاكسي. ونادراً ما يتطفـل على قاعة مؤتمر، أو على الموعـد الأول بين أُنثى وذكر... هـو زائر المساء، حيـن تبحث عـن آثارك في ما حولـك ولا تجدها، حين يحـطّ على الشرفـة دوريٌّ يبدو لك أنـه رسالة من بلد لم تحبَّـه وأَنت فيـه، كما تحبُّه الآن وهو فيـك. كان معطىً وشجـرة وصخرة، وصار عناويـن روح وفكرة، وجمرةً في اللغة. كان هواء وتراباً وماءً، وصار إلى قصيدة.

أَلحنين أنينُ الحقّ العاجز عن الإتيان بالبرهان على قوة الحق أمـام حق القوة المتماديـة... أَنين البيوت المدفونة تحت المستعمـرات، يورثه الغائب للغائب، والحاضر للغائب، مـع قطرة الحليـب الأولى، فـي المهاجـر والمخيمات. الحنين صوت الحرير الصاعد من التوت إلى مَنْ يحن إليه في أنين متبادل. هو اندماج الغريزة بالوعي وباللاوعي... وشكوى الزمن المفقود من ساديَّة الحاضر.

الحنيـن وَجَـعٌ لا يحنُّ إلى وَجَع. هو الوجـع الذي يسبِّبه الهواءُ النقيُّ القادمُ من أعالي جبل بعيد، وجع البحث عن فرح سابق. لكنـه وجع من نوع صحيّ، لأنه يذكرنا بأننا مرضى بالأمل... وعاطفيون !

XV

ألحُبُّ كالمعاني على قارعة الطريق. لكنه كالشعر صعب، تعوزه الموهبـةُ والمكابدةُ والصوغُ الماهر، لكثرة ما فيه مـن مراتب. لا يكفـي أَن تحبّ – فذلك فِعْـلٌ من أفعال الطبيعة السحرية، كهطول المطر واشتعال البرق، يأخذكَ منكَ إلـى مدار الآخر لتتدبّر أمـرك بنفسك. لا يكفي أن تحـبّ، بل عليك أن تعرف كيف تحبّ. فهل عرفت؟ لم تستطع الإجابة لأنـك لا تستطيع استعادة الرعشات التي هزَّتك وبعثرتك على نزوات الليلك، وكَهْرَبَتْكَ وعَذبتكَ بمذاق العسل الحارق. ولا تستطيع استرجاع أكثر أطوار الموت عذوبةً وحياةً، حيـث غادَرتْكَ «أنا» ك إلى أنثاك لملاقاة نفسك الطازجة فيها كالثمرة الناضجة.

تلـك اللحظات، حين تَسْترجعهـا الكلمات، عصيَّةٌ على رفع الجسـد إلى مقام الروح. من منّا لـم يقل لأُنثاهُ: «لا وجـود لي إلّا فيك» وكنا صادقيـن؟. وكنا صادقين أَيضاً حين وجدنـا وجودنا في قـول مشابه وفي مـكان آخر. فهل عرفتَ كيف تحب؟ لم تستطيع الإجابة، ربما لأنك لـم تتبيّن أحـوال الحسِّ المتنقل في الفـوارق بين الحبِّ والعشـق، والوَلَـع والوَلَه، والهوى والجـوى، والشَغَفِ والدَنَـفِ، والهيام والغـرام، والشَبَق والنـزوة، والصبوة والشهوة، والإعجاب والانجذاب... وغيرها من التباس الصفـات على الرغبـات. لـكلِّ مرتبةٍ حالٌ مـن أحوال الجسـد، ولكلِّ حالٍ من أحـوال الجسد مرتبةٌ بين موت وحياة. فلا تعرف أين كنت وكيف كنت.

لكنك الآن، إذ تشـرف على حياتك إشراف البحّار على خيبته من أسرار البحر التي لا تُدْرك، وتسأل: أَين مينائي؟ تحار من عودة قلبـك سالماً صَلْباً كحبَّـة سَفَرْجل صعبة القضم. فلماذا بكيتَ إذاً لأن العذراء لم تكن عذراء قرب الشجـرة التي سَبَقَـكَ إليها أَحَدُ مُرَوِّضـي الريح؟ ولماذا بكيـت ثانيةً لأن الثانيةَ لم تفتح لـك الباب، وأنت واقف فـي الزمهرير مرتجفاً مـن الذل، لا من البـرد الذي أَوقد مدفأتـك؟ ولماذا بكيـتَ مرَّةً ثالثـةً، لأن الثالثة سافرت،

دون أن تنتبه إلى أنك كنت تعانق وسادة، لا جسداً من حرير وريش نعام؟

لا حُبَّ -تقول- لأن لا حُبَّ يشبه حباً، ولا تعريف لقوة الجاذبية التي تخلع الكائن من كيانه، فلا يسأل عن ذاته وقد اغتربت، وعن حريّته وقد اقتربت من عبوديّة مختارة: أنا لك. بخصلةِ شعرٍ طائشةٍ في الريح تنتقل الجبال من أمكنتها. وبشفتين مفتوحتين تنضج بساتينُ الكرز في غير أوانها. وبكلمة لا معنى لها يُنصِّبك التأويلُ ملكاً على عرش الهباء.

وأنتَ، أنتَ الممسوس بتيَّار كهرباء تسير على غير هدى، على أَثر ما يتساقط من أوراقك، تدور بك العاصفة والعاطفة، وتدور بهما، ولا تدري إن كنت حزيناً أم فرحاً لأن الالتباس الذي أنت فيه هو الإحساس بخفَّة الأرض وبغلبة القلب على المعرفة. وستدرك فيما بعد أن الحب، حُبَّك، هو أوَّلهُ. في أوَّل الحب، تكون معدّاً، كآلة موسيقية، لإطاعة الهواء في ما يلي عليك من تأليف: كل نسمة نغمة، وكل سكون صلاةُ شكر. وتكون معَدّاً أَيضاً لاستطلاع ليليّ لكُلّ نأمة تفد إليك من ديار النجمة. فأَطِلْ هذا الأوَّل، أوَّل الحب، ليمتثل الخيال لك امتثال

الفرَس للفارس، ولتغزوك اللغة وتغزوها كرجل وامرأة يتسابقان على استضافة المجهول بكرم الطاعة المتبادلة.

في أول الحبِّ تنهمرُ عليك المطالعُ، زرقاءَ زرقاءَ. وفي أوج الحب تحياه، وينساك وتنساه ويُنْسيك المطالع. وفي آخر الحب تطيل النظر إلى الساعة. وفي الغياب تعثر المطالع على المواجع المترسبة في خُلوّ الغرفة من كأس النبيذ الثانية، ومن شال أزرق، فتمتلئ القصيدة بما ينقصها. وحين تكملها بنقصان مفتوح على أخرى، تبرأ من ذكرى ومن ندم ولا يصدأ فيك الذهب. كأن الكتابة، كالحب، بنتُ السحابة إن أمْسَكتَ بها ذابت. وكأنَّ العبارة لا تتحفَّز إلّا لتعويض خسارة. فتتجلّى صورة الحب هناك: في غياب كثيف الحضور.

وحين تخرج من نفسك، كأنَّكَ أنتَ، وتنظر إليك من بعيد كأنك هُوَ: واقفاً تحت المطر، على شارع مزدحم بالمارة، وفي يدك باقة ورد أحمر، لا تشعر بالبرد، بل بسخريةٍ من وقفتك الزائغة. وتتساءل: هل كان حُبّاً أم شهوة، هل كان عشقاً أم شبقاً؟ وتنسى شعورك... تنساه ولا تبحث عنه، فلا تتألم ولا تنجم، بل تكتفي بالسلام عليه، عن بعد، وهو ينتقل إلى ذكرى بعيدة لا تُؤَرِّق،

ذكـرى تتحكَّم بهـا كما تتحكَّـم بجهاز الفيديـو: تَضَعُ النهايةَ في البداية، أو تثبّتُ الصورةَ على ضرورات القلب المتقلّبِ.

وتضحـك خجلاً من كلام تمادى فـي مديح الشبق حتى احترق: يبدأ من القدمين المنحوتتين بقطعة شمس، فإلى أعلى يلمع البرق من ساقيـن مسكوبتين بقلق المهارات، فأعلـى إلى الرُكْبَتَيْن المُصَنَّفَتَيـنْ كمعجزتين، فإلى أعلى: البطـن - الموج فـي حالة جَـزْر، فأعلى: يبـدأ الغروب تدريجيـاً بامتصاصك بنَهَم نبيلٍ خَفِر، فتُقْبل وتُدْبِرُ وتعلو وتهبط وتعرق وتشهق وتغرق في ليل ساخن العتمة فاتن. يـداك أو يداها -لا تـدري- تلمّانـك وتحملانك كنسرٍ أُغمي عليه فـي فضاء يدلف كواكب... فتنظر إلى العينين نصـف المفتوحتين على عينين نصـف مغمضتين، ليتأكد كل منكما أنه ينبتُ في الآخر.

لكـن أحـداً لا يسكن الذروة، تسقطـان دفعةً واحدة من أعلـى سماء إلـى نعاسٍ مبلّـل بالـرذاذ. تهمسان بصمت واحد، بلا شيءٍ أوضحَ من أيِّ شيء. وتحلمان معاً، وعلى حدة، بأن يستمر هذا العناق إلى الأبد، إلى أن يتضح لكما أن لهذا الأبد عمراً قصير الأمد، وأن الأبدية لا تنصاع إلى

أحد، فهي كثيرة التداول والانتقال من لحظة إلى أخرى، ومن حالة إلى سواها.

وأَنتَ الذي لا تعرف الحب إلّا عندما تحبّ، لا تسأل ما هو ولا تبحث عنه. لكن امرأة سألتك إن كنت تحب الحب لذاته، فتملّصت وتخلصت من حيرة الجواب وقلت: أُحبُّكِ أنتِ. فألحّتْ: ألا تُحبُّ الحب، فقلت: أحبك أنت لذاتك، فانصرفتْ عنك لأنك لا تؤتمن على غيابها. ليس الحبُّ فكرة. إنه عاطفة تسخن وتبرد وتأتي وتذهب. عاطفة تتجسَّد في شكلٍ وقوام، وله خمسُ حواسّ وأكثر. يطلع علينا أحياناً في شكل ملاكٍ ذي أجنحة خفيفة قادرة على اقتلاعنا من الأرض. ويَجْتاحُنا أحياناً في شكل ثور يطرحنا أرضاً وينصرف. ويهبُّ أحياناً أُخرى في شكل عاصفة نتعرَّف إليها من آثارها المدمرة. وينزل علينا أحياناً في شكل ندى ليليّ حين تحلب يدٌ سحريَّةٌ غيمةً شاردة.

لكن هذه الأشكال كُلّها تجتمع في امرأة، حسية مرئية، ملموسة محسوسة، لا في فكرة. فنحبُّ الشكل الجاذب، وينكبُّ الخيال على تفحُّص ما فيه من غموض وغرائب. أما الأرواح فتتعارف وتتآلف حول الشكل المتلألئ

بالجوهر. وقد تختلف على تأويل ما يقول الجسد للجسد، فتنصـرف علـى شفافيـة أخرى وتحـلّ في أجسـادٍ أكثر امتلاءً بالمـاء والتناغم والموسيقى. ألحبّ هـو المُتَحَوِّلُ المُتَنَقِّلُ العصيُّ على الهويـة. هو الانخطاف الذي يلتبس فيه الشغف مـع الإشراق. هو ما لا تعرف وتعرف أنك لا تعرف. هو اكتمال المعنى باللامعنى من فرط جنوحه إلى المجانيـة وتبذير الحضور. وهو نقيض التكرار والإلحاح على إصـلاح الهواء واللـون، وإلّا صار زواجـاً تحلُّ فيه صيانـةُ الكلام من الزلل محـلَّ الارتجال الضروريّ لشعرٍ لا يقـوم الحـب إلّا عليه، فـلا يصلح نثر التدبيـر المنزلي لإبقـاء إجاصتين طازجتين على طبـق المرمر، ولتحريض المجهول على إغلاق الطريق أمام المعلوم. لا بد من سرّ، لا بد من سـرّ دائم، ليبقى الحب مفاجأة وهدية، فلا تفتح خزانة ثيابها الملأى بأسرار طباعها!

وإن خمد الشغف ابتعـد الحب، رويداً رويداً، على نهار الصداقـة. وتقول له: ما أجمـل الصداقة حين نشيخ معاً، وأتَّكئ عليك وتتَّكئين عليَّ، أرحمك وترحمينني في دار العجـزة حيث لا نقوى على التذكّر. لكني أوثر أن أعتمد على عكازي، لا عليك. لا أريد أن أرى روميو وجولييت، ولا قيسـاً وليلى، أمامي فـي أرذل العمـر. للحبِّ تاريخُ

انتهـاء، كما للعمر وكما للمعلّبات والأدوية. لكني أفضِّل سقوط الحـب، بسكتة قلبية، فـي أوج الشبق والشغف، كما يسقط حصان من جبل إلى هاوية.

سألتُـكَ: مَنْ هِـيَ، فقلت: لا أعرفه من فـرط تعدّدها في واحـدة. هي ولا هي. هي وهُنَّ إذا ما اجتمعن في قصيدة حب كثيـرة المصـادر، تتوزَّعها ضـروراتُ البحث عن تحقق مـا لا يتحقق، وعن نداء يغمرنـا دون أن ندرك أنه لـم يصل، وعن تجدُّد العطش أمـام النبع. هي ولا هي إن حضرت وإن غابت، فـكأنَّ حضورَها غيابي فيها، وكأن غيابها حضـورُ التفاصيل. لكنها تنتشـر بعدة أسماء، فلا أدري إن كانـت هـي هي، أم من نسـاء مخيلتي ورغباتي المتبدِّلـة. لذلـك يبـدو أنهـا اختـراع، لأنـي لا أخطئ بالأسمـاء، فلا أنـادي غيرها باسمها الـذي نسيته من قلة الاستعمال.

وسألتـك: لَمْ تعرفْ، إذاً، كيف تحب؟ فأدهشني قولُكَ: مـا الحبُّ؟ كأنني لم أحبّ إلّا عندمـا كان يخيَّل لي أنني أحـبّ... كأنْ تخطفني من نافـذة قطار تلويحةُ يد، ربما لم تكن مرسلة إليّ، فأوَّلتها وقبّلتُها عن بعد... وكأَنْ أرى على مدخل دار السينما فتاةً تنتظر أَحداً، فأتخيَّل أني ذاك

الأحـد، وأختار مقعدي إلى جوارها، وأراني وأراها على الشاشة في مشهد عاطفـيّ، ولا يعنيني أن أَفرح أو أحزن مـن نهاية الفيلم. فأنا أبحث في مـا بعد النهاية عنها. ولا أجدها إلى جواري منذ أنزلت الستارة.

وسألتك: هل كنت تمثِّل يا صاحبي؟

قلتَ لي: كُنْتُ أختـرعُ الحب عند الضرورة / حين أسير وحيـداً على ضفة النهر / أو كلما ارتفعتْ نسبة الملح في جسدي كنت أخترع النهر...

XVI

بين الخروج والدخول زَمَنٌ مديدٌ يأذن لك بوداع المنفى بما يستحقُّ من شَجَـن. لكنك لم تفهم لماذا اختبأ الدمعُ تحت سطح الكلمات، ثم طفا وطفح، وأَنتَ تودِّعُ تونس في مسرحها البلديّ... وتودِّع الذاهبين إلى ساحة البلاد الخلفية... الخارجين من فضاء الأسطورة إلى وعاء الواقع الضيّـق. أَمَلٌ ما يرشح مـن أفقٍ مُغْـرَوْرِقٍ ببخار الرطوبة الصيفيـة على أَلمٍ لم ينتبهوا إلى آثاره الجانبية. لعلَّ الفرح بالمغامرة، مغامرة اكتشاف الأرض الموعودة من جديد، هو ما أَنسـى العائدين مديح قرطاج بـكلام يليق ببحرها وبحسن ضيافتها.

عائـدون، عائـدون بلا نشيـد عـالٍ وبلا رايـة جسور، كمتسلّلين من ثُقْب جدار تارةً، وتارةً كمحتفلين بدخول بوَّابة وساعـة لسجنٍ حَسَـنِ التسمية، وَطَنـيّ الفوضى، المهاجـرون عائدون والعائدون مهاجرون. وبين الفارق والفـارق بهجـةُ نسيانٍ ضـروريّ للشرط الـذي تحكّم بالكلمات، كما يحـدث حين تنفصل الرموز عن الواقع، والتسميات عن المسميات، والألفاظ عن معانيها: عودة، استقـلال، دولـة، سلام، سيـادة، سجّاد أحمـر، وزارة، رئاسـة – كلمات تشير إلى الشـيء عن بعد ولا تعبِّر عنه، ولا تشبهه. كان الهوية العَطْشى إلى امتلاءٍ ما تمتلئ بأمنية ظنَّتها محقّقة.

سجـالٌ مع الذات صامـتٌ تُرْجِئُهُ فرحـةُ اكتمال الدائرة علـى أمواج البحر، بَحْرِنا هـذه المرة. وفي مخيّلة العائد من إعجاز جماليات الصور ما يُكَفِّر عن خطيئة الخروج، الإجبـاريِّ وشبـه الإجباري معـاً، وما يعوّض عـن سِفْرِ الهجـرة. سنـرى شمسنـا تشرق من شرقنـا، لا من جهة المنفى. ولفواكهنا تأويلُ الذهنيّ للحسيّ:

ألتفاحةُ عضُّ الشكل، بلا عقوبة على معرفة . /

ألأجَّاصَـةُ نَهْـدٌ مثاليُّ التكوين لا يزيد عـن راحة اليد ولا ينقص /

ألعِنَبُ نداء السُكّر: أنِ آعْتصرني في فمك أو في الجرار. /

ألمشمشُ عودةُ الحنين إلى أصله شاحباً. /

ألبرتقالةُ فكرةٌ تضيء في الليل، وتؤكل في كل حين. /

ألتيـنُ انفراج الشفتين، بأصبعين، لتلقِّي المعنى الإيروسيّ دُفْعةً واحدة. /

ألتينُ الشوكيُّ دفاعُ العذراء عن كنزها. /

ألكَرَزُ اختصار المسافة بين شهوة العينين وصبوة الشفتين. /

ألسَفَرْجَـلُ مشاكسـةُ الأنثى للذكر تتـرك غَصّةً في حلق الخائب. /

ألمانجو لعاب يسيل على لذة مرئية. /

ألفراولَةُ حُبَيْبَات لـونٍ ليس أَحمرَ وليس غير أَحمر تحيل على فضيحة الشَّبَه. /

ألتوتُ، سكّريّ اللون أو أسود، ذكرى قبلة أُولى. /

ألرمَّانُ اختباءُ الياقوت في التورية /

وكلمــا اقترب العائد من العــودة صار هو إطارها الذي لا يمنــع المشاعر من السيولــة. بطولةٌ خجولــةٌ تترجَّل عن صَهْوَةٍ بــلا فرس، وتدخل في استقبال العاديِّ للعاديِّ... ستُقبِّــل التــراب وتعانق جــذوع الشجر، وتقــول كلاماً معصومــاً من بلاغــة المنتصــر أو الأسير، بلاغــة طوَّرها المنفــى لتحسيــن شروط الإقامــة على جســر، وللتبشير بحماية القلــب الجماعي من التلف. وكلما اقترب العائد من أرضــ الأحلام الكبــرى اغرورقت عينــاه، وتلكأت خطاه لئــلا يتعثّر على طريق الرمــل... ونظر إلى الخلف مودِّعــاً بطولةً أطاع طُقُوسَها بانضبــاط جنديّ... بطولةً بعيدةً عما يجتاحه الآن من مشاعر تثيرها فيه، بلا ترتيب، قيلولةٌ مُشْتَهاةٌ تحت دالية عنب.

هل انتهت الرحلة أم بــدأت؟ هل اقترب هو من المكان، أم افتــرق المكان عــن صورته في المخيلــة؟ العائد كبير السن هو المرشــح للمقارنة وللحيرة في ترجيح المُتَخيَّل علــى الواقعــي. أمــا المولود فــي المنفى علــى أوصاف نقيضه الحُسْنى، فقد تخذله جنَّةٌ صُنِعَتْ خصيصاً له، من مفردات تَشَرَّبها وصنع منها صوراً نمطيَّة، لتكون مُرْشِدَهُ إلى الاختلاف. لقد ورث الذاكرة عن أهلٍ خافوا عليه من النسيــان / رهان الآخريــن... وورث الذاكرة من إلحاح

الأناشيد علـى تمجيد الفولكلور والبندقيـة التي صارت هويـة، منذ وُلد الوطـن، بعيداً عن أرض الوطن... ولد الوطن في المنفى. وُلد الفردوس من جحيم الغياب.

وأنـتَ، أنتَ لم تكن معهم. فيك من عمر المنفى ما فيك مـن عمرك فـي الوطن. لم تفهم لمـاذا بكيت في مسرح تونس، وبكـى معك جمهـور أُصيـب بعـدوى البكاء الغامض. فالدمع يُعدي كالتثاؤب. ألأنك لم تكن معهم، أم لأنـك من صاغ إعـلان الدولة المرجـوَّة، وتعرف أن الدولـة ما زالت نصاً أدبياً. وتشعر بأن الباب الذي يدلف منـه العائـدون لا يفضـي إلـى استقلال ودولـة. صحيح أن الاحتـلال قد خـرج من غرفة النـوم، لكنه يجلس في الصالـون وفي سائر الغـرف. يتحكَّم بحنفيـة الماء وزرّ الكهربـاء وزرقة البحـر. أليس هذا حسنـاً بعض الشيء؟ أليسـ هذا أَفضـل من لا شـيء؟ تصير إلـى اثنين: واحد يقول نعم، وواحد يقول كلا! ولكن لِمَ كُلُّ هذا الصخب الاحتفالي الكاذب الذي يُخَدّر العالم بالصُور؟

تسمَّـرت أمـام التلفزيـون، واتخذت هيئـة المحايد في حضـرة الحيرة التـي أقامت حاجـزاً بين العقـلُ القلب. العقـل يقول: إنها مسرحية فاشلـة باطلة. والقلب يسأل:

كيف أنجو من سحر الإخراج؟ ألعشب أخضر، والمناخ ملائـم للعيـد، وسيِّـد العالم جـذّاب. يقتـرب العدوّان اللدودان ويتصافحان: أَحدهما على مضض، والثاني بثقةٍ مَرِحَة. والجمهور المنتقـى بعناية باذخة يصفِّق لانعطافة التاريخ في حديقة البيت الأبيض. لكن اللغة التي تسمعها تعيد قلبك إلى صوابـه: لا، ليست هذه لغتي. فأين بلاغة الضحيـة التي تسترجع ذاكرة عذابهـا الطويل، أمام شقاء اللحظـة التي ينظـر فيها العدوّ في عين العـدوّ ويشدُّ على يده بإلحـاح؟ أين أصوات القتلى السابقين والجدد الذين يطالبـون باعتذار لا من القاتل فحسـب، بل من التاريخ؟ أَين حيـرة المعنى في لقـاء الضدّ بالضـد؟ وأين الصرخة الملازمـة لعملية جراحية يُبْتَرُ فيهـا الماضي عن الحاضر في مغامرة السير إلى غد ملتبس... وأين لغتي؟

أَلهذا كان ردك الشخصي هو الدفاع الشعري عن الحبكة والذاكـرة؟ فكتبـت أَصداء سيـرة شخصيـة – جماعية، وتساءلت: لمـاذا تركت الحصان وحيداً؟. فماذا يستطيع الشاعـر أن يفعل أمام جرّافة التاريـخ غير أن يحرس شجر الطرقات القديم ونبع الماء، المرئيَّ منه وغير المرئيّ؟ وأن يحمي اللغة من ركاكة التراجع عن خصوصيتها المجازية، ومن إفراغها من أصوات الضحايا المطالبين بحصتهم من

ذكـرى الغد، على تلك الأرض التي يـدور الصراع عليها إلى ما أَبعد من قوة السلاح: قوة الكلمات.

وانهالت عليك سهام الأسئلـة المسمومة: ماذا ستكتب مـن دون منفـى؟ وماذا ستكتـب من دون احتـلال؟ أَما المنفـى فهو الوجـود. وأما الاحتلال الموجـود فهو ما يعيق فاعلية الخيال. سأكتب أفضل. لكن، لماذا لا يُوَجَّه مثلُ هـذه الأسئلة إلى شعراء شعـوب أخرى؟ أَلأن شرط الإبـداع الفلسطيني هو العبوديـة، أم لأن الحرية لا تليق بإيقاعاتنا؟ ومـا معنى أن يكون الفلسطينـي شاعراً، وما معنى أن يكون الشاعر فلسطينياً؟ الأول: أن يكون نتاجاً لتاريخ، موجوداً باللغة. والثاني: أن يكون ضحية لتاريخ، منتصـراً باللغة. لكن الأول والثانـي واحد لا ينقسم ولا يلتئم في آنٍ واحد.

غزة وأريحا أولاً. وإذا كنتم أَولاداً طيّبين، فلن تكون غزة وأَريحا أخيراً... وأَخيراً سافرتَ إلى غزة. لم ترها من قبل. كتبتَ لها وعنها كما رَسَمَتْ هي صورتها: قلعة محاصرة بالبحر والنخيل والغزاة والجُمّيز. قلعة لا تسقط. غزة هي العِزّةُ المُعتـزَّة باسمها المُسْتَفَزَّةُ، بلا انقطاع، من صمت العالـم على حصارها الطويل. وعلـى الطريق الطويل من

القاهرة، على رمـال سيناء، لم تفلح فـي نقل أحاسيسك المتأرجحـة إلى كلمات واضحة. كان الكلام عصيّاً على الوصـول من القلب إلـى اللسان كحرف الـلام الروسي الذي يصعد من البطن ويقف عند سقف الحلق.

سألـت السائق: أيَـن معين بسيسو، لماذا لـم يأت معي؟ فذكّرك بأنـه نام في حفرة رمل فـي ضاحية من ضواحي القاهرة. لم يجدوا له مكاناً في غزة. فَتَمْتَمْتَ: كُنا نبحث عـن بيت، وصرنا نبحث عن قبر. آه، لو انتظر قليلاً... لو لـم يسافر إلى لندن، لو لـم يضع على باب غرفته في الفندق «الرجـاء عدم الإزعاج» لكان مضيفي اليوم في غزة. غزة ملكيته الشخصية، ومملكته الشعرية الخاصة. كم ستبدو غزة ناقصة!

كان الغـروب في العريش بطيئاً. أشعة الشمس تتمهَّل في احتضان سعـف النخيل، وتتأمَّل لون النـار الذي يترجَّل منها، على مَهْلٍ على مَهْل، ليُزيّنَ أمواجَ البحر المستسلمةَ إلى غزل أبـديٍّ، فتُحَيّينا بنسائم صيـفٍ رطبة، كمروحةٍ في يد مـلاك متطوِّع. متى ندخَل غـزةً؟ سألت صديقك المشغول بجمرة الأرجيلة، فقال: حين يحلُّ الليل. قلت: أريـد أن أراها بـكل الحواس، فابتسم: الوطـن في الليل

أجمـل. تمتَّع الآن بغروب الشمس في بحر العريش، فلن ترى البحر هناك كما تراه هنـا... البحر هناك مُسْتَوْطَن. وكـرَّرَ: الوطن فـي الليل أجمل، فتمهَّـلْ تمهَّلْ! وضعت دفتر الملاحظات والتوقعات في حقيبة اليد وأغلقتها على عواطفـك. بماذا تشعر؟ سألك ياسر. قلت: لقد استنزف الطريق الطويل مشاعري وتوقعاتي... لا أشعر الآن بشيء ولا أتوقَّع شيئاً. قال: هذا أفضل.

فـي الظلام دخلنـا، أو تسلَّلنا إلى غـزة. تركتُك تمشي أمامـي، وحملـتُ عنك خيالـك. فلستَ بقـادر على صيانته من الوقوع علـى صلابة الواقع. ورأيتُك تخفي وجهك عن إلحاح الكاميرات المنصوبة لالتقاط نشوة العائد، ولتصوير الكلمات المعدَّة لهجاء المنفى. قلت: أَتيـتُ ولم أَصِلْ، وجئتُ ولم أَعُدْ. لم تكذب على أَحد ولا علـى نفسك، فالمناسبة ليسـت احتفالية. وغزة لم ترمِّـم نفسهـا بعـد. كان الدمار الذي تركـه الاحتلال يتغلغـل فـي أعماقـك... وإذا لـم تحلم بما هـو أَبعد فسيهـرب البحر من الصيَّادين في لغتك. في ذلك الليل المقطَّـع بالحواجـز والمستوطنات وأبـراج المراقبة، يحتاج المـرء إلى عِلْم جغرافيا جديـد ليعرف الحدود الفاصلـة بين الخطوة والخطـوة التالية، وبين الممنوع

والمسموح، كصعوبة العثور على الغامض والواضح في اتفاقيات أوسلو.

عليك أن تنام في آخر الليل، مستعيناً بقرص مهدِّئ. وحين تصحو تحتاج إلى وقت ما لتقتنع بأنك في غزة التي سرعان ما نَعَتَّها بـ «مدينة البؤس والبأس». وفي الضحى الحار تذهب مع بعض الأصدقاء من العائدين لزيارة المخيمات. تمشون بصعوبة في الأزقة، وتخجل من الماء والنظافة. ولا تصدق، كما لم تصدِّق أبداً، أن أَوعية البؤس هي الشرط الوحيد لتخليد أو تأكيد حق العودة. لكنك تتذكر ما ينبغي لك أن تنساه: ضمير العالم. وتشتم نظريات التقدم وقصدية التاريخ التي قد تعيد البشرية إلى الكهف. وتحرم نفسك، لتكون واقعياً، من مصل التفاؤل والحماسة، وتستعيض عنهُ بحبة دواء ضد ارتفاع ضغط الدم. وتقول: إذا فَكَّرْتُ بشيء آخر سأرمي بضميري إلى القطط.

تتساءل: أي داهية قانوني أو لغوي يستطيع صوغ معاهدة سلام وحسن جوار بين قصر وكوخ، بين حارس وأَسير؟. وتسير في الأزقة خَجِلاً من كل شيء: من ثيابك المكوية، ومن جَماليات الشعر، ومن تجريدية الموسيقى، ومن

جـواز سفر يتيح لـك إمكانية السفر إلـى العالم. يُصيبك وجـع في الوعي. وتعود إلى غزة المتعالية على مخيماتها وعلى اللاجئين، المتوجِّسَة مـن العائدين، فلا تعرف في أية غزة أنت. وتقول:

أتيت ولكنني لم أَصِلْ.

وجئتُ، ولكنني لم أَعُدْ!

XVII

على الطريق الساحليِّ، يتوثَّب قلبُكَ للقفز أمامك كَكَلْبِ صَيْـد. لـم تَنَـمْ وإن كنتَ تحلم بالطيـران كالحجل على ارتفـاع منخفض. وتعلم أن لا قمة تبقى على حالها عاليةً عاليةً. فللوقت فِعْلُ النحت في الصخر، وقد تُغيِّر الأمكنةُ مواقعهـا إذا أُتيح للشغف أن يهبَّ علـى هواهُ، ويحوِّلك زَغَبـةً كما أنـت الآن علـى الطريق الساحلـي المُصَوَّب كسهـم إلـى الشمـال. الشمال، هـل ما زال فـي مكانه المصنوع من جبل وبحر تَوْأَمَيْن؟

لم تنم جيداً منذ وصلت إلى رام اللـه من عمان قبل يومين، حيث وقفتَ علـى جسر اللنبي كأسيـرٍ محترمٍ بين جنود

ينظـرون إليـك بفضـول ثقيـل، وينتظرون أوامـر أخرى من أجهـزة أَمْنٍ أخرى للتأكُّد من أنـك أنتَ أنتَ، لا آخر يتقمَّصُكَ وينتحل اسمك ليجرِّب هذا الذلّ، ليكتب شعراً عن مراوغة الظل.

لم يكونـوا مخطئين تمامـاً، فعلى هـذا الجسر لا يكون المـرء مَنْ كانـه منذ قليل: متلفهـاً إلى موعـده مع أرض الحكايات الكبرى والصغرى، مُلْتَفّـاً على ذاته كَمَلْفُوفَةٍ أو بَصَلَـةٍ لم تُقَشَّر. هناك يُقَشِّرهُ الجنـديُّ أو الجندية بلا كياسـة. فلهمـا عليه حقُّ الأمـر والنهي: اخلَـعْ حذاءك. انـزعْ ساعتك. فُـكَّ حزامك. وانـزعْ نظّارتك، وادخلْ فـي الجهاز. يـرنُّ الجهاز وتعيـد الكرّة ويـرنُّ الجهاز. فتخضع للتفتيش اليدويّ ويعثرون على مصدر الرنين: إنه قلم الحبـر الفاخر. يُفَكّكونه ولا يجـدون فيه غير الحبر الأسود: فـي المرة القادمة أخرجْ قلـم الحبر من جيبك. فتقول: في المرة القادمة لن أحمل قلماً من هذا النوع.

هناك، على الجسر الذي لا نهر تحته منذ تعرَّضتْ مصادرُ مياهه للنهـب، يتقشَّفُ الحلم، وتشحُـب صورةُ البلاد، ولا تكـون أنتَ أنتَ. تقترب من أريحا، أريحا الواقعية لا الأسطورية. أشجار النخيل على الجانبين، وتبحث عيناك

عـن «وردة أريحا» الشهيـرة فلا تجدهـا، ولا تجد آثار الأسطـورة التي صارت مملَّة من فرط ما سُرِدَتْ وشكّك بها المؤرخـون. بيد أن أريحا هنا فـي أريحا. تصعد إلى جبـل التجربة، إلى دير صغير منحوت في الصخور. هنا، جاء الشيطان إلى المسيح، الذي صام أربعين يوماً وأربعين ليلة حتى جاع.

«ثم مضى به إبليس إلى جبلٍ عالٍ جداً وعرض عليه جميع ممالـك الدنيا ومجدها، وقـال له: أُعطيك هـذا كُلَّه إن ارتميت ساجداً لي. فقال له يسوع: إليكَ عنِّي يا شيطان، فإنـه مكتوب: للّـه ربك تسجدُ وإيّـاه وحده تعبُدُ. فتركه إبليس، وإذا بعض الملائكـة قد دنوا منه وأَخذوا يقربون له الطعام».

تجلـس في مقهـى قريـب، ولا تستطيع احتسـاء فنجان القهوة الذي ينافسك عليه الذباب. ذباب بلا نهاية. ذبابٌ سَفِيهٌ. وتستعير سؤالاً قديماً: لماذا خلق اللـه الذباب؟

حفنةٌ من أرض عشوائيـة التكوين خلّفتها هَزَّةٌ هي غضبة إله. تـلال رملية نبتت كالفطر على عجل وفوضى. يخيَّل لك أن الأبدية قامت بزيارة خاطفة لِتَفَقُّدِ آثار الخوف على الراهـن المحدِّق إلى هاوية فرّت منهـا مدرّجات لولبية.

هل وصلت الحياة إلى هنا هاربة من البحر الميت؟ ها هي تُطِلُّ بتويجاتها الصغيرة من الصخور الرمادية والسوداء، شقائق نعمـان طالعةً من وحشة المكان... قليلٌ من رذاذ وضوء يكفي لتتغلّـب الحياة على العدم. وقليلٌ من الأمل والزمن يكفـي لتعبر شِعاب الأسطـورة سالماً من مصائر أسلافـك. فاقْتبِسْ من شقائق النعمان جمال الدلالة وقل: لا شأن لي –وإن حاصرني الموت– بالعدم. /

وإن سألـوكَ عن قـوة الشعر قل: ليس العشـبُ هَشّاً كما نرى. ولا ينكسر منذ أخفى ظلّه المتواضع في سرّ الأرض. وفي العشب على الصخر إعجاز الكلام النازل من غيب، بلا ضجيج وأجراس. العشـبُ نبوءةٌ عفويةٌ لا نبيَّ لها إلّا لونهـا المضاد لليباب. ألعشب نجـاة المسافر من بشاعة المنظـر ومن جيش يطوِّق الطريق إلى المُمْكن. والعشبُ شِعْـرُ البديهة السلس، الممتنع السهـل والسهل الممتنع. ودُنُوُّ اللغة من المعنى واقترانُ المعنى بضيافة الأمل.

وإن سألوك: هل تغرف من بحرٍ أم تنحت في صخر؟ قل: لا يقطع فـي الصخر سوى إزميل المـاء. وإذا سألوكَ عن المنازلـة بين الشعر والموت، فانظـر إلى العشب وقل ما لا يجانـب الحقيقة: لا شعر يهزم الموت في ساعة اللقاء،

لكنـه يرجئه، يرجئه إلى وقت ضـروريّ لاختبار جدوى الغناء في حفلة طويلة إلى أن تكتمل الأغنية، ويقع المغنّي في قبضـة قنّاصه الواقف خلف البـاب، وقد لا ينتبه أحدٌ إلى موت المغني، مـا دامت الأغنية قد صارت جماعية، يغنّيها الساهرون. في هذا الإرجاء، يُخَيَّل للمغنين الجدد أن الموت نام، فَيضْحون في غَفْلَةٍ عنه على شقائق النعمان المرحبة بهم، كمطالعِ قصائـدَ كنعانيةٍ، لم يكمل كتابتَها رعاةُ الغزلان المشغولَون بمطاردة الذئاب وبنات آوى.

وعلى الطريق الساحليِّ الراكض نحو الشمال، تُفْرِغُ قلبَكَ من حمولتـه الزائدة، ليمتلـئ بمواهب المـكان من شجر ورائحـة وعندلة وتواشيحِ وتباريح. ولا يبقى في ذهنك من أَوصاف الجنة غيرُ التفاتتِكَ الأخيرةِ، على الدرج الحجريّ إلـى نافذةٍ نصفِ مفتوحة كنت تـرى منها البحر والغروب وتغـرب في العزلـة: أنـا والشمـس صديقـان حميمان / ومحرومـانِ في الليل من المشي على الشارع / قد يعجبني المعنى / ولا يعجبني / لكنني أدمنت إيقاع الأغاني. /

يَهُبُّ عليك هواء الحنين من ناحية البرتقال، على يمينك، ومـن اليود البحريّ علـى يسارك. ومـن الشمال يهدِّدك الاقتـراب من محتويـات القلـب بضبـابٍ يُصَعِّبُ على

الذاكرة انتقاء الشخصيّ من العام. تخاف على الحاضر من سطوة الماضي، وتخاف على الماضي من عَبَثيَّة الحاضر، فلا تعرف أين تقف من هذا المفترق. هل أنتَ ما كنتَ أم أنتَ ما تكون الآن؟ وتخاف نسيان الغد في حمأة السؤال: في أيِّ زمن أنا؟

يَصُدُّكَ عما أنتَ فيه التباسٌ بين فضول السائح وشجن الزائر وفرح العائد. إن ثلاثة عقود من غياب الذات عن مكانها تجعل المكان ذاتاً يتيمة، وتجعل الذات قطعةً من أرضٍ مُتَنَقِّلَة... قد توسِّع النشيد، ولكنها تثقب قلب المنشد فتزداد أَخطاؤه. ومن أخطائه أن يودِّع ما يرى، ولا يرى إلّا جمال السراب الواعد بالأمل. فماذا تفعل حين تصل إلى الكرمل غير أن تسأل: لماذا نزلتَ عن الكرمل؟ وفي نفسك الأمّارة بالحيرة جواب مبهم: لكي أتعلَّم المشي على طرق لا أعرفها.

وعلى الطريق الساحليِّ الساحر ظلالٌ من ماضيك، وجمالٌ متسامح يغفر للغائب ما ارتكب من أخطاء، كَلَوْحَةٍ لا تبالي بمن غاب عنها وحضر. الصباحُ نظيفٌ ربيعيّ مشمشيٌّ مشمسٌ سَلِسُ التدفُّق. وفي قلبك استقبالٌ لغزو المشهد المتدرج بين اللازورد والأخضر عبر زجاج

السيـارة المسرعـة إلى الموعد المنقلب إلـى ضدِّه. يا له مـن موعدٍ لا يَتَّسعُ إلّا لمقعد واحد: لك، أو لإميل حبيبي الـذي استعجلك ليصفِّي حسابه معك، ومع حياة لا تشبه الحياة إلّا في نجاتها من شَرَك الأساطير المنصوبة بإحكام الصيَّـاد الماهـر، فقاومه بالضحـك وبالسخرية من دهاء الصيّـاد ومن مكـر القطاة معاً. نحت تعبيـر «المتشائل» ليعثر على حريّته الملتبسة بين المنزلتين. لا هُوَ هُوَ ولا هُوَ آخرُهُ. فيه منهما حالة لا يشرحها إلّا الضحك. لكنه يدافع عـن حيرته وشكِّـه بيقينٍ لا ينسجم مـع الشك. بين نصِّه الأدبـي وضجيجه الإعلامي والسياسـي تناقضٌ لا يُعالَجُ إلّا بانحياز القارئ إلى صدق الأدب، وأولوية المتن على الهامش. قال ساخراً من نفسـه: كانت لي دجاجةٌ تبيض ذهباً، فالتهمتُ الدجاجة. ومن فرط إدراكه قُوَّةَ السخرية كانت تجرحه حين يكون هو هدفها. فالساخر لا يحتمل ارتدادها إليه. وكان يغمز من قناتك –كما يقولون– كلما اختلفت معـه وعنه. لكـن، وهو يعدّ جنازتـه، ويشرف علـى أرشيف حصته من الخلود، أَلَحَّ عليك، كما لو كان يكتـب وصية، بأن تلتقيا في حـوارٍ سينمائيّ حيث كنت تسكن في شارع عباس.

حيـن قلت لـه: كيف أَصل من رام اللـه، يـا أبا سلام، إلى

حيفـا، وَدُونَها كل هذه الدولـة المدججة بالممنوعات، قال: سأبـذل كل جهديّ للحصول علـى تصريح يسمح لك بزيارة الجليل يومين. لكـن لا تتأخَّرْ، فإن الموت لم يترك لي من الوقـت إلّا القليل القليل. في المساء بشَّروك بأن في وسِعـك السفر إلى حيفا صبـاح الغد. وفي الليل رأيتَ دِيكَيْن يتبـارزان أمام الكاميرا، ورأيتَ ريشاً يتطاير في الهـواء. وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل أيقظوك ليخبروك أن إميل حبيبي لم يتمكن من الانتظار. لقد فارق الحيـاة. وعليك السفر إلى الناصـرة لتشارك في الجنازة والتأبين. لقد أوصى إميـل حبيبي بأن يُكْتَبَ على شاهدة قبره «باقٍ في حيفا».

وعلـى الطريـق الساحليِّ تساءلـت: وماذا لـو بقيتُ في حيفـا؟ ماذا لو بقيت في أيِّ مكان؟ ماذا لو كنت؟ ماذا لو لم أكن. تتحاشى الوصول إلى الخلاصة: باطلِ الأباطيل، والـكل باطل. فجـأة يسقط مطر خفيـف يبلِّل روحك، ويبلِّل الفراشـات. رذاذ وضوء. وفراشـات ترفرف على ارتفـاع منخفضٍ علـى الطريـق الساحلـيّ. الفراشاتُ خواطرُ مبعثرة، ومشاعرُ طائرة في الهواء...

XVIII

يتصاعـد الخيالُ مرئيّاً كالسحاب على تلال تحمل القرى على خواصرها مُتَشبِّثةً ببدايـة التكوين. وأَنتَ تعرف من التفاصيـل ما يملأ كتاباً مفتوحـاً على قراءة ناقصة لا تهدِّد القارئ ولا الكاتـب بفصل النهاية. للجليل قصائدُ يكتُبها هَذَيـانُ الصوفيّ، وموتى يتدربـون على العودة إلى طفولة أنقذتها الفراشات من غزو النسيان. القرى المدفونة تحت الأرض ترسل ذكرياتها إلى القرى الناجية، التي يحجُّ أهلُها فـي الربيع إلى أَعشاب تنبت من ماضيهم: هنا وُلِدْنا، على حافة هذه البئر كما تولد الخبّيزة والهندباء والفيجن. وهنا وُلِـدْتَ كما يُولَـدُ الخيال تدريجياً مـن كل شيء، فكيف تعيد الخيال معافىً وتطير على حصان؟

لا أَثر «لِلبرْوَة»، على يمين الشارع القادم من الناصرة، غير صورتها في خيالك المطعـون بقرون الثيران التي تمضغ وتجترُّ علف ذكرياتك. قلتَ: أَمرُّ بها عند الغروب لأدَّخر لخيالي غموضاً يُعينُ الغريبَ فيك على ابتكار الصور من ثنايا الحجر. وقلتَ: أَمـرُّ بها في الغروب لئلا يراني أحدٌ غيري أبحث عنها في ما انقطع مني، فأُعلي للعبث مدائحَ ضروريّةً لردّ الخيال إلى طيش جميل يرتِّقُ ثوب المكان. وقلـتَ: أَمرّ بها في الغروب ليتّفق الشكل مع المعنى على إيوائي، وأُناجيها

هذا أَنا، ها هُوَ

هذا هو الولد الشقيُّ ابنُ الشقيِّ / ابنُ الشقيَّة، وابنُ مائِكِ وابـن نـارِكِ / جئتُ منـك وجئتُ من عَـدَم ومن إحدى قصائدك القديمـة جئتُ، جئتُ من الخيـالِ / لكي أُعيد لَكِ الخيال وأَحْفُرَ اسمَك / في الصخور كسائر الشعراء، في هذا اليباب / سَأَلْت بَعْلاً عن أَبيه، فقال لي:

خالي حصانٌ، ثم غاب /

سألـتُ بنتاً عـن أَبيها، فاستحتْ منـي / وقالت: رُبَّما هو أَنتَ وآرتَدَتِ الضباب /

سألتُ قُبَّرةً تناجي أُمَّها عن أُمِّها فَدَنَتْ، وقالت: ربما هِيَ أنتَ فاحملني / ونامت في يديَّ /

سألتُ نفسي: مَنْ أنا؟

ردّ الصدى الليليُّ حولي: مَنْ أنا؟

هذا أَنا. هذا هُو

هذا خيالي كُلُّه /

ومضيتَ إلى بيت أُمِّك المحاذي لأرض الخيال الأولى. لم تتعرف على معالم الطريق، فقد اكتظَّ المكان بالبيوت المتلاصقة العشوائية وبأولاد تكاثروا وتصايحوا: هذا عمي. هذا خالي. لم تنتبه إلّا الآن إلى أنك عمٌّ وخالٌ، كما لم تعلم إلّا الآن أن أمك تغني. تطلق الزغاريد والأناشيد التي تخاطبك باسمك الكامل، وترى إليك فارساً عائداً من رحلة الأسطورة. ترجوها أن تكفَّ عن اختراع المجد على وتيرة الحرمان والبُعْد. فما أنت إلّا ابنها وما هي إلّا أُمّك. تَضُمُّها وتضمُّك على مرأى من كاميرات الهواة المُصَوَّبة إلى قلبين.

تقول لك: أكان على صاحبك أن يموت لكي نراك؟ ألا

طريـق إلى عرسنا هذا غير جنـازة صاحبك؟ تسألها لتبعد المفارقـة الجارحة، لمـاذا كانت تضربـك وأَنت صغير، فيحمـرّ وجههـا وتقـول: كان الشقاء هو السبـب. أُمُّكَ هـي أمك ببياضها وشعرها الطويـل ولسانها الذي يجرح المبرد. موسوعـة التفاصيل، وراويـة المقارنات الطويلة بيـن الماضي والحاضر. كل مـا كان أفضل مما هو الآن، فمياه الآبار أفضل من ماء الحنفية. وقناديل الكاز أفضل من مصابيح الكهرباء، والزمـن البعيد هو الفردوس المفقود. طَعَنَتْها النكبةُ في القلب وحَمَّلتها تبعات الزلزال، فقاوَمتِ البؤسَ بالكبرياء وبطاقةٍ روحية أَمدَّت جسمها بقُوَّة فرس. لا تتعـب، أو لا تـأذن للتعـب بـأن ينطـق بالشكوى، بل بهجاء الزمن الذي نقـل أسرتها من مزارعين إلى لاجئين. وبالسخريـة اللاذعـة طوَّعـت الشقاء علـى الامتناع عن الإهانة. كما دَرَّبَتْكَ على تقديس الكرامة، والاعتماد على النفس في اللعب وفي الدرس وفي كيّ ثيابك.

أمـك هـي أمك وأنـت ابنها حيـن تكونان معـاً. أمَّا في حضرة الآخرين فإنها تلعـب دور الشاهد. تصون مسافةً تُبْقيـكَ ضيفاً خاصاً على أمومتها، وشخصاً عاماً لا تدافعُ عن حقِّها فـي امتلاكه. كأنها تهجـس وتهمس لنفسها: أنـا وَلَدْتُهُ فـي البداية. لكن هو مـن واصل الولادة. وهي

هـي، المعتمدة علـى شيخوختها في كل شـيء. لا تأذن لأحد من أبنائها وبناتهـا وحفيداتها وأحفادها بأن يفرح بمساعدتها. تصحو عند الفجـر... تصلّي، تُعدُّ قهوتها، تغسـل بيتها. تسقـي ورودها في الباحـة الصغير، تُنَظِّفُ الهـواء من الغبـار، وتمسح الغبار عـن مكتبتك القديمة، ثـم تغسل ثيابها وتطهـو طعامها، وتنتظـر ضيوفها. وإذا شَكَـتْ، فإنها تشكو من قلة المستمعيـن إلى حكاياتها. أَلَحّوا عليها لاقتنـاء جهاز تلفزيون يُسَلِّيها، فَأَبَتْ لأنها لا تحتمل ثرثرة المذيعات والمذيعين، ولا ترضى بأن تكون مستمعة، تريد أن تكون هي المذيعة.

في صباح اليوم التالي، تشرب معها قهوتها ذائعةَ الصيت، بعدمـا انتشرت رائحتُها في الأغنية التـي كتبتها قبل أكثر من ثلاثـة عقود في سجنك الثانـي. تسألها: هل تعجبك الأغنيـة؟ فتبتسـم بحيـاء وتكتفـي بالقول: اللــه يرضى عليـك. وتذكِّرُكَ بأن عليـك أن تذهب الآن، قبل أن يأتي الضيـوف، لزيـارة قبر أبيـك. تنظر إلى صورتـه المعلّقة أمامك على الجدار. تخفـي حسرتك وأَسَاكَ على أيّوب الصبر الـذي نقلته النكبة مـن اليسر إلـى العسر، وقضى العمـر يبحث لك ولأخوتك عن خبز وكتاب في الصراع المضنـي مع الصخر. لم يُطِل التحديق، كأبيه، إلى ماضيه

السعيـد المحدِّق إليه من كـروم الزيتون وحقول الحنطة كيلا يلتقـي المغلوب بالمنهوب. وَحَمَلَ عبء الحاضر، كما هو، كملِكٍ مخلـوع لا يقوى على النظر إلى عرشه، ليأخذك إلى الغد: الغد أمامك يا ابني، فلا تنظر إلى الوراء كثيـراً إلّا عندمـا يشتدُّ عـودُكَ وقصيـدُكَ. وعندما اشتدَّ عـودك صار يبدو لك أنك أبو أبيك، ويبدو لك أن للشعر قدرة على إجراء تعديل ما في المصائر، فَرُحْتَ تبني بيوتاً خياليـة من حطامك ومن أسماء النبـات والجماد، ليقف المكان مكانه وتعود الحياة إلى ما يشبه الحياة !

وأَبـوك هو أبوك. كلما جلست إليه تَكَلَّمتما على عجل، فهو لا يكشف عن جرحه أمام ابنه. وأنتَ لا تعرف كيف تخفـي عنه قسوة الشفقة عليه، فورثتَ عنه الجرح. وفي صيف بعيد، على سطح بيت طينيّ بعيد، تحشرج صوت أبيـك وهو يقول لكم: لم أَعد قـادراً على تعليمكم، أنتم الثلاثـة معاً. لقـد تعبت. علـى واحدٍ منكـم أن يتطوع بتـرك المدرسة ليعينني، لم يعد ظهـري قادراً على حمل الصخرة وحدي. فتباريتم فـي الشهامة. كل واحد قال: أنـا. فسالت دمعـةُ أَبيك على مرأى منكـم، وبكيتم معه وعليـه. وفجأة قال: لا. لا أَحد. دخل القمر في المحاق

تلك الليلة، واحتضن كل واحد منكم حلمه الصغير بتؤدة ونام.

علـى قبر أبيـك، النائم فـي حضن أَبيه، قـرأت الفاتحة. وقلت: جـاء الآن دوري. مات أبـوك بضربة شمس أثناء تأديتـه فريضة الحج. وأَنت تهيئ الآن نفسك للموت بعد الحـج إلى قبر أبيـك. لا بضربة شمس تمـوت، فالفصل ربيع، بل بضربة قمر!

يقع الخيال من أعلى، يتدحرج كحبّة كستناء على الشارع المفضي إلى عكا، ويختفي في زحام السيارات. الخيال انبثاق الصورة عمودياً من لحظة حبلى بمعلوم يسيّره اللاوعي إلى مجهول. الخيال قرينُ الكائن السريُّ ومُعينُهُ على تصحيح أَخطاء طباعية في كتاب الكون. هو عين البصيرة التي ترى ولا تُرى، فإذا رأيناه خارج أفعاله علمنا أنه مريض. وإذا مرض الخيال مات الشعر. أَلهذا أَنتَ خائف من عكا التي نَعتَّها بأنها «أَقدم المدن الجميلة / أَجمل المدن القديمة؟». عكا مغامرة ضياعك الأولى، وبحرك الأول. هي هي، لكن الخيال يتساقط عن جدرانها كما يتساقط الكلس. وأَنت تمشي خالياً من عمل الخيال في دهاليزها المعتمة، كما تمشي على نفسك: أمام البحر

هنا باب يفضي إلى سجنك الأول. وعلى هذا الكورنيش تأملت غروب الشمس، وأكواز الذرة الصفراء في أيدي فتيات يتهادين ويروين حكايات صغيرة، تمنَّيتَ لو اندسستَ فيها وكانت لك حكاية بينهن، أو لو كنت أنت الحكاية!

وفي حيفا، تحاشيت اختبار الخيال في الغرفة التي درَّبك فيهـا الخيال على طريقـة الخروج من ذاتـك، واكتفيت بإلقاء نظرة الطائر على ريشة علقت بشجرة النارنج.

سقـط الخيال عن الشجـرة! فهل لك أن ترفعـه قليلاً... قليلاً إلى أعلى!

وقلت: «لو لم تكن الأرض كروية لواصلت السير»!

XIX

مُسَجَّـى أمامي بلا ضجيج، هادئاً هادئاً، ولا رأي لك في ما حولك. فوقنـا سماء محادية. وحولنـا جهات تعرَّف بأنواع أشجارها:

الشرق نخلةٌ عاقر،

الغرب أَكاليبتوس لطرد البعوض،

الشمال صفصافة في ملتقى زمنين،

والجنوب زيتونة...

وأنا أتلو على مسامـع المكان اللاهي عنك وعني مقاطع

من خطبتك عليك، خطبتك التي شئت أن تكون طويلة الظلال، لا لشيء... بل لأن الفراغ المحيط بنا قد يحتاج إلى ما يُسلِّيه. ولا أَحد معنا، لا أَحد يهدِّدنا بالمقاطعة من فرط الضجر، لا أَحد ينبهني إلى أَن الرثاء مديح تأخر عن موعده حياةً كاملة.

وأَنت مُسَجّى أمامي كفكرة تمتحن صبر صاحبها على احتمالها، وكقصيدة تصغي إلى شاعرها وتختبر سلامة البصر والبصيرة، فتقول: صدقت أو كذبت عليَّ!

قلت لي: أوصيك بك، فقد خانني الكثيرون ممن أَحببت... «خانوني كالغدير». وحسدوني على جرحي البليغ، لأنه عثر على ما يشبه الوصف البليغ لسطوة الغياب الحاضر في كلامي. لذلك أَعفيتُهُم من حرَج النفاق، فلن تبلغ القلوب الحناجر إن كانت ثقيلة، وأَعفيتهم من دموع تذرفها رائحة الفلفل.

وقلت لي: لا حاجة بي إلى الاعتراف، فلا سرّ لي. وفضيحتي هي اللاسرّ، منذ سبق قلبي لساني. أحبُّ الشيء وأَنقلب عليه لئلا يستعبدني. ولا أكره إلّا الكراهية لأنها سُمّ في الطاقة المنذورة لحبّ أشياء بسيطة. لذا أشفقت

علـى الكارهين، من إدمان السير على ظل ظنّوه خطاهم، وسجنوا حياتهم في ابتكار وحيد: أَخطائي !

وقُلْتَ لـي: لم أختلف مع امـرأة إلّا على تعريف الحبّ. وقُلْـتَ لي: ما يُعَـرَّف يُعْرَف، ومـا يُعْـرَفُ يُمْتَلَك، وما يُمْتَلَك يُنْتَهَك ويُسْتَهْلَك ويَهْلَك.

وقلـت لـي: ليس الحبُّ سعـادة ولا شقاء، بـل هو عثورُ الحواس علـى اختلاف الشَّبَه وائتلافه فـي رغبةٍ تتجدَّد. ولـو عرفنا مـن يُحبُّنا أكثر من معرفتنا مَـنْ نحبّ... لَظلّ الحب ملتبسـاً كما هو دائماً، وظلّـت السعادة لعبة نرد، ولكان على المتكلم أن يستعير عاطفة الغائب... لو عرفنا من يحبّنا قبل أن نعرف من نحبّ !

وقلـت لي: إذا متّ قبلـك، فادرأ عني الكلمـاتِ المُعَلَّبَة التي انقضت مدة صلاحيتها منذ وقف خطيب على منبر، واذرأ الأرضـ التي أنـام قربها لعلَّ عشبـة تدلُّك على أن الموت فلاحة من نوع آخر.

فمـاذا أقول لـك يـا صاحبي، فـي حضرة هـذا الغياب الناصـع، وقد أمليتَ علـيَّ خطبـة وداعٍ متقطّعة الزمن،

خاليةً من الشجن، محكمة الفوضى، ولا دمعة فيها خوفاً على الكلام من البلل،

أجـل... أجـل، لا وصيّة لـك إلّا النهي عـن الإفراط في التأويـل. أعـداؤك كثر، مرئيون وسرّيـون. وقلت لي: لا تخشـ إلّا الذين لا يعرفون الملل. أمـا الأحبّة، هم هناك منهمكـون في التقاط ما تقدِّمه الحيـاة من هبات صغيرة وتبرعات... كتحيـة من زهرة عشوائية الضحك، وانتباه فتاة إلى كرز ينمو، رويداً ورويداً، في أحد أقاليم الجسد، سعداء لأن أحداً من أبنائهم لم يمت اليوم، ولأن زلزالاً لم يضرب خيامهم المصوبة علـى سفح هاوية. ويضجرون مـن الأمل كمـا يضجر المرء مـن عشاء متكـرر، لكنهم يعودون إلى العشاء، وإلى الأمل.

فاحـذر –قلت لي– مَـنْ لا يعرفون الملـل ويفرطون في التأويل. ففي وسعهم أن يُشَرِّحوا الوردة بحثاً عن التفسُّخ فـي مصدر الرائحـة، وأن يَشْرَحُوا للعاشـق أن القبلة هي تبـادل أوبئـة. وفي وسعهـم أن يحاكموك علـى استعارة شعرية وعلى حرية خيال، لأن الجمال يُهينهم ولأنَّ الشعر الوطني الصحيح هو القبيح، ولأن غيابك هذا قد يحرمهم من أسباب الحياة!

وقلت لي: أعدائي كثر، فلا تحبّني كي لا يزدادوا!

ما عليك، ما عليك. هنا، حيث لا أعرف قبرك من مسقط رأسي، لا يحاكم أحد أَحداً ولا يقودنا هودج الكلمات إلـى واقـع أو خيـال. هنا نصفِّـي الحساب مـع القلب، ونقول للفكر: ابتعد، فقد كانت للموتى حياة ما قبل هذا المـوت. حياة أقلُّ من حياة، وأكثر مـن زيارة عابرة. هنا ينظـر القلب إلى أعلى، فيتجلَّى نـدم تخلَّف عن موعده، نـدم على ما لم نفعل: لماذا لم نأخـذ الحياة على محمل الجـد؟ لماذا أَسرعنا إلى هـذا الحد، ما دامت النهاية هي الواضحة والبداية هي الغامضة.

وقلـتَ لـي: لم يعطنـا صخـب البحث عن الحيـاة، في الحياة، فرصة الامتثـال الكامل لهدي السليقة، وقلنا: إن الشعـر هو الشاعر. وكان علينا أن نصدِّق الشعر ونكذِّب الشاعـر. فهل لي أَن أقرأك من جديد لأدرك كيف تسوس المهـارةُ ريح العبـارة، لتجعل من كل شجـرة أنثى، ومن كل أنثى شجرة، فنكذب على الأنثى وعلى الشجرة معاً؟ أبغير هذا يصدق الشعر؟

وقلـتَ لي: إن تطابق الصورة مع الواقع خبر يدفع الخيال

إلى الحياد. فلتكذب صـورة الشيء على الشيء لنرى ما بعد الشيء، لنرى في ضوء الرؤيا ما يجنّبنا العدم.

فبـأيِّ قلب من قلوبـي الكثيـرة أناديـك: انتظرني مهما تأخرتُ. أَما عِشْتَ بدلاً مني، كما مات أحد الموتى بدلاً منـي دون أن أَقول له: شكراً! فما أنا إلّا هو دون أن أراه، أنا المديـن لمصادفة باذخة العبث، في شارع لو أسرعتُ قليلاً أو أبطأتُ قليلاً لمتُّ نيابة عن سواي، وعاش حياتي نيابـة عني؟ فما هـو إلّا أنا دون أن يرانـي... هو المدين لمصادفـة باذخة العبث. كم قلنـا إن علينا أن نكمل حياة الآخرين فينا، لا كما نريدها نحن فحسب، بل كما أرادها أصحابها الذين نعيش بدلاً منهم.

وقلـتَ لي: كُنِّي، ولا تَخُنّي إلّا بقـدر ما يقصيك الإيقاع عني، وتُرْجعك قافيةٌ ضرورية التكرار إليّ.

وقلتَ لي: لا تفكِّر بالخلود، فما هو إلّا أحد الآثار السلبية أو الإيجابيـة لحادثـة الوجـود، وخـوف الـروح، لحظة انعتاقها من جسد عرفته وأَلفته على سكنى لا عهد لها بها، أو عودتها إلى من استعرتُ منه الحياة حين مات نيابةً عني.

وأنـت مُسَجّى أمامي، لا أعرف من هو الميت فيك ومن

هو الحـيّ، إلّا بقدر ما تملي عليَّ من خطبة أرَدْتَها طويلةً لتدريـب الروح على اختبـار حريتهـا أو عبوديتها في ما يتاح لها من كائنـات ومن كلمات. فإن كُنْتَ أنت القائلَ ما أقول لك الآن في صمتك هذا، فلن يكون الموت أكثر من وسيلة لاهتداء الروح إلى ما أُعدّ له من سفر. وإن كنتُ أنا القائل ما أقول لك الآن، على هذا الحجر، فإني ذريعة الموت القصوى لتعريف الحياة بضدها الغامض، ضدها العاجز عـن تعريفها بضدِّها في مكان، في لا مكان آخر، أَطلق الخائفون من العدم عليه لقب الخلود.

فنم هادئاً هادئاً إذا ما استطعت إلى ذلك سبيلاً /

ونَم هادئاً في كلامِكَ

واحلم بانك تحلُمُ،

نَمْ هادئاً ما استطعتَ

سأطرد عنك البعوضَ

ودمعَ التماسيح

والأصدقاءِ الذين أحبّوا جروحك

وانصرفوا عنك حين جعلتَ

صليبك طاولةً للكتابة

نَمْ هادئاً قرب نفسك

نَمْ هادئاً،

سوف أحرُسُ حُلْمَكَ،

وحدي ووحدك في هذه الساعةِ

الأرضُ عاليةٌ

كالخواطر عاليةٌ

والسماء مجازيّة كالقصيدةِ

زرقاءُ، خضراءُ، بيضاءُ،

بيضاءُ، بيضاءُ، بيضاءُ

XX

سَطْراً سَطْراً، أَنثرك أمامي بكفاءةٍ لم أُوتَها إلَّا في المطالع. وأُطيل خطبتـي كشاعرٍ يحتفظ بالمقطـع الأخير، ليطيل التأمُّل في ما مضى من هواياته /

هوايته هي عـدُّ الدرجات التي يراها أَمامه، والمشيُ على شارع جانبيّ وجمعُ الأصدافُ... ومؤانسةُ الكسل /

أَلكَسَلُ اجتهادٌ ومهارة. إفراغُ القلب مما يزيد عن حاجته علـى الخفقان، وتمييـزٌ بين الوقت والزمـن. فمن يملك وقتاً أكثر يتحرر من خشية الزمن /

ألزمــنُ نهــرٌ سَلِسٌ لمــن لا ينتبه إليه، وحشــيٌّ شَرِسٌ لمن يحدِّق إليه، فتخطفه الهاوية /

ألهاويةُ هي إغــواء الأعماق وجاذبية المجهول، إذ تصبح السماء حفرة واسعة كثيفة الغيوم /

ألغيومُ تُغَطِّيك، يا صاحبــي، بقطنها وتغطِّيني... في هذا المــكان الهارب من صفاته إلى ما تُسْبــلُ عليه الغيومُ من خفَّة الشكل ومادَّةِ المعنى /

أَلمعنى أيضاً يلوِّح، من بعيد، بيد سماويّةٍ مبتورةِ الأصابع، من شدة الحراثة في أَرض غير ذات زرع، ولا سعادة /

أَلسعادة مادَّةٌ روحيَّةٌ يختلف على تعريفها مَنْ يتفقون على أن الحــظَّ موهبةٌ والموهبةَ حــظٌّ، ويختلف على مديحها مَنْ يملكونها ويدخرونها في صندوق مقفل. وما هي إلّا رشوة من المستحيل /

أَلمستحيــل هو المُمْكــن الطَموحُ، يخرج إلــى الشارع شاهــراً مقصّاً لتقليم الأغصان اليابســة والأفكار، وتعليم الحالم إدارة النهار على وتيرة ما يرى /

يـرى أن رفرفة أجنحـة الفراشة، في مروحـة اللون، هي أفضل علاج للأَلـم /

ألألـم، إذ لا تفكر فيه، لا تحسُّ به. كأنه يُبَجِّل هدوءك هذا أمام عَدَمٍ لا يبدي رأياً فيك ولا تبدي رأياً فيه. لا يَرَى ولا يُرَى. هوَ اللاشيءُ وقد اكتمل /

واكتمـل القَمَرُ علـى خلوتنا في هذا الفـراغ. واكتملت ذاكرتي /

ذاكرتي رُمَّانة. هل أَفرطها عليك حبّةً حبّةً، وأَنثرها عليك لؤلؤاً أحمر يليق بوداع لا يطلب مني شيئاً غير النسيان /

أَلنسيـانُ تدريبُ الخيال على احتـرام الواقع بتعالي اللغة، واحتفاظُ الأمل العصاميِّ بصورةٍ ناقصةٍ عن الغد /

ألغـدُ، وهو هنا أمامنـا الآن يا صاحبي، عـارٍ من الزمن، مرميٌّ على حفرة، في انتظار ورقة توت ميتافيزيقية تُغَطِّي سَوْءَة العابر /

ألعابر من ليل الضوء إلى ضوء الليل /

أليـلُ يهبط علينا. وعلينـا أن نأبه بشواغـل الذين تركونا

وذهبوا إلى ليلهم الخاصّ، ينسون أو يتذكرون مقطعاً من خطبة الوداع/

ألوداعُ هو الصمت الفاصل بين الصوت والصدى. أمّا الصوت فقد انكسر. وأَما الصدى فقد حَفَظَتْهُ ودِيانٌ وكهوفٌ مُرْهفَةُ السَمْع كآذان كونيّة، وضخّمته صدىً للصدى /

ألصدى وصيّة الزائر للعابر، وقيافة الطائر للطائر، وإلحاح النهاية على إطالة الحكاية... الصدى هو نقش الاسم في الهواء /

أَلهواء باردٌ، يا صاحبِي، بارد ومُنْعش. ولم يبق أحد سواي يُسلِّيك ويلهيك عما أنت فيه على مِتْرَيْ هذا العدم. أَلعَدَمُ متران محاطان بنبات يستعد لاستنشاق الأوكسجين. أَلعَدَمُ مُحَاصرٌ بهواء بارد ومنعش. سأبذر بُذُورَ بنفسج على هذين المترين، وأسكب الماء لينهض العدم مهرولاً ويمضي بعيداً /

بعيداً، لا شأن لأحلامنا بما نفعل. الريحُ تحمل الليل وتمضي، ولا هدف /

أَلهدفُ يختلف من درب إلى درب. لكن الدروب كثيرةٌ ووعرة والمؤونة من العمر قليلة /

وقليلةٌ هي الأغاني /

الأغاني، حسبنا منها استراق السمع إلى اعتذار الموت من بعض الموتى، واختلاس النظر إلى بحبوحة النثر /

ألنثر جارُ الشعر ونُزْهَةُ الشاعر /

ألشاعرُ هو الحائر بين النثر والشعر /

والشعرُ إخفاء الزوال عن الزائل، وجملةٌ اعتراضية بين الفعل والفاعل والمفعول به، كأنْ تقول: تَرَكَتِ المرأةُ، وهي تخفي دموعها، صاحبها. ففي الجملة الاعتراضية بين «تركت» و«صاحبها» وقت يكفي كي يذوب ملح الغضب، وتتلألأ النجوم/

ألنجومُ تُطِلُّ، يا صاحبي، علينا كَلَمعانِ أزرارٍ ذهبيَّة على معطف الأبدية. تُطِلُّ علينا من موت بعيد لم يصل إلينا بعد. وأنا أَتلو عليك خطبتي تندسّ نجمةٌ في كلامي وتضيء عتمتي: لعلّ الموت مجازٌ يذكّرنا بسرٍّ في الحياة لم ننتبه إليه، فما هو؟ /

ما هو؟ لو عرفناه لتغيّرتْ مشاريعُنا، فما لا نعرف موجود، ومـا نعرف محدود يتغيَّر. وعلى قبَـرك هذا ينبت عشب أقـوى منك ومني، فلا أعرف هل أَحـزن أم لا أحزن لأن الحياة أرملةٌ راقصةٌ لا تكترث إلّا بما ينقصها /

ينقُصُها مديحُ الموتى وعتابُهم في آن واحد: لو قُلتِ لنا مَن أنتِ، وأن هنالكِ موتـاً أَقسى منك، لأَحْبَبْنَاكِ وقدّسناك، وخفَّفنا من أَمتعة الرحلة /

ألرحلة غاية /

والغاية إغواء المجهول /

والمجهول بعيد عنا وقريب منا... يستدرجنا إلى الامتلاء بجهـل لا حدَّ له، فنجتهد لإتقانِ جهـلٍ آخر. لكننا قنعنا بالبحث عن معلـوم يرشدنا إلى حياةٍ ما في الحياة، فصار المعلوم عصيّاً /

وعصيّاً كان كل شيء. في ظلك حشد ظلال، فلا تدري من يمشي فيك. وفيـك تقاطع طرق ملأى بخطى غزاة هبطوا عليك كمظليّين مُدَرَّبين على استخدام محاريثك. وفـي اسمك أخطـاء سبَّبهـا حريق هائل فـي الخارطة.

وعلى بيتك تُبْنَى آثارٌ رومانية. أما أنت، فلا صورة لك إلّا الشبح /

شَبَحٌ يمرِّن الحارس على السهر. شايٌ وبندقية. فإذا غلب النعاسُ الساهر برد الشايُ، ووقعت من يده البندقية، وتسلَّل الهنديُّ الأحمر إلى الحكاية /

ألحكايةُ هي أنك هندي أحمر /

أحْمَرُ الريش، لا أحمر الدم، وأنك كابوسُ الساهر /

الساهر على كَشِّ الغياب، وعلى تدليك عضلات الأبد /

الأَبد ملكية الحارس. عقار واستثمار. وإذا لزم الأمر فهو جنديّ منضبط في حرب لا هدنة فيها. ولا يلوح بعدها سلام /

سلام عليك يوم وُلدت، ويوم تبعث حياً في أوراق الشجرة /

الشجرةُ لفظةُ شكْرٍ خضراءُ ترفعها الأرض كنجوى إلى جارتها السماء /

والسماءُ تكافئها بقطرات مطر /

مطر عليك وعليّ. مطر خفيف ينعشنا في أول هذا الليل. أُحصيه قطرة قطرة كما أُحصي دقات القلب الظامئ إلى بلل، فأطيل وقوفي وأطيل خطبتي، لعلَّك تنهض وتعود معي إلى أَيّ أينْ، أو أمضي معك إلى لا أَين، كما لو نُودِيَ بي أنِ انتظرِ الوحي /

أَلوحيُ برهان القلب على ما لا يعرف، على ما هو أَعلى /

أَعلى وأَبعد. وأرى طائراً يحملني ويحملك، ونحن جناحاه، إلى ما وراء الرؤيا، في رحلة لا نهاية لها ولا بداية، لا قصد ولا غاية. لا أحدِّثك ولا تحدِّثني. ولا نسمع إلَّا موسيقى الصمت /

ألصمت اطمئنانُ الصاحب للصاحب. وثِقَةُ الخيال بنفسه بين مَطَرٍ وقَوْسِ قُزَح /

قَوْسُ قُزَح هو تحرُّش الوحي بالشاعر، بلا استئذان ... وافتتان الشاعر بنثر القرآن /

فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان /

وغائبان أنا وأَنت، وحاضران أنا وأَنت،

وغائبان /

فبأيِّ آلاء ربكما تُكَذِّبان.

الأعمال الأولى



محمود درويش

حَيرةُ العَائِد



I- هنا / هناك ... الآن

في وداع تونس



عمـا قليل يخـرج الفلسطينيـون من آخر هـذه الزيـارة إلى أول العودة، يخرجون من رحلات البحـر إلى خطوة أولى على البر، يخرجـون على خطى الأقدام المرتدة إلى البيت الأول من رحيل المعنـى والسلالة، إلى أقدم مدينة قد تـأذن لهم للمرة الأولى في تاريـخ تجربتهم المعاصرة بالتأمل الحرّ فـي الدلالات وقد تأذن لهـم أيضاً بالمفاضلـة بين جمالية الأسطـورة ولبس الراهن، بين واقعية الحلم وعبثية الواقع.

ألـم يكن ذلك ما كانـوا يسعون إليه في مشروعهـم المتوتر لتعديل التراجيديـا الإنسانية المحكومة بشروط لم تعجبهم ولا مرة واحدة وهو أن يجترحوا بأدوات الخارق إمكانية إنجاز العادي والمألوف.

نحـن الآن عاديون، عاديون أو أقـل أو أكثر. لنا موطن قدم يابس في ساحة الوطن الخلفية. وبنا ما يشبه القادمين للتو من أحلامهم

وقد رأوا مادة الحلم الخام المرسومة بالأبيض والأسود تمدهم بما افتقدوه من حاجة إلى الفكاهة.

ونحن الآن – والحمد لله – عاديون، مكشوفون وجهاً لوجه أمام شمس السؤال:

هل تتسع أرض الحلم لما يبقى فينا ولنا فيها من حلم؟

وهل في وسع الحلم أن يحلم أكثر؟ بالطبع نعم. فينا أكثر من أرض، وعلى الأرض أكثر من منفى وفينا النازل من صورته التي ما زالت معلقة على الجدار وعلى التابوت. فكيف نتدرب على القطيعة المفاجأة؟ كيف نألف الحوار مع الآخر الذي هو أنا هذه المرة؟

تلك أسئلة سنحيلها على قصائدنا القادمة التي لن تنفصل عن بداياتها، كما لن تنفصل عن بحة الملح وعن حور الحور. وأما الزبد فقد ذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فقد مكث في أرض القصيدة.

ليس هذا هو السؤال:

السؤال الساخر الآن هو سؤال سياسي. كيف نعرف أن الغيم حقيقي أيضاً ويدرك بحاسة اللمس؟

وهو أيضاً سؤال أمني: كيف ندقق في هوية الفراشة وهي تمر على حاجز الواقع؟

وهـو أيضـاً سؤال إداري: كيـف نوزّع خبز اللغـة على الحراس التائهين في ثنائية البيت والطريق؟

وهـو أيضاً سـؤال تربوي: كيـف نقنع طـلاب المدارس بكتابة أسمائهم على الحجارة لتصبح رفاً من حمام؟

وهو أيضاً سؤال ثقافي: كيف لا تسقط الذاكرة في إغراء الاعتذار الدارج؟

وهـو أيضاً سـؤال إبداعي: كيف نحول موطـأ القدم في الساحة الخلفية المليئة بالألغام والفقر إلى شروط حياة صالحة لتأسيس وجود إنساني حرّ قابل للتطور ولكسر قيود الفارق بين الدولة والوطن؟

وهـو أيضاً سؤال إعلامي: كيف نحـرر الوعي العالمي من الفارق الخادع بين صورة السلام التلفزيوني وبين مفهوم السلام الحقيقي؟

وهو أخيراً سـؤال عاطفي: كيف نشفى مـن حب تونس؟ كيف نشفى من حب تونس الذي يجري فينا مجرى النفس؟

لقد رأينا في تونس من الألفة والحنان والسند السمح ما لم نر في أي مكان آخـر. ولذلك نخرج منها كما لم نخرج من أي مكان آخر.

نقفـز من حضنهـا إلى موطـئ القـدم الأول، في ساحـة الوطن الخلفية، بعدما تجلت لنا فيها، في البشر والشجر والحجر صور أرواحنا المعلقة كعاملات النحل على أزهار السياج البعيد.

فـي هذا الوداع، نحبك يا تونس أكثر مما كنا نعرف، نرسِّب في صمت الـوداع الحزين شفافية تجرح ونصفّـي كثافة مركزة إلى حدّ العتمة التي تحل بالعشاق.

ما أجمل الأسرار الكامنـة وراء الباب الموارب، وراء بابك وهو المساحـة المثالية لتعامـل الشاعر الحاذق مع العناصـر التبادلية للقصيدة.

فهل نقول لك شكراً؟!

لـم أسمع عاشقين يقولان شكراً. ولكن شكراً لك لأنك أنت من أنت.

حافظـي على نفسك يـا تونس. سنلتقي غداً علـى أرض أختك: فلسطين.

هل نسينا شيئاً وراءنا! نعـم، نسينا تَلَفُّتَ القلب وتركنا فيك خير ما فينا، تركنا فيك شهداءنا الذين نوصيك بهم خيراً.

البحث عن الطبيعي في... اللاطبيعي

لا أعـرفُ، لا أعرفُ تماماً ماذا يعني هذا الاقترابُ الجغرافيُّ من مـكان الاسـم، لأن الغموض المخيِّم على الحـدود الفاصلة بين الثنائيات: الليل والنهار، المنفى والوطن، والشعر والنثر، هو من أشدّ أنواع الغموض كثافة وشفافيّة في آن واحد.

بَيْـدَ أن فضيلـة هذا الغموض، هنا والآن، هـو أنه قادرٌ على كتابة هجـاء أليفٍ لوضوح المنفى، قبـل أن يتساءل عمّا إذا كانت هذه اللحظةُ الانتقاليةُ هي لحظة قطيعةٍ بين الخروج والدخول.

وسيحتـاجُ الفـردُ، فينا، إلى تدريـبٍ يوميٍّ خاصٍ علـى التحرُّرِ التدريجيِّ من ظلالِ المعنى الثقيلة، وهي تنتقل من زمنٍ إلى آخر، وعلـى التحرُّرِ أيضاً من مُقارناتٍ لا تُسفِرُ عمّا ينفعُ حياتنا العملية المضطربة. فليست الثنائيّات التي تسكننا محدَّدة إلى حدٍّ تعريف

الشيء بعكسه: أن أكون هنا لا يعني أنني لم أعُدْ هناك. وألّا أكون هناك لا يعني أنني هنا.

وسيحتاجُ الفردُ فينا أيضاً إلى التأكُّدِ مِنْ أنّه عثرَ على حواسّه الشخصية، كاملةً وعاملةً كما ينبغي لها أن تعمل، بلا وسيط أو توسُّط.

كما ستحتاجُ الجماعةُ، في كلِّ فردٍ منّا، إلى إعادة تنظيم زحامها الجديد وعزلتها الجديدة معاً، وإلى شيء من التخصُّصِ بين ما هو عامّ وما هو خاص.

لا لشيء... إلّا للتأكُّدِ من جاهزيتنا لخوض معركة الدخول في طورِ العاديِّ، أو الطبيعي. فهل آن لنا أن نسأل إنْ كانَ الشِّفاءُ من الصورة الجاهزة عن أنفسنا، ومن جرحِ ذاتٍ نأتْ عن ذاتها... ممكناً؟

وهل يمكننا أيضاً أن نهبط، سالمينَ، مِنْ سماءِ الأسطورةِ إلى ما تيسَّرَ لنا مِن أرضِ الاسم والهوية، من أرضِ الواقع؟ وهل في مقدورنا أن نواصلَ مشروعَ الرحيلِ الملحميِّ، في حَمْلَةٍ شِعريّة نعرفُ، منذ البداية، مصائرَ رُموزِها سَلفاً. وأنّ السيدة هيلين قد أُعيدَتْ، على عُكازَيْن، إلى زوجها منذ النشيد الأول الذي لم نكتبه بعد؟

هذه هي تينةُ البيت، فتفيأ ظِلَّها – تلك هي الأغنية البسيطةُ التي سَيَكتُبُها العائدُ إلى البيت. أما مَنْ لم يترُكِ البيتَ أصلاً، لم يذهب ولم يَعُدِ، فله أغنيةٌ مختلفةٌ وحنينٌ مُقابل إلى استمرار التاريخِ في اللغةِ، وامتداد اللغةِ في التاريخ.

وســواءٌ أكانــت قليلــة أم كثيــرة تلك الجماعــاتُ التــي رحلَتْ وعــادتْ، لتَضْحَكَ أو لتبكي، سيــان، فليست تلك هي القاعدة. إنَ اجتيازَ هــذا المترِ الترابيِّ، الفاصلِ بين المنفى والوطن، لقادرٌ على تحويــل الجسد إلى روح في إشراقــاتِ الفرَح. ولكنَّه ليس كافياً بَعْــدُ، للاحتفال بعيد الاستقلالِ، كما يعلمُ الجميع. كما أنَّ أدواتِ التعبير عن الحريَّةِ ليست هي الحريّة.

ولذا، يَنقَضُّ السؤالُ على السائل:

هل في وُسْعِكَ أن تكونَ طبيعياً في واقعٍ غير طبيعيّ؟

لا شــيءَ يبدو طبيعياً في هذا المخاض الــذي تتبادل فيه البدايات والنهايــات لعبــة الكراســي. صحيــحٌ أن الحرب تبــدو وكأنها انتهت. ولكنَّ السلامَ لم يبدأ. فليسَ من أسماءِ السلام الجميلةِ أن يُضْرَبَ الحصارُ العسكريُّ على مجتمعٍ اختارَ السلامَ جواباً على سؤالــه الوجوديِّ والوطني، بعدما أنقــذ هويته من خطر التلاشي في الآخرِ من جهة، ومِنْ خطرِ الانغلاق مِنْ جهة ثانية.

وليسَ مِنْ أسماء التعايُش الجميلــةِ ألّاَ يُسْمَحَ للشعب الفلسطينيِّ بتحقيق «التعايُشِ الجغرافيِّ» بيــن مُدُنه وقُراهُ وريفه، وبالتعايُش مــع ذاتــه، «عقَاباً» له على قــراءة تاريخ بــلادهِ المعاصر، بطريقةٍ صاغــتْ مشروع حياةٍ مشتركةٍ مع الآخــر، على أرضٍ مشتركة، ولغدٍ مشترك.

لا حاجة بنا للوقــوف طويلاً أمام المفارقةِ التي تدفَعُ الضحيّة إلى البحثِ عن حلٍّ لمشكلتها يتــوازى مع البحث، في الوقت ذاته، عن حــلٍّ لمشكلة ضحيَّة أُخــرى تحوَّلت دولتهــا إلى جلاَّدها.

فذلك متـروكٌ لكُتَّابِ التراجيديّات الكُبْـرى، إذا كان لها مكانٌ في هذا الزمان.

لكـنَّ الضحيّة، فينا وقد ضاقـتْ ذرعاً بمكانتهـا وبحاجتها إلى البطولة، تُدْرِكُ أنّها لن تنتقلَ إلى سِجالِها مع نفسها، ومع الآخر، لإنجـازِ مكانةِ العـاديِّ، إلّا بفضلِ التاريخ، علـى الرغمِ من أنَّها ضحيةُ التاريخ!

وتُـدرِكُ أنَّ حاجتها المُلِحَّة إلى البحث في هويتها، والبحثِ عن هويتها، ليس ناجمةً عن رغبةٍ في التحديقِ النرجسيِّ في الصورة، أو الانـزواءِ فـي الصَدَفة، أو الإفـراط في الافتتـانِ بالخصائص، بقـدرِ ما هي شـكلٌ من أشكالِ استراتيجيـات الدفاع عن النفسِ أمـامَ سياسـةِ النفـيِ والإلغـاء، في الطريـقِ من الصـراعِ الوطنيِّ على الهويّـةِ إلى تحقُّقِها في حياةٍ طبيعيةٍ... تـأذنُ للإبداعِ الحُرِّ بجماليـات الصراعِ مَعَ الهويّة، إذا شـاء. إذ يُعَبِّرُ هذا الصراعُ عن أقصى درجات الحُرِيَّةِ والانتماء، حينَ يُصْبِحُ في مقدورِ الثقافة أن تُحاكِـمَ ذاتها وتُنَشِّط أسئلتها المرجأة التي تمسُّ بعض مُحَرّمات مجتمعهـا، كأنْ يتعرَّضُ الوطنُ نفسُهُ إلى السخرية، عندما يتحرَّرُ هو والسخرية معاً من حالةِ الطوارئ!

من حصارٍ إلى حصار، تُحْرَمُ التأمُّلاتُ من حريَّةِ الحركةِ واختراق النمَط، ما دامت حبيسة انخراطها في سؤال العيش، وسؤال البقاء، وحاجات الإنسان الأوليّة إلى خبزٍ ومأوى وعَلَم ونشيدٍ وشرطة. وهكذا يتجلّى سؤالُ البحـثِ عن العاديِّ والطبيعيِّ بصفته سؤالَ البحثِ عـن معجزة جديدة، وسـؤالاً مطروحاً علـى جماعةٍ لم يتمكَّن أفرادها من التأمُّلِ الطويلِ في فرديتهم المستقلّة.

فَمِنَ المفارقات المميّزة لحياتنا الانتقالية أنَّهُ كلَّما تطوَّرَ الكلامُ الإجرائيُّ في تفاصيلِ «عمليـة السلام» تدهورَ مستوى الأسئلةِ الكبرى، والأسئلةِ الإنسانيّة الصُغرى، وتعمَّق الإحساس بالاحتلال، وضاقتْ بِنَا أرضنا المحرَّرة الموضوعة في أقفاص، لا دليلاً على جراح السلام، كما قد يظنُّ البعض، بل دليلاً على مدًى افتقار عملية السلام هذه، كما يصوغُها الجانبُ الإسرائيليُّ حتى الآن، إلى جوهرِ السلام المتمثِّل – على الأقلِّ – بوضوحِ الطريق إلى نوعيَّة استقلالنا وكميّة حريَّتنا، ودليلاً على أن الخطوة الأولى، إذا ما راوَحتْ مكانَها، ليست كافية لتلخيص مسيرةِ الآمالِ التي رافقتها، حينما انتقل الاحتلال مِنْ غُرفةِ النومِ إلى غُرفةِ الاستقبال!

وهكذا، ما زالَ من السابقِ لأوانِه الاعتذارُ عن كتابةٍ لم تقفز من سياقِ شرطها التاريخيّ إلى الميتافيزيقيا من جهة، وعن كتابةٍ لم تؤجِّل حداثتها إلى أن تنضُج ظروف مجتمعها الموضوعية من جهة أخرى.

وما زالَ مِنَ السابقِ لأَوانِه تحريضُ الأحلام الصغيرةِ على مُحاسبةِ الأحلام الكبيرةِ عمَّا فعلت بها لتحرمَها مِنَ استخدام الملابس الداخليَّة أشرعةً لسُفُنِ الرحيلِ الشراعيّة، ما دام البحَرُ في مِثْلَ هذه السهولة، وما دامَ الملاَّحُونَ لا يحلُمونَ بأكثر من زراعةِ البقدونس في أحواضِ بيوتهم.

لا، لم يَكُنِ البحرُ طيّعاً إلى هذا الحدّ، ولكن لا وظيفة للأحلام الكبيرة، أصلاً، سوى توفير المناخ الملائم لانسياب الأحلام الصغيرةِ للعاديِّ فينا، المحرومِ مِمَّا يُوَفِّرُهُ السلامُ مَعَ الآخرِ مِنْ سلامٍ مَعَ النفسِ القلِقة.

لـم يحدث ذلك لسببٍ أبسطَ من تعقيداتِ العلاجِ النفسيِّ، ومِنْ مُساءلـةِ الثقافةِ عـن مدى ابتعادِهـا أو اقترابِها مِـنْ حاضرٍ ما إن تُسمِّيـهِ حتى يَختفي. لم يحدث ذلك لأنَّ السلامَ لم يتحقَّق بعد، ولأنَّ بلادنـا ما زالـت مُحتلَّة، على الرغم من الثُّقـوبِ المحرَّرةِ العاجِزَةِ عن تعريف الغابـة بشجرة مرسومة، والمطالبة باستبدالِ الواقـع، كما هو، بصورةِ ما ينبغي أن يكونَ عليه، والمُطالبةِ أيضاً بمُصالحـة التاريخ بالتصفيق له وهو قـادمٌ من بعيدٍ... وبالتدرُّبِ علـى انتظارِ المُعجِزَةِ مـن خلْوَةِ الذاتِ إلى ذاتهـا عند الحاجز، وبإعلاء الجحيم، في الواقع، إلى مرتبة النعيمِ في اللُّغة.

وإذا لم نَنْجحِ في امتحانِ المُعْجزَة: إذا لم نَنْجح في تحقيقِ الاكتفاء الذاتـيِّ والطَّفْرَةِ الاقتصادية، داخـلَ الثقْبِ المعـزولِ عَنِ الثَّقْبِ المعزولِ، وعَنِ المُحيط، وعَنْ باطنِ الأرض، وحافةِ السَّماء، فما على «الشريـكِ» الإسرائيليِّ إلّا أنْ يعلِـنَ: لا تلومُوا غيرَ أنفسِكُمْ على أنَّكم غيرُ جديرين بالاستقلال، لا تلومُوا غيرَ أنفسكُمْ!

فـي وُسعِنا أنْ نلـومَ أنفسنا أيضاً. لِمَ لا؟ فمِنْ واجبنـا أنْ نُتْقِنَ فَنَّ النقـدِ والنقدِ الذاتيِّ، وأنْ نختلفَ فـي موضوع الإدارة والوزارة والاستعـارة والحجاب والقافية وشروطِ الطاعةِ وبرامج الإذاعةِ. ولكـنَّ ذلـك لا يشملُ عـدَمَ التمييز بين الاستقـلال والاحتلال. فهُنا نقطةُ الالتقاء المركزيَّة بينَ المعارضةِ والسلطة التي يُنْظَرُ إلى مشروعهـا السياسيِّ باعتباره مشروعاً مُضـاداً للاحتلال، فذلك هـو جَوْهَر شرعيّتها الوطنيّة. بعد ذلك، ومَعَ ذلكَ، نتناقشُ حولَ سلامَةِ العلاقةِ بين الإطارِ والمحتوى، بين الشكلِ والمعنى، وبين الأداة والفكرة، من منظور الإدراك الوطنيِّ العامِّ بأنَّ اختيارَ طريق السـلامِ الحقيقيِّ هو اختيار لا يَحتمِـلُ التراجُعَ أو الجمودَ الذي

يُبشّرُنا به الطرفُ الإسرائيليُّ بالقولِ حيناً، وبالفعلِ دائماً.

لا نستطيع الدخولَ في عقل الآخر، لنَفهمَ كيف يَفْهَمُ إمكانيَّة تحقُقِ السلام بالإصرارِ على الاستحواذ الكُلّي على الأرض والتاريخ، وبالإعلان عن أنه صاحبها الوحيد، صناعة وكتابة، دون أن يُشْبعَ غريزةِ الحفريات التي لم تُثبت خُلُوَّ هذا التاريخِ وهذه الأرضِ من السكّان.

إنَّ تحويلَ هذا الهاجِسِ إلى سياسةٍ تُؤسِّسُ السلامَ على استحضارِ شبَح من أجلِ الاحتفال بتغييبه، حقوقاً وشرعيَّة، سيجعلُ المسرحيَّة خالِية من أيّ شيء... عدا افتتانِ مؤلِّفها بقدرته على الاحتفاظ بتماسك الخُرافة مَعَ ما بعدَ الحداثة... الصهيونية، الأولى خاليةٌ من الشعب الفلسطيني، والثانيةُ مُتحرِّرةٌ من عُقدةِ المسألة الفلسطينية، التي تمَّ حلُّها دونَ حل!

لا. لا حياة طبيعية مَعَ الاحتلال، وتحتَ الاحتلالِ. ولا حياة طبيعية أيضاً مع النفسِ لمن يواصل الاحتلال. وهذا ما باحَ به الكاتبُ أ. يهوشع حين طالبنا بمساعدته على إقامة علاقة طبيعيةٍ مع نفسه المتوتّرَة.

نعم، في وسْعِ الضحيَّة أنْ تُقدِّمَ المعونَةَ الأخلاقية للضميرِ المعَذَّب في مجتمعِ جُلادها، في حالةٍ واحدةٍ فقط: حين تتمكَّنُ الضحيَّةُ مِنْ إبداعِ حياتها الطبيعية. ولا يحدُثُ ذلك إلّا بعد الاعتراف بحقّها في الوجودِ، والاعتذار عمَّا لحِقَ بها مِنْ ظلم، وما يستتبع هذا الاعتذار من إجراءات.

لكننا ما زِلنا هناك... في منطقةِ الصراعِ على قراءةِ الماضي: مَنْ

ظَلَمَ مَنْ؟ ومَنْ يعتذِرُ لِمَنْ؟

إنَّ الموقـفَ الإيديولوجـيَّ الإسرائيلـيَّ فـي عمليّة السـلام التي تُحرِّكُها السُّلحفـاةُ، ما زالَ يُمْلي علـى الفلسطينيينَ شُروطَ بقاءٍ تعكسُ عقليَّـةً تاريخيَّـةً تفترضُ أنَّهُـمْ، أيْ الفلسطينيين، من فُلُـولِ الغُزاةِ العـربِ لأرضِ إسرائيل، وتُطالبهُـم بقراءةِ تاريخهم ووجُودهم على هذه الأرض باعتبارهِ وجوداً غيرَ شرعي.

بينما يتمتَّعُ الموقفُ الحداثـيُّ، البراغماتيُّ الإسرائيليُّ بقِسْطٍ من التسامُحِ، ضروريٍّ لتحريـك قطارِ السلامِ الإسرائيليِّ – العربيِّ، فيَعتَرِفُ لهـؤلاء السكانِ المقيمين على أرضه «يهودا والسامرة» بحقِّ الإقامة الطويلة في ضواحي المستوطناتِ اليهودية...

بهذه المعالجـة، يتمكَّنُ الإسرائيليُّ مِنْ تنظيفِ ذاكرةِ الفلسطينيِّ المُشوَّشَة، ومِنَ الانصراف إلى إقامة العلاقاتِ الطبيعيةِ مَعَ نفسه، دون أن يرتَبِـطَ ذلك بحقّ الفلسطينيِّ في امتـلاكِ شروطِ التحرُّرِ والاستقلال، أو حتى الحقوق المدنيّة والمساواة، مِنْ أجلِ تطبيعِ علاقاتِهِ مَعَ نفسه.

لا تنفِـي الهويَةَ الهويَّة. إنَّ مـا يُرْبِكُ الهويَّـة ويُوتِّرُها هو اشتراطُ تَشكُّلِها بنفـي هويَّةِ الآخر. فإلى متى يجري البحثُ عن الطبيعيّ في ما هو خارجهُ: في إصرار الإيديولوجيِّ الإسرائيليِّ على إقامة حـدوده، التي لا حُدودَ لضيقِهـا وسِعَتِها، في وُجـودِ الآخرِ... غيـرِ الموجودِ، وعلى تشكيلِ صورتِهِ، وصوتِهِ، وعلاقتِهِ بذاتِهِ – الموضـوع، ورَدِّ فِعْلِهِ الباڤلوڤي على ما يُريدُ له أن يكون، وأن لا يكون.

أمَّـا نحنُ، فما علينـا إلّا أن نكونَ كما نُريد لنا أن نكونِ: طبيعيين فـي حياةٍ طبيعية. تلك هي معركتنـا التي نخوضها بكلِّ ما نملكُ مِنْ شَهْوَةٍ إلى الحريَّةِ وإلى السلام. ولن نعودَ إلى الوراءِ، لن نعودَ إلى المنفى، إلّا... لمتطلبات النشيد!

المكان في مكانه (*)

كنتُ هنا، منذ قليل، في أول لقاء على هذه الأرض، يجمعني بما كان فيّ من أمس، وبما سيكون عليَّ أن أكونه، في غد، بعد قليل.

في ساحة مجاورة لهذه الساحة، في ساعة الغروب ذاتها، شاهدتُ على مرأى منكم، ورُبّما على أيديكم، صورة ولادةٍ معنوية جديدة لشاعرٍ لم يألف أن يُولد مرَّتين، وإن أَلِفَ أن يموت أكثر من مرة، على طريق العودة إلى البيت.

لا أحد يعود. لا أحدَ يعود تماماً إلى مَنْ كانه وإلى ما كان فيه. لا أحد يعود إلّا جماعة أو مجازاً. ومجازاً عدنا. فنحن في حاجة رمزيّة إلى تحميل عودة الأفراد بمدلولات عامة، فلعلَّ ربيعاً ما،

(*) [ألقيت هذه الكلمة بمناسبة منح جامعة بيرزيت الدكتوراه الفخرية للشاعر عام 1996].

حقيقياً أو متخيّلاً، يندلع من جناح سُنُونُوة واحدة.

لا لشـيء نُكابِدُ هذا الفرح الصعب، إلّا لاستنباط ما هو جوهريّ أكثر: عودةُ الـروح الدائمة إلى الإرادة الضرورية لمواصلة السير الشـاقّ إلى أرض الغد، لنتمكن مـن اجتراح معجزتنا الوطنية في تحريك هذا الحاضر من المكانة التاريخية المُعَدَّة له، بكل ما في القـوة من حماقة وخرافة، للثبات في المعنـى الجامد، وللقطيعة مع الزمن المتحرك.

ولا شيء في حياتنا جدير بأن يُكرَّم سوى حقنا في حياتنا ذاتها... حياتنـا التي كدنا أن ننساها في زحام البحث عن معنى خارجها. وكان خارجُها كثيراً، إلى حَدّ خُيِّل لنا، معه، أن الوطن قد هاجر، فلـم نكد نعرف هل نحن هنـا أم هناك. وها نحـن قادرون على الافتتان بحقيقة واحدة: ما زال المكان في مكانه!

لعل الحيرة هي الوصف التقريبيّ لحالتنا الذهنية الراهنة المحرومة مـن مرجعية المقارنـة. إذ يُراد لنـا أن ننخرط، دفعـة وحدة، في مختبـر الوعي التجريـبي الذي لا يعود بالصـراع على الوعي إلى أيـة معايير، سوى نزعـة الآخر للتحكم في نسيـج وجودنا، وفي صوغ مصيرنا بطريقة لا تفتقر إلى العدالة فحسب، بل تحفل بكل عوامل التغييب الكامل للذات، ذاتنا، عن ذاتها.

إن الانتقـال المفاجئ مـن مرحلـة تاريخية محـدّدة إلى مرحلة شديدة الغموض، يغيب فيها جوهر السلام عـن عملية السلام، وتسودُ فيهـا انقلابات المعاني والمفاهيـم بطريقة فوضوية، هو مـا يدفع الوعي العـام إلى عذاب الحيرة، ولكنـه لا يُعَطِّل حيوية

نشاطنـا الثقافي ويُهَمِّشُهُ كما يقول المتشائمون منا، بل يعود إلى أسئلته المبدئية، وربما التقليدية حول علاقته بالواقع.

ليس هذا الواقع في حاجـة إلى المزيد من الشكـوى والهجاء، ولا يستحق بالطبع أي ثناء. وليس من الطبيعي أن ننصرف، الآن، إلى أسئلة التطبيع القصوى مع شيء أو أحـد، وإلى الاستجابة للمطالبة بتطهير الذاكرة مما علق بها مـن لغة الصراع، وإلى تعديل حبكتنا التاريخية في اتجـاه الاعتذار عن سيرتنا، ما دام الاحتـلال، المعلن والمبطن، الرسمي والعلني، جاثماً على حياتنا، وما دامت المستوطنات تُقَطع جسـد الأرض وتبتلعها، وما دام الحصار يهبط بنا من سؤالنا الوطني إلى بدائية الوجود، وما دمنا محرومين من ممارسة حقنا المقدّس في السيادة والاستقلال والحياة الإنسانية العادية.

فليس السلام سجناً أو معسكر اعتقال.

وليست السلطة نقابة وطنية لإدارة شؤون السجناء.

وليس الوطن مشهداً طبيعياً للزيارة العابرة.

لقـد مشـى الفلسطينـي طويلاً علـى درب الآلام لبلـوغ السلام الحقيقي العادل الـذي يوفر له، وللآخر، شروط الحياة الإنسانية والوطنيـة والإبداع الحـرّ، وقَبِلَ مبـدأ التعايشـ المتكافئ على أرضـ وطنه التاريخي، استجابة لعملية التطـور التاريخي الدامية التـي جعلت من هذا الوطن بلـداً لشعبين، بعدما دفعت بالشعب الفلسطيني إلى إحدى أكبر المصائر التراجيدية في هذا العصر.

ومـن دون أن تأنس الضحيـة إلى قدرها، وتصاب بـداء التنافس علـى المكانة العالمية للضحية، كما فعـل سواها، لتبرير خروجه

على المعايير الإنسانية العامة، وتجريد ضحيته من مكانها ومن اسمها لتبرير الإمعان في إنكار وجودها، والاحتفاظ لنفسه باحتكار صفة الضحية التي أعطت لنفسها الحق في أن تكون جلّاداً مدججاً بالسلاح النووي وضحية في آن واحد.

من دون تقمُّص هذه النفسية وهذه العقلية، أشهر الفلسطيني الأمل في وجه الألم، وخاض معارك الدفاع عن اسمه وهويته وتاريخه وبلاده، ليحلّ البطلُ فيه مكان الضحية، وليتمكن من تحقيق وجوده الإنساني العادي في وطنه البسيط.

فهل تتيح ظروف هذا الواقع المأساوية له أن يتعايش مع ذاته الإنسانية المنتقلة من صورة الضحية إلى صورة البطل إلى صورة العادي؟

لا عودة إلى الوراء. ولكن، من أين لنا القدرة على جعل العدو، الذي حوّلناه إلى خصم، شريكاً لنا في مواصلة السير إلى أمام؟

تلك هي معضلتنا. ولكن في هويتنا الحضارية ما يكفي لوضع هذا الحاضر في مكانته من التاريخ. وفي تجربتنا الوطنية الخاصة ما يُحَفِّزُنا على الإيمان العنيد، بأن من استطاعوا الصمود الفذّ في معارك الدفاع عن هويتهم ووطنهم في الحروب الخاسرة، قادرون على الإمساك بمستقبلهم في السلام الخاسر. فنحن لسنا قلعة محاصرة إلى الحدّ الذي يتصوره الآخر. نحن جزء من محيط شاسع تُشكل القدس موضع القلب فيه. وفيه من عناصر القوة الكامنة ما يعيد إلى عملية السلام ما تفتقر إليه من مبادئ العدل والمساواة والحرية.

ومهما كانت الحيرة، أمام هذا الواقع، متأرجحة بين النصف الفارغ أو الملآن من الكأس، فليس في وسع الثقافة أن تعيد النظر في طبيعتها، ودورها. فبما هي معرفة، هي عامل أساسي في تكوين الوعي. ومن هنا مكانتها في التعامل مع الواقع، لا انسجاماً ولا تكريساً، بل إسهاماً في نشر الوعي الجماعي بضرورة تغييره. ولستُ هنا لأشيد بدور مثقفينا، وجامعاتنا وبخاصة جامعة بيرزيت، في الدفاع عن ثقافتنا القومية وعن تحصينها ضد أخطار التشكيك بالذات. ولكني أود الإشارة إلى سعة المجال التاريخي الذي ينبغي لمشروعنا الثقافي أن يتحرك فيه، وهو مطالب بالامتداد على رفعة مجالات معرفية شاسعة في مقدمتها: حماية ذاكرتنا الجماعية، وحقنا في سرد رواياتنا التاريخية، والدفاع عن وعينا التاريخي، وتطوير آليات التعبير عن انتمائنا القومي والإنساني، وتعميق ثقافة الديمقراطية والحرية والكرامة، ومفاهيم حقوق الإنسان.

إن طبيعة أية ثقافةٍ أصيلة، باعتبارها وطنية وإنسانية في آنٍ معاً، تجعلها قادرة علَى صيانة خصوصيتها وهويتها في الوقت الذي تتفاعل فيه وتتحاور مع الثقافات الأخرى التي تُكوِّن، بمجموعها، الثقافة العالمية.

ومن هنا، فإنها قادرة على التمييز بين ما هو إنساني وما هو عنصري في ثقافة الآخر، وعلى إدراك المشترك الإنساني الذي آن لنا أن نطوِّر وسائل حضورنا الحيّ فيه، من موقع خصوصية متحررة من عقدة النقص ومن عقدة الانغلاق معاً.

لا نريد أن نكون أبطالاً أكثر،

ولا نريد أن نكون ضحايا أكثر،

لا نريد أكثر من أن نكون بشراً عاديين.

البيت والطريق(*)

أرجـو أن تأذنوا لي بالتعبير عن حيرة عاطفيـة، فليس سهلاً على المـرء، حتى لو كان شاعـراً ضالاً، أن يجد نفسـه بين أهله دفعة واحدة، دون أن يضطرب. فالسعادة المفاجئة هي أختُ الحَرَج. وأنـا سعيـدٌ ومُحْـرَجٌ: سعيدٌ لأنـي الآن معكم، هنا فـي الجليل الجميل، مُبْتَدأ الكلام وخَبَرِه. ومُحْرجٌ، لأني لا أقوى على النظر فـي ماضيَّ الذي يُوَبّخُني قائلاً: أين كنت؟ دون أن تغرورق اللغة بدمعها السرّي.

كأننـيِّ لم أنتبـه إلّا الآن إلى ما فعل الزمنُ بـي. أما كان في وسعه أن يُعَلِّمنـي الحكمة، كما علّمني التاريـخُ السخرية بثمن أقلّ من الرحيل؟

(*) [ألقيـت هذه الكلمة فـي احتفال خاص في مدرسة كفـر ياسيف / الجليل التي درس فيها الشاعر].

مـرَّ أربعون عاماً، منـذ زوَّدني هذا المكان الأجمـل بعُدَّة السفر الطويـل على طرق لم يكن واضحـاً منها إلّا أوّلهـا. أما آخرها، فتلـك أمنيَةٌ تتقاذفها مغامرة الحياة وسِجـالُ العلاقة بين الخطوة والطريق. لكـنَّ إغواءَ الشعر فينا يحثُّ السائرَ الحالمَ على ابتكار جهاته، بذكاء القلـب وطيشه، مُتوهِّماً أن طريقه هي خطاه، وأن الطريقَ المعبَّد ليس طريقَ الحالمين.

وكأننـي أحلُمُ بأننـي أرى في الحلم أني أفيـق من حلمي. وحين أعـود الآن إلى هذا المكان زائراً، أتساءل: هل يزور المرء نفسه؟ ولا أعـرف إن كانت لغتي التـي تعلَّمتُ الكتابة بها هنا، ما زالت صالحـة للتعبير عن رموز لا تجد مجالها الحيوي إلّا في الرحلة، مـن فرط ما أدمنت الحضور في الغياب، ولا أعرف أيضاً إن كان فـي وُسع لغتي أن تألف مرجعيَّاتهـا الأولى، منذ حوَّلَتِ المسافة الماكـرةُ كلَّ حجرٍ هنـا إلى طائر هنـاك. وهل أستطيـع أن أعيد الصـورة الشعريّة إلى عناصرهـا الأولى، بطريقةٍ لا تمدح المنفى إلّا على دوره في رفع العاديّ إلى المُقدَّس؟

لعلّ هذا هو امتحاني في ثنائيّة البيت والطريق. أمّا البيت، فلا يليقُ بـه إلّا المعنى الخالي من البلاغة. ولكـن، هل عدتُ حقاً؟ وهل عـاد أحد إلّا مجازاً؟ سأجـد صعوبة بالغـة إن حاولتُ الإمساك بأولـى المفـردات، للتأكد مـن صحة مكانتها فـي السياق، فقد اختلـط الواقعي بالأسطوري، والتبس البعيد على القريب. بيد أن النهر ليس هو الينبوع.

مِن هذا المـكان الجليلي، وُلدتُ مِن لغتـي تدريجيّاً، ولـم أكمل ولادتـي بعد، فلا فـرد يستطيع الاطمئنان إلـى جوابه الشخصي

عن سؤال كان جماعياً منذ البداية، منذ مأساة الاقتلاع الكبير... إلى ملهاة سلام لا يعتمد إلّا موازين القوى مرجعيَّة وحيدة. فماذا تفعل اللغةُ أكثر من الدفاع عن ثقافتها، عن ذاكرة جماعيَّة ومكان مكسور، وهوية؛ وعن عناد الأمل المُحاصرِ بالقنوط والتشكيكِ. فما من شيءٍ غير الخيال بقادر على إعادة تركيب الزمن المُنكسِر، أما الواقع، فهو كالتاريخ، مِن صُنع إرادة البشر القادرين على وضع الزمان الصحيح في المكان الصحيح.

كان هذا المكان كبيراً عليَّ حين كُنت صغيراً فيه. كان مَعْلَماً ومُعَلِّماً. فمنه أخذتني الحياة إلى أسئلتي الأولى وإلى اختباراتي الأولى. منه أُخِذتُ إلى زنزانتي الأولى... إلى امتحان حريَّتي الأوّل. ومنه ذهبت إلى قصائدي الأولى التي أخذتني، ما زالت، إلى عذاب غربة لا شفاء منها، مهما اطمأنَّ الشعر إلى قدرته على تثبيت المكان في اللغة، وإلى تشييد منطقة حُرَّة في أعالي الكلام.

مِن هُنا، من كفر ياسيف من الجليل، بدأ أول الطريق إلى وضع الهاجس الشخصي والسؤل الذاتي في مكانه من السؤال العام، واتّضح الوعيُ الأوّل بالتلاحُم التلقائي بين الذاكرة الجمعيّة والذكرى الشخصيَّة، حين كانت هذه القرية / البلدة تحمل من الإشارات والمعاني أكثر من مساحتها الجغرافية. فلم نتعلّم من المدرسة بقدر ما تعلّمنا من محيطها، من الصراع الملتبس الاسم على هويّة المكان وعلى هوية الكائن، من غاب منه ومن حضر. ومن وقف، مثلي، بين المنزلتين حاضراً غائباً. ولعلَّ أحداً لم يُسأل كما سُئِل كلُّ واحد منّا: مَنْ أنت؟

لم يكن الجواب في حاجةٍ إلى تعقيد: أنا ابن هذه الأرض وابن

تاريخها، لولا إلحاحُ الاقتلاع المدجَّجِ بالسّلاح وبالأسطورة على الزجّ بنا في معركة الصراع على شرعيّة الوجود، وجودنا. إذ كان يقترح علينا تبنّي رواية تاريخ آخر، يبدأ من الأسطورة ولا ينتهي إلّا بتفريغ التاريخ من محتوياته ومنّا. إذ، لم يكن لتاريخ هذه الأرض من عَمَلٍ إلّا انتظار امتلائها بأمس الآخر الأبدي!!

لم يكن ذلك يعني صراعاً على الحاضر وحده، بل على الماضي أيضاً، إذ لم يكن وجودنا هنا، إذاً، إلّا احتلالاً!! ولم يكن الموجود فينا أكثرَ من شبح زائر يقتضي تنظيفُ الأرض منه ارتكاب بعض المجازر بحقِّ البعض، ووضع بقيَّة الشبح في شاحنات الترحيل. أما النّاجون من المذبحة ومن الشاحنة، الصامدون الذين آثروا الموت على الرحيل، فسيصارعون طويلاً من أجل الحصول على إقامة دائمة في هامش المواطنة، وعلى مساواة شكليّة في حق الاقتراع على دين الدولة اليهودية. وهكذا لم تتمكن «واحة الديمقراطية الغربية» من إرجاء البوح بنزعتها العرقية، منذ البداية.

لم ينس أحد قصَّته، لا ماضِيَه ولا حاضره. ولم نكن في حاجة إلى انتظار المؤرخين الجُدد، لنحمِّل الدولة الإسرائيلية المسؤولية عن الظلم التاريخي الذي ألحقته بالشعب الفلسطيني، دون أن تعترف أو تعتذر، لتحسين مناخ السلام، على الأقل. لم ينسَ أحد قِصَّته، فما زال الدفاع عن حقوق المواطنة مرتبطاً بالدفاع عن حق العودة. وما زال اللاجئون في بلادهم لاجئين في بلادهم، وفي منأى عن أي تفاوض خارجي أو داخلي. فالمواطنة ليست بديلاً أو تعديلاً عن حقوق المواطنين، ولا حلاً لمشكلة اللاجئين في بلادهم.

إن للأقلية القومية ذاكرة جماعية، لها تداعياتها ومطالبها الثقافية

والحقوقيـة والسياسيـة، ودورها فـي وعي ذاتهـا، وفي تحديد سياسـة الدولة تجاهها، وتجاه قضية شعبها التي لن تتشظّى هويَّتهُ الوطنية إلى هويّات مبعثرة ومتنافرة، مهما ابتعدت مسيرة السلام أو اقتربت من جوهر السلام.

وفي هذا المكان الذي دَرَّبني على الربط بين المسألة الديمقراطية والمسألـة القومية من جهـة، وعلى التمهُّل فـي البحث عن حلّ نظـريّ أو عملـيّ للتوتُّر القائـم بين الجنسيـة الهُوِيَّـة، من أجل ترجيح سؤال البقاء في الوطن على أي سؤال آخر، من جهة ثانية، أشعـر بخشية خفيفـة وخفيَّة مـن تداعيات الانقلابـات الدولية والإقليميـة علـى طريقتنا في محاكمـة تجربتنا السابقـة بمعايير «الآن» الضاغطة، وخـارج سياقها التاريخي، فصوابُ فكرةٍ ما، كفكـرة العدالة الاجتماعية، وحق الشعوب في التحرُّر، وحقوق الإنسان، لا يقاس دائمـاً بنجاحها الآني، ولن تصبح أفكاراً بالية لأن أداة تطبيقهـا قد فشلت هنـا أو هناك. لذا، لا يحقّ لأحدٍ بأن يطالبنا بالاعتذار عن الإيمـان بمثل هذه القيم الإنسانيّة الخالدة. ولا يحقّ لأصحاب الخيار الصهيوني بأن يطالبونا بتقويمهم على أنهـم كانوا مستقبليين بعيدي النظر، لا لشـيء إلّا لأن المشروع الصهيوني نجح في احتلال المزيد من الأراضي العربية، واستطاع أن يجد منصبَ سفيرٍ إسرائيلي شاغراً في موريتانيا!

لكن شعوري بالعنفوان هنا أقوى من شعوري بالقنوط، وبالخشية من سقوط المعنى فـي البراغماتية المبتذلـة السائدة. فإن ملحمة الصمـود الطويلة على هـذه الأرض كانت أحـد العوامل الرئيسة التـي لم تـأذن للخرافـة الصهيونية الكبـرى «أرض بـلا شعب» بأن تعمِّـر طويلاً. وفي هذا الصمود اليـوم البطولي حافظ شعبنا،

هنا، علـى وحدة مكوِّنات هُوِيَّتـه القوميّة والثقافيـة على أرضه، وعلى إبقاء ملـفّ القضية الوطَنيّة الفلسطينيـة مفتوحاً، كما حرم المشروع الإسرائيلي من تحقيـق حلمه بإقامة دولة طاهرة العرق على حساب تطهير الأرضـ من شعبها الأصلي. وهكذا لم يَسْلم المشـروع من بـذور ثُنائيّة القوميـة، الأمر الـذي يعرِّض تجاهُلَه الديمقراطيـة إلى امتحان يومي، كما تعرِّض الديمقراطية الحرصَ على طهارة الدولة اليهودية، غير اليهودية ديموغرافياً، إلى امتحان آخر. لذا، لا يَسْلَمُ أحد، حتى المُنْتَصِر، من سؤال الهُويّة المُتوتِّر. فإما التحصُنِ في القلعة حرصاً على نقاء الهُوية، وإما الخروج إلى الأفق حرصاً على الحياة في المستقبل، حتى لو كان أحدُ شروطها انفتـاح الذات على الآخر، واختلاط الهُويَّة في ما ليس منها. فإذا كان من الطبيعي أن تخشـى الناس من الحروب، فإنه ليس مألوفاً ولا طبيعيّاً أن يتحدث أحد عن خطر السلام!

لستُ هنا لأذكِّر أحداً بقصَّته. بل لنتذكر معاً حكايتنا الجماعية... أيام كان الطريق صعب وأوضح. أيام لم تكن الكهرباء قد وصلت إلى هذا البلد، ولم يكن الحكم العسكري المباشر قد رفع قبضته الفولاذية عن أحد، ولم يسلم المُدرِّسون ولا الطلبة من المُلاحقة. أيام لم تكن الوطنيّة، ولا عكسها، مُجرَّد وجهة نظر. أيام لم نجد كتبـاً كافية للتعلم. أيام كان حاييم نحمان بياليك يطرد أبا الطيب المتنبـي، وأحاد هعـام يطرد ابن خلدون من برامـج التعليم. أيام كانـت «بياعر بخديره» ضروريـة أكثر من جحيـم دانتي. وأيام كان «يـوم الاستقـلال» هو المناسبة الوحيدة لزيـارة أنقاضنا بلا عقـاب. ذكرى تذكِّر بنقيضها. أيام كنا صغار السن كبار النفوس والمحن. أيام لم نعرف مـن هو المسيحيّ فينا ومن هو المسلم. لـم تَعْتَدِ الكنيسـة على الجامع ولم يستفزَّ الجامـعُ الكنيسة. أيام

كان الديـنُ لله والوطنُ للجميع. وأيام لـم نتذكَّر من سيرة صلاح الديـن إلّا تحريره بلادَ الشام والقدسَ من الصليبيين، ولم يكن في سيرته ما يصلح لإشعال نار الفتنة بين المسلمين والمسيحيين.

في تلـك الأيام، دلّتنـا كفر ياسيـف على بوصلـة الشمال، على أوَّل الوعـي، وعلـى أوَّل الطريق، وعلى أولـى الخطوات. على السجن الأوَّل، وعلى حرياتنا الصغرى، وعلى طموحاتنا الأولى وخياراتنا الصعبة، وعلى أوَّل الكتابة، وعلى ما يدلّنا على أننا جزء مـن جماعة قوميّة، أيـام كان انتماؤنا لمصلحة الشعب العامة، لا للعائلة أو القبيلة أو الطائفة.

هـل مرَّ أربعـون عاماً حقاً دون أن أنتبه إلى مـا فعل بي الزمن. لا أحـد يعود إلى مرآتـه الأولى إلا ليهرب من ذاتـه الأولى إلى ذاته الثانيـة. أو ليقفـز من وجهه إلى قلبه، ومن قلبـه إلى ماضيه. لكن الماضـي لا يصلـح للإقامة الدائمة، بل لزيـارة ضرورية، نُحاكِم خلالهـا أفعالنا، ونَجُسّ ما فـي الزمن من تاريخ، ونسأل: هل كُنّا جديرين بأحلامنا الأولى وأوفياء لأرضنا الأولى؟ أما أنا، فلعلي لا أستطيع الإجابة ، ولكني أحيل الأسئلة كُلَّها إلى هويتي الشخصية الوحيـدة: قصيدتي. أمَّا الزَّبدُ فيذهب جُفـاءً، وأمَّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض... وفي الشعر.

وهكـذا أجـد نفسي هنا. لـم أذهب ولـم أرجع، لـم أذهب إلّا مجازاً. ولم أَعُدْ إلّا مجازاً.

المنفى المتدرج(*)

لـم تنته الطريق لأقول، مجازاً، إن الرحلة ابتدأت. فقد تُفضي بي نهايـةُ الطريق على بداية طريق آخـر. وهكذا تبقى ثُنائيَّةُ الخروج والدخول مفتوحةً على المجهول.

كنت في السادسة من عمري حين خرجتُ إلى ما لا أعرف، حين انتصر جيشٌ حديث على طفولة لم يكن يأتيها من جهة الغرب إلّا رائحة البحر المالحة، وغروب شمس الذهب على حقول القمح والذرة. لـم تتحول السيوف إلى محاريث إلّا في وصايا الأنبياء. وانكسـرت محاريثنا في الدفاع عن طمأنينـة العلاقة الأبدية بين ريفيّين طيِّبيـن وأرضٍ لم يعرفوا غيرها ولم يولدوا خارجها، أمام حرب الغرباء المدجّجين بطائرات ودبابات وفَّرت لرواية حنينهم

(*) [شهادة نشرت في مجلة Geo الفرنسية في عددها المكرس لـ «فلسطين: رحلة في قلب شعب»].

البعيـد إلى «أرض الميعاد» شرعيَّة القوة. كان الكتاب يتغذى من القوة، وكانت القوة في حاجة إلى كتاب.

منذ البداية، صاحب الصراع علـى الأرض صراعٌ على الماضي والرموز. ومنذ البداية، كانت صورة داود هي التي ترتدي دروع جوليات، وكانت صورة جوليات هي التي تحمل حجر داود.

ولكـن ابن السادسة لم يكن في حاجة إلـى من يُؤَرِّخ له، ليعرف طريـق المصائر الغامضة التي يفتحها هذا الليل الواسع الممتد من قرية علـى أحد تلال الجليل، إلى شمالٍ يضيئـه قمر بدويّ مُعَلَّق فـوق الجبال: كان شعـب بأسره يُقتلعُ من خبـزه الساخن، ومن حاضـره الطـازج ليُزجَّ به فـي ماضٍ قادم. هنـاك... في جنوب لبنان، نصبت خيام سريعة العطب لناً. ومنذً الآن، ستتغيّر أسماؤنا. منـذ الآن سنَصيرُ شيئاً واحداً، بلا فروق. من الآن، سَنُدْمغ بختم جمركي واحد: لاجئون.

– ما اللاجئ يا أبي؟

□ لا شيء، لا شيء، لن تفهم.

– ما اللاجئ يا جدي، أريد أن أفهم.

□ أن لا تكون طفلاً منذ الآن!

لم أعد طفلاً، منذ قليل. منذ صرت أميِّز بين الواقع والخيال، بين ما أنا فيه الآن وما كان قبل ساعات. فهل ينكسر الزمان كالزجاج؟ لم أعد طفلاً منذ أدركـت أنّ مخيمات لبنان هي الواقع وأن فلسطين

هي الخيال. لم أعد طفلاً منذ مَسَّني نايُ الحنين. فكُلَّما كبر القمر على أغصـان الشجر حضرت فـيَّ رسائل مبهمة إلـى: دار مُرَبَّعة الشكل، تتوسطها تُوتَةٌ عالية، وحصان متوتر، وبرج حمام، وبئر. على سياجها قفيرُ نحل يجرحني مَذاقُ عسله، وطريقان معشوشبان إلى مدرسة وكنيسة، واسترسال يفيض عن لغتي...

هل سيطول هذا الأمر يا جدي؟

إنها رحلة قصيرة. وعمّا قليل نعود.

لم أعرف كلمة «المنفى» إلّا عندما ازدادت مفرداتي. كانت كلمة «العـودة» هي خبزنا اللغوي الجاف. العودة إلى المكان، العودة إلـى الزمان، العودة من المؤقت إلى الدائـم، العودة من الحاضر إلى الماضي والغد معاً، العودة من الشاذ إلى الطبيعي، العودة من علـب الصفيح إلى بيت من حجـر. وهكذا صارت فلسطين هي عكس ما عداها. وصارت هي الفردوس المفقود إلى حين...

حين تسلَّلنا، عبر الحدود، لم نجد شيئاً من آثارنا وعالمنا السابق. كانت الجرافات الإسرائيلية قد أعادت تشكيل المكان، بما يُوحي بـأن وجودنـا كان جزءاً من آثـار رومانية، لا يُسمح لنـا بزيارتها. وهكذا لم يجد العائد الصغير إلى «الفردوس المفقود» غير ما يشير إلى أدوات الغياب الصلبة، والطريق المفتوحة إلى باب الجحيم.

لـم أكن في حاجة إلـى مَنْ يؤرِّخني، أنا الحاضـر الغائب. ولكن المخرجة السينمائية سيمون بيطون ستذهب بعد خمسين عاماً إلى مسقط رأسي لتصوير بئـري الأولى وماء لغتي الأول، وستصطدم بمقاومـة من سكان المـكان الجـدد، وتسجِّل هـذا الحوار مع

المسؤول عن المستوطنة الإسرائيلية:

– لقد وُلد الشاعر هنا.

□ وأنا أيضاً. حين وصل أبي إلى هنا لم يلقَ سوى الأطلال. أعطونا خياماً ثم أكواخاً. أنفقتُ عشرين عاماً في بناء بيت لي، وتريدينني أن أعطيه إياه؟

– ما أريده هو أن أصوِّر هذه الأطلال، أطلال ما تبقى من بيته. إنه في عمر والدك، ألا تخجل؟

□ لا تكوني ساذجة، إنهم يريدون حقّ العودة.

– أتخاف من أن يحصلوا عليه؟

□ نعم!

– وأن يطردوك كما طردناهم؟

□ أنا لم أطرد أحداً. أنزلونا من الشاحنات، وقالوا لنا: ههنا تدبروا أمركم. لكن من هو درويش هذا؟

– إنه يكتب عن هذا المكان، عن شجرات الصبّار هذه. عن هذه الأشجار، وعن البئر.

□ أية بئر. هناك ثماني آبار. كم كان عمره؟

– ستّ سنوات.

□ وعن الكنيسة؟ هل يكتب عن الكنيسة؟!

كانت هناك كنيسة لكنها دُمِّرت. أبقوا على المدرسة من أجل البقرات الحلوبات والعجول.

– حوَّلتم المدرسة إلى إسطبل؟

□ لِمَ لا؟

– صحيح، لِمَ لا بالنهاية؟ هم كان عندهم حصان. هل ما زال هناك بعض أشجار الفاكهة؟

□ طبعاً، حين كنا لا نزال أولاداً اعتشنا على ثمارها: تين وتوت وكل ما خلق الله. إنها كل طفولتي تلك الأشجار.

– وطفولته أيضاً.

لم تكن صحراء إذاً، ولا خالية من السكان. يولد طفل في سرير طفل آخر. يشرب حليبه. يأكل توته وتينه، ويواصل عمره، بدلاً منه، خائفاً من عودته، وخالياً أيضاً من الإحساس بالإثم، لأن الجريمة من صُنع أيدٍ أخرى ومن صناعة القدر. فهل يتسع المكان الواحد لحياة مشتركة؟ وهل يقْوى حلمان على الحركة الحرة تحت سماء واحدة، أم أن على الطفل الأول أن يكبر بعيداً وحيداً بلا وطن وبلا منفى، لا هو هنا ولا هو هناك.

سيموت جدي كمداً، وهو يطل على حياته التي يعيشها الآخرون، وعلى أرضه التي سقاها بدموع جلده ليورثها لأبنائه. ستقتله

رائحـة الجغرافيا المنكسرة على أطلال الزمـان، لأنَّ حق العودة مـن رصيف الشارع إلى الرصيـف الآخر، لا يتحقق إلا مع مرور ألفي عام على غياب يكفي لتطابق الخرافة مع الحداثة.

أمـا أنا، فسأبحث عن «أخوّة الشعوب»، في حوار لا ينتهي، عبر باب الزنزانة، مع سجان لا يكفُّ عن الإيمان بأني غائب.

– مَنْ تحرس إذاً؟

□ نفسي القلقة.

– مم أنت قلق يا سيدي؟

□ من شبحٍ يطاردني. كلما انتصرتُ عليه ازداد ظهوراً.

– ربما لأن الشبح هو أثر الضحية على الأرض؟

□ لا ضحيَّة سواي. أنا الضحية.

– ولكنـك القويُّ. القادرُ، السجَّان، فلماذا تنازع الضحية على مكانتها؟

□ لأبـرِّر أفعالـي، لأكـون على حـق دائمـاً، لأصل إلـى مرتبة القداسة، ولأنجو من داء الندم.

– ولماذا تحتجزني هنا. هل تظنني شبحاً؟

□ ليس تماماً. بيد أنك تحفظ اسم الشبح.

لعـل الشعر هو حافظ الاسم بجنوحه الدائـم إلى تسمية العناصر والأشيـاء الأولـى فـي لعبـة لا تبـدو بريئة لمـن يُسَيِّـجُ وجوده بالاستحـواذ المطلـق على المـكان وذاكرتـه، علـى التاريخي والغيبـي معاً. لعلَّ الشعر لا يكذب ولا يقـول الحقيقة أيضاً شأنه شأن الحلم. ولكـن تجربة الاعتقال المتكررة أضاءت لي الوعي بجماليـةِ الشعر وجدواه أو فاعليتـه. لا، لم يكن الشعر لعبة بريئة ما دام يدُلُّ على كائن كان ينبغي له ألّا يكون.

لكن المنفـى ينبت مرة أخـرى كالحشائش البريـة تحت ظلال الزيتـون. وعلى الطائر وحده أن يُوَفِر للسماء البعيدة نقطة العلاقة بأرض أُخرجتْ من خصالها السماوية.

لا تتمتـع جغرافيات كثيـرة بوفرة التعدد الجمالـي الذي تمتاز به أرضنا العاجـزة عن إجراء الانفصال الضـروري عليها بين الواقع والأسطورة. كل حجر هنا يروي، وكل شجرة تحكي عن الصراع بين المكان والزمان. كلما ازدادت وطأة الجمال ازداد إحساسي بخفَّة الغريب: أنا حاضر وغائب وسجين. نصف مواطن ولاجئٌ كاملُ الحرمان. أذرع شـوارع حيفا، على سفح الكرمل الموزع بيـن البحر والبرّ، وبي عطشـ إلى توسيع رقعـة الأرض بحريّة لا أجدها إلّا في قصيدة تأخذني إلى الزنزانة. منذ عشر سنين لا يؤذن لي بالخروج من حيفا. ومنـذ اتسعت دائرة الاحتلال الإسرائيلي عـام 67 ضاقت مساحة إقامتي: لا يـؤذن لي بمغادرة غرفتي منذ غروب الشمس حتى شروقهـا. وعليَّ أيضاً أن أثبت وجودي في مركـز الشرطة فـي الساعة الرابعة من بعد ظهـر كل يوم. أما ليلي الخاصـ، ليلي الشخصي فلـم يعد لي: من حق رجـال الأمن أن

يطرقوا بابي في أية ساعة شاءوا، للتأكد من أنني موجود!

لـم أكنٍ موجوداً. كنت أرغم على العـودة إلى المنفى التدريجي تدريجياً، منذ اختلطت حدود الوطن والمنفى في ضباب المعنى. وكنتُ أحدس بأن في وسع اللغة أن ترمِّم ما انكسر، وأن توحِّد ما تشتت. ولعل «هُنا» يَ الشعرية، المتحولة من أفق إلى قيد، كانت في حاجة إلى توسيع منطق البعيد.

لكن المسافة بين المنفى الداخلي والخارجي لم تكن مرئية تماماً. كانت مجازية ما دامت هذه البلاد، معنىً، أكبر من مكانها. وفي المنفى الخارجي أدركتُ كم أنا قريب من بعيد معاكس، كم أنَّ هناك كانت هنا. لم يعد أيُّ شيء شخصياً من فرط ما يُحيل إلى العام. ولم يعد أي شيء عاماً من فرط ما يمسُّ الشخص. ستطول الرحلة على أكثر من طريقٍ غالباً ما يُحْمَلُ على الكتفين. ستتأزم هوية مُحَرَّمة تُسْتَعْصَى علىً التلخيص بـ: هجرة وعودة. ولا نعرف أينا هو المهاجر: نحن، أم الوطن. والوطن فينا بتفاصيل مشهده الطبيعي، تتطور صورته بمفهوم نقيضه. وسيُفسَّرُ كل شيء بضده. سينمو كثيرٍ من النرجس الجريح على أرض الهامش المؤقتة. ستحل اللغة محلّ الواقع، وتبحث القصيدة عن أسطورتها في مجمل التجربة الإنسانية، وسيصير المنفى أدباً، أو جزءاً من أدب الضياع الإنساني، لا لتبرد نار التراجيديا الخاصة بل لتدخل في تاريخها البشري العام. لكن الإسرائيليين سيطاردون هذه المكانة. سيقولون إنهم هم المنفيون. هم المنفيُّون الذين عادوا، وإن الفلسطينيين ليسوا منفيين، بعدما عادوا إلى العيش في مجالهم العربي! ستجرَّد الضحية مرة أخرى من اسمها. فكما أن من حقَّ الضحية الخاصة أن تخلق ضحيتها، كذلك من حقِّ المنفيّ الخاص أن يخلق منفيَّه!

سيُتـاح لي، بعد ما يزيد على ربع قـرن، أن أرى جزءاً من بلادي، غـزة التي لـم أرها مـن قبل إلّا فـي قصائد شاعرهـا الراحل معين بسيسو الذي جعلها جنَّته الخاصة. الطريق إليها عبر صحراء سيناء موحشـ، يُسامره نبت صحراوي هنا وهنـاك، نخيل حار ودبابة تذكاريـة، وبحر علـى الشمال. أمـا مشاعري فقد كانـت مُرتَّبة بعقلانيـة باردة حينـاً، ونهباً لخبرة مَنْ يعـرف الفارق بين الطريق والهدف حيناً آخر. تكاثر النخيل فجأة في العريش. ها أنذا أقترب مـن المجهول الـذي تمنيت لو يطول. ولكـن سلطة الوعي على القلب تتراخى تدريجياً: هيّا بنـا قبل أن يهبط المساء. انتظر، قال لي صاحبـي وزير الثقافة، فالوطن في متناول اليد. والوطن هو ما تحسّ به الآن. هو هذا التوجُّس وهذا الاضطراب. قلت: لعله هو هذا المساء الذي يتأهب فيه الحلم ليصبح أكثر واقعية.

لا أحلم الآن بشيء. من هنا تبدأ فلسطين الجديدة: من هذا الحاجز الإسرائيلـي. سيارة جيب عسكرية، علـم، وجنديّ يسأل المرافق بعربيـة رخوة: شُو معك؟ فيقول لـه: معي وزير، وشاعر. أتحاشى النظر إلى كاميرات المصورين الباحثة عن فرح العائدين إلى الجنة. وتلسعنـي أضواء المستوطنات وحواجـز الجيش الإسرائيلي على جانبي الطريق. ولعلَّ أول ما يفاجئني هو انكسار القوام الجغرافي وتشوُّه الخريطة. ولكن للمفاجأة جوابها الجاهز: هذه هي البداية. غزة وأريحا أولاً، فنحن في أول الطريق، في أول الأمل.

لـم أتمكن مـن الوصول إلى أريحـا. فكيف أصل إلـى الجليل، وطني الشخصي؟ كان ذلك مشروطاً بشروط قال لي إميل حبيبي إنه يخجل من نقلها. ولكنه لم يعرف أنه سيرحل بعد عامين، وأن جنازته ستوفِّر لي فرصـة حزينة لأفرح بعودة قصيرة إلى الجليل،

إذ حصلت علـى تصريح لمدة ثلاثة أيام للمشاركة في تأبين إميل حبيبـي ولزيارة بيت أمي. وهناك احترقتُ بلهفة العودة، فمن هنا خرجـت وإلى هنا أعود. ورأيتُ كيف يستطيع المرء أن يولد من جديد: كان المكان قصيدتي.

لم ينقصني شيء لأحقِّق موتي المشتهى في ذروة هذه الولادة. بيد أني، وأنا أحرم من اكتمال الدائرة، كنتُ أدرك أن انسلاخ الأسطورة عن الواقع ما زال في حاجة إلى مزيد من الماضي، وأن تحرُّر الواقع من الأسطورة ما زال في حاجة إلى مزيد من المستقبل. وأما الحاضر، فلم يكن أكثر من زيارة يعود الزائر بعدها إلى توازنه الصعب بين منفى لا بدَّ منه وبين وطن لا بُدَّ منه. فلا يُعرَّف هذا بعكس ذاك، ولا ذاك بنقيض هذا. ففي كل وطن منفى، وفي كل منفى بيت من شِعْر.

ولم أعد بعد. لم تنته الطريق لأقول مجازاً إن الرحلة ابتدأت.

في تحرير الجنوب(*)

لا تحتـاج البلاغةُ إلى أكثر مـن زيارةِ مصدرها الأول، لتُدركَ كم أنهكَتْهـا جماليّاتُ الحزن على واقع، أدّى بها الإفراط في وصفه الواقعـي، إلى الإحبـاط من جهـة، وأدَّى بها التأمُّـل العميق في حركته إلى إحياء الأمل، من جهة ثانية. ومنذ البدء، لم يكن للقول من معنى إلّا إذا كان حافزاً للفعل.

هكذا يحتفل شعرُ الجنـوب اللبناني، شقيق الشمال الفلسطيني، بانتصار الفعل على واقع الاحتلال، وبانتصار القول الشعري على اغتـراب اللغة عن مجالهـا الحيوي، وبعودة الخيـال إلى أصله، إلـى الواقـع... ليصير لبيت الشعر بيتٌ مـن حجر. ومن دون أن نَسْأل: «وماذا عن اليوم التالي؟» يأخذنا هذا العيد النادر إلى آفاقٍ

(*) [أُلقيـت هذه الكلمة في احتفال جامعة بيرزيـت، بتحرير جنوب لبنان من الاحتلال الإسرائيلي 2000].

مفتوحة على المعاني. إذ، لا أحد يندم على الحرية.

لم يفطَن العرب إلى ما فيهم من عَطَشٍ إلى الفرح كما يَفْطَنُون الآن، لقد اتخذ الأملُ مكانةَ العَوْرة التي تُغَطى بكثافة الحجاب وبسيولة الخطاب. لكن قطرةً من أرضِ الندى كانت كافيةً لانفتاح الشهيّة العاطفية، وربما الفكرية، على فَرَحٍ جماعيّ وحّد فيها وَعْيَ الهزيمة القابلةِ لأن تنكسر، ووَعْيَ المقاومةِ القادرةِ على أن تنتصر.

قد لا يصلح المثال اللبناني لأن يحتذى، بحذافيره، في كل مكان. وقد لا تكون المقارنةُ بينه وبين ظرفٍ آخر، شديدِ التعقيد، أكثرَ من وليمة لتعذيبِ الذات بلا سبب. بيد أن البديهية التي لا تُبْتَذَلُ بمرور الزمن، تُعَلِّمنا أن تحرُّرَ الإرادة شرطٌ لتحرير الأرض. وأنَّ في أعماق كل شعب طاقة روحية قادرة على ابتكار بلاغتها الوطنية التي تتلاءم مع الظرف الخاص والمحدّد، لذلك نُصَفِّق لبنان.

نُصَفِّقُ للبنانَ الجميل، نصفِّق له بلا تَوْرِيَةٍ أو تأويل. كنا نحبّه، ونحبّه اليوم أكثر. لا لأن ذكرياتنا تمشي، هناك، على غير هدى في الجنوب الذي اختلط دَمُنا بعشبه وترابه، ولأن شهداءنا الذين قادَنا دَمُهم إلى هنا، هم أزهارُنا السماويَّةُ الباقيةُ هناك... بل لأنه انتصر على خرافته: على ضعفه الفلكلوري المُراوِغ. وانتصر على أسطورة الاحتلال الإسرائيلي الذي لا يخضع للضغط. ولأنه أحيا في مرآة الاحتلال صورةَ سايغون المنهارة، التي فتحت تشوّهاً في صورة الذات الإسرائيليّة عن ذاتها.

ونحبُّ اليوم لبنان أكثر، لأنه انتصر أيضاً، ولو إلى حين، على ثقافة الهزيمة المتفشِّية في مواعظ النُخُب العربية التي حوّلت

مفهومي الحرية والضحية إلى مادة يوميَّة للسخرية، والتي تتربّص —منذ الآن— بتداعيات اليوم التالي المأمولة، عساها تعيد إليها إنتاجَ التبشير بعَبَثِيَّة الاعتراض على قَدَرٍ إسرائيلي لا يُرَدّ!

كل ما في لبنان اليوم جميل: عودة أهل الجنوب إلى أرض الجنوب. فجرٌ واسع بلا احتلال. مساء آمِن على الشرفة... بلاغةُ العجائز في التَّشَبُّه بالشجر العتيق. تحطّم سجن الخيام أو الباستيل. تعميمُ النصر على جميع طوائف الشعب اللبناني وقواه السياسية، وعلى قصر بعبدا أيضاً. الأرُزُّ المنثورُ على المُحرَّرين وعلى المُحَرِّرين، والأرزُ القادم من الشمال إلى الجنوب. تبادل الشتائم على جانبي الحدود الدولية. سخرية الأطفال ممّن كانوا يروِّعونهم.

وكُلُّ ما في لبنان اليوم جميل: انتقال الهامش إلى المركز. تَبَلْوُرُ الهوية بوعي جماعيّ أقوى من الفسيفساء. منحدرات الجبال والتلال، والليلُ النهاريُّ على قطيع الماعز الجريء، والعشبُ اليابس في طبيعة لم تكترث بالغزاة، وآثار الاحتلال أيضاً جميلة حين تتحوَّل مُقْتَنيات للمتاحف: دباباتٌ وآليات وغنائمُ حربية تشير إلى أنَّ احتلالاً ما كان هنا، وفرَّ قبل الفجر، دون أن يجد الوقت الكافي لارتداء ملابسه الفولاذية.

لكن الجنود الإسرائيليين فرحون هم أيضاً. نعم. قد يفرح المرء بالهزيمة إذا كانت هي الطريق الوحيد إلى السلامة، وإلى اللحاق بما تبقّى له من حياة. أمّا القادة الذين سَمّوا احتلالَ جنوب لبنان انتصاراً للأمن الإسرائيلي، فإنهم سَمّوا الانسحاب انتصاراً أيضاً، لا لشيء إلّا لمعالجة النرجس الجريح. وهكذا، حَمّلوا صَنيعتهم «جيش لبنان الجنوبي» المسؤولية عن الانهيار، فانخدشت

كرامة «حلفاء الشيطان» وقالوا للشيطان: أنت الذي خان.

تَتَكـرَّرُ الأخطاءُ التاريخيـة لأن أحداً لا يتعلّم إلّا من تجربته. فهل يتعلَّـم أكاديميّو الاحتـلال الإسرائيلي، ذوو الخبـرة الطويلة في هـذا المضمار، شيئاً مـن تجربتهم التي دامـت حوالي ربع قرن في جنوب لبنـان؟ في مقدمة هذا الشيء البسيط: أن الزمن، زمنَ الاحتلال، لا يُضَيِّعُ حقَّ أحدٍ في العودة إلى بلاده، ولا يُصَنِّعُ حقاً مضـاداً يدعي أنه «الأقدم والأحدث» معاً، مهما نجحت الوقائع الجديـدة في تعديـل الجغرافيا والديموغرافيا، ومـن هذا الشيء البسيط: أن الاحتلال هو الأب الشرعي للمقاومة.

فَهَـلْ توفِّر هـذه التجربةُ فرصـةً لعـودة الإسرائيلـي الهادئة إلى محاسبة الذات، التي أدمنت الخروج عن حدودها، وهل توصله إلـى التساؤل عن مـدى تحمّله نفسَهُ العليـا المثقلةَ بالاستثناءات والخصوصيـة، والتي لا تكفُّ عن مطالبـةِ الآخرين بالتطبيع مع حقِّهـا فـي الهيمنة والتعالي علـى التاريـخ، دون أن تجد الوقت لإقامـة علاقات طبيعية عادية مع ذاتهـا، لأنها منهمكة في حشر الآخر في ما تحدِّده له من «آنٍ، وهنا».

ليـس هنالـك نصر نهائـي ولا هزيمة نهائية، فهـذان المفهومان يُتْقنـان لعبـة التنـاوب والاحترام المتبـادل، لكي يكمـل السيِّدُ التاريخُ حركته اللانهائية. المهم هو: ماذا يفعل المنتصر بالنصر، وماذا يصنـع المهزومُ بالهزيمة. ولعلَّ بعضـ الانتصارات أخطر علـى البعض من الهزيمـة، لأنه يُعْفيـه من ضـرورة الإصغاء إلى صـوت الزمن. لقد انتصرت إسرائيل على العرب أكثر من طاقتها

علـى تحمُّل تبعات نصرها، إذ صار دماغهـا العسكري أكبر من جسدهـا، فأصبحت أسيرةً لفائضـ قوة جشعة، دون أن تحسب أيَّ حساب لقدرة المقاومة الشعبية على تحييد هذه القوة.

هـذا ما فعلته الانتفاضةُ الفلسطينية أمس. وهذا ما فعلته المقاومة اللبنانية اليوم. لقد أرغمت الأُولى إسرائيل على الاعتراف المتأخر بوجود الشعب الفلسطيني وعلى الانسحاب، أو إعادة الانتشار، من جزء من الأرض الفلسطينية المحتلة. وأرغمت الثانيةُ إسرائيل علـى الانسحاب من جنوب لبنان لأنها لم تعد قادرة على تحمّل ثمن الاحتلال، لا لأنها انتبهت فجأة إلى قرارات مجلس الأمن. وهكذا، فإن الدولةَ التي لم تَكُفَّ عن القول إن العرب لا يفهمون غيـر لغة القوة، هـي الدولة نفسُها التي يقـول انسحابُها إنها هي نفسَها لم تفهم غير لغة القوة.

إن سـؤال اليـوم التالي عمَّـا سيفعل اللبنانيـون بانتصارهم بعدما أنجزت المقاومةُ المسلحةُ برنامجها الوطني، وعن مدى انسجام برنامجهـا الاجتماعـي مع متطلبـات المرحلة اللبنانيـة القادمة، وعن تداعيات الانسحاب المحلية والإقليمية، وغيرَهُ من الأسئلة السهلة والصعبة، لن يُوقفَ عدوى الأمل الكبير الذي أيقظه البنانُ الصغير في قارةٍ عطشى إلى الحرية والديمقراطية.

لقـد استعادتْ ثقافـةُ المقاومة، بمعناها الواسـع، بعضَ أسلحتها الفكريـة التـي صادَرَتْها برغماتيَّـةٌ مُبْتَذَلَـةٌ لا تميِّز بيـن التسوية والسلام، ولا توازن بين الدفاع عن الحقوق وبين إدراك الممكن!

وأمـا السؤال عما سيفعـل الإسرائيليون بمـا أصابهم في جنوب

لبنـان، فإنه منـوط بنوعية استخلاص العبرة. فـإذا كانوا يعتبرون الانسحاب نصراً، فلينتصروا إذاً في سائر الجبهات... فلينسحبوا من الضفة الغربية ومـن القدس العربية ومن الجولان. فلينسحبوا منتصريـن، أو فلينتصروا منسحبين، فلا مشكلـةَ لنا مع التسمية. ومـاذا لو انتصر الكائـن البشريُّ على حماقته؟ إنـه بدايةُ الرشد، ومقدِّمـةٌ واعدةٌ بعقـد السلام الطبيعي مع الـذات. فقد آن للعقل الإسرائيلي المدبِّر أن يتحرر من عقدة التفوق ومن عقدة الخوف، اللتيـن تضعان السلام لنا بديلاً للتحـرر، ورموز الأشياء بديلاً عن الأشياء، والاحتلال العلني أو المبطن شرطاً لِقبول التسوية.

إن اختيـار الفلسطينييـن طريقَ السلام هو اختيـار لا تراجع عنه، لأنـه مرتبطٌ بمصلحتنا الوطنيـة العليا ومُسَلَّـح بتقاليدنا النضالية الغنيـة بالتجـارب. فليس السلامُ هبـةً من أحـد، ولا هو عطلة نهايـة الأسبوع. إنه معركة قاسيـة يقودها وعيُ مقاومة الاحتلال والتبعية، ووضوحُ الهدف الوطني في الاستقلال والسيادة.

فمـا دامـت ثقافـةُ المقاومـة جزءاً مـن نسيـج المجتمـع، فإن الانسحاب ممكن...

وما دام الانسحاب ممكناً

فإن السلام مكن،

ولا تحتاجُ البلاغةُ إلى بليغ!

II- أكثر من وداع

رسالة الغائب إلى الغائب(*)

غائبـاً آتي إلى غائب، فلا أدري إن كنـت هناك أم هنا، ولا أدري هـل جسدي هـو كلامـي أم كلامي هـو جسـدي. ولكنني في الحالين غائب!

لا صـورة للمعنى بلا مبنى. ولا أرض للقصيـدة غير تلك الطعنة التي تحفرها السماء، بقرن غزال، على حافة الأرض.

هل دخلت من هناك؟ أم خرجت إلى ما أنت فيه، بحثاً عن أمثالي العائدين في عربات المهاجرين إلى صورتهم وهي تكبر وحدها، في الليالي القديمة، دون أن تنتبه إلى تدخل الشبح أو الشاعر.

ولكـن، لماذا تفتـح أبواب التأويـل على مصاريعها لهـذا التاريخ المهلـك من مصارع العشاق؟ أليس فـي تلك الطريق الموغلة في

(*) [في ذكرى توفيق زياد].

القدم وفي الخرافة، بين أريحـا والقدس... ما يكفي لنتخلص من وطأة الأساطير، ولنخلو قليلاً إلى ضجر الرصيف وموهبة التدرب على عطلة الصيف، وعلى رائحة اليود القادمة من بحر بلا قراصنة؟

فلتغفـر لـي، إذاً، غيابـي عـن الواقعـي لأغفـر لك ذهابـك إلى الأسطـوري، فيكـون لحضـوري هذا، في ما تركـت من غياب ساخن، لسعة اللقاء بأمس لاحق، لا لوعة الندم على غد سابق.

ولتغفر لي ثانية، أني أوسع –لأكون قريباً من الأرض– ثنايا ظلك علـى الظل، وأجلـس قليلاً في ما يبدو لي أنـه شكل لي، لك، أو للشكل!

فكيف تحط الغيمة على حجر دون أن تجرحه، ودون أن تتلاشى فرحاً صوفياً في أرض صغيرة كحبة السمسم، وكبيرة كاللـه يؤمها الأنبياء، والغزاة أيضاً، من كل لغة ومن كل خطيئة، ليصغوا إلى ماء اللـه في حصاها من جهة، وإلى ما يحول هذا الماء إلى نبيذ أو دم، من جهة أخرى.

تلـك هي حسرتي، في ساعـة العصر هذه، حيث أخرج من ذاتي إليك، بسنونو حنين يشبه الكلمات. فأراك وقد خرجت من ذاتك إليَّ، بكلمات هي إلى الحجل أقرب، طيفاً يستضيف طيفاً، على هواء يتدلى علينـا من سماء أليفة وخفيفة برسالة سيدنا الناصري، وهـي تهدي الجلاد، قبل الضحية، لا لشيء... إلّا لأن الجلاد لا يعلم. ولأنه خير للضحية أن تعلم جلادها من أن تتعلم منه.

وأما نحن الذين لم يتخلوا عن ثالوثهم الأرضي المقدس: الحرية،

والمحبة، والسلام، ففـي وسعنا أن نواصل حركة المعنى العابرة للزمن، والدفاع عـن سيرة العشب فوق القـلاع القديمة، وعما تبقى فينا من أرض وسماء.

ولا شأن لي ولك، ونحن في مضيق الوقت هذا، في طلب مساواة عصيـة بيـن ضحية وضحية، وفـي موازاة نوعية عـذاب إنساني بكميـة عـذاب إنساني مقابل، فتلك مجادلـة لا تنتهي بنا إلّا إلى العبث أو الخطأ.

بيـد أن ما يجـرح طيفك وطيفي في مضيق المـكان هذا، هو أن يظـلا مطالبين بالانفصال أكثر عمـا كان، وعما هو كائن، وعما سيكون، أو بالتطابق مع صورة يرسمها الآخر لنا، بقوة اللاهوت والسيـف معاً، وفقاً لموازين قوى تتحول إلى شريعة من حقها أن تنطق «ابن البلـد» برواياتها عن الحقيقـة، كأن تؤرخ لغربته على الأرض، أرضه، منذ بدء الخليقـة... وكأن تطالبه بالاعتذار عن وجود ما كان له أن يوجد، وعن هوية لم يكن من حقها أن تولد!

ليس ذلك هو سؤال الغريب للغريب، لا غريب أبي حيان التوحيدي، ولا الغريـب فيك أو فيَّ. ولكن صوتاً ما فينا سيقول لنا: إن لم نكن قادريـن على العودة إلى ما كنا، فلنذهب معاً إلى ما نريد أن نكون، لأن للتاريـخ مجـرى، وإن لم تكن لـه دائماً غايـة واضحة، ولأن للضحايـا حياة أخرى، هنا وفينا، حيـاة تعلمنا الثأر من قوة السيف بتحويـل السيوف إلى محاريث، وبانفتـاح الهوية على الهوية، فلا هويـة تحيا مـن ذاتها المنغلقـة على ذاتها وعلـى ثباتها. فتلك هي «عبقرية الغيتو». وأما المألوف الإنساني، وهو غاية البشر الساعين إلـى تطوير الإنساني فيهم، لتصبح التجربـة الإنسانية إنسانية حقاً،

فلا يتحقق إلّا في خروج الذات الطوعي إلى الآخر.

وهذه هي أرضك، أرض الذات والموضوع أرضك، وينبوع الهوية الإنسانية، الزمنية والروحية، المتعددة في الماضي الثابت وفي الحاضر المتأزم، وفي الغد المفتوح، أرض البداية السحرية المشرعة على بدايات لا نهاية لها. من هجرة وبقاء، من اجتثاث وانبعاث، من سبي وعتق، من غرب وشرق، وهي ما هي عليه، أرض أرضها وسمائها، وأرض شعبها الصابر القادر على أن يكون ما هو عليه، من صلابة الجليل ومراوغة الأقحوان على طريق الربيع، وعلى ثياب الفتيات الخارجات إلى مرج بن عامر، والقادر على أن يكون واحداً في جماعة وجماعة في واحد، وحارساً لعلاقة لا تنفصم بين هويته وهوية الأرض.

أليس هذا هو صوتك، المعلق على أغصان الشجر وعلى ساحات الذاكرة الجماعية، منذ ربطت معركة هذه البقية الباقية من أبناء شعبك، من أجل البقاء والتعبير الحرّ عن الهوية الوطنية والثقافية والمساواة والتعايش المتوازن، بحق شعبها في العودة وتقرير المصير الحرّ والاستقلال، ليكون للسلام الحقيقي جدول أعمال واقعي، وأرض صلبة للتعايش والتسامح؟

هذه هي أرضك، أرض السلام المفقود، وأرض السلام الموعود في نهايات نفق رأيت الضوء في آخره، أمامك. ولم تشهد إلّا صواب الطريق، وصواب الفكرة التي لم تقسها بنجاح القوة الآني في فرض فكرتها المضادة... فقد يصلب المسيح إلى حين. وقد يرفع سبارتاكوس على سنة الحراب. ولكن روما أعيدت إلى رشدها!

فليس سلام السادة والعبيد إلّا سلاماً عابراً كسحابة صيف. أما سلام الحرّ مع الحرّ، وسلام السيد مع السيد، فهو المطر المشترك على جفاف الأرض المشتركة، فليس في الغد ما يكفي من الوقت إذا لم يكن الحاضر ملكيتنا المتساوية.

فمن أنت، من أنا؟

لا عرافات ماكبث.

ولا سؤال هاملت.

بل رائحة المريمية في شاي أهلي، وفي ناي الغريب، هي ما يحاصرني منذ عشرات السنين.

وهكذا لم نذهب، ولم نعد إلّا في ما يجعل القصيدة تكويناً على تكوين، وإن اختلفت طريقة الشاعر في الوصول إلى الفاعلية الجمالية. ولكن ما يجمعنا في طريقنا الواحد، من البيت إلى العالم، هو الاحتفاظ بقدرة الحدس على إبقاء مغامرة الكشف طريقاً، والطريق مغامرة كشف. دون أن يتمكن قطّاع الطريق من نهب اللغة أرضها، أو نهب الأرض لغتها. لذلك كان علينا أن نشير، منذ البداية، إلى نار القبيلة المشتعلة على أعالي القافية!

ولكن الشاعر يعمل، وحده بلا علماء آثار وأجناس ومؤرخين وحرّاس. يعمل وحده، بقليل من العشب اليابس والملح والغيوم، لا ليجعل المستقبل القريب أقل بعداً فقط، ولا ليجعل الماضي البعيد أكثر قرباً أيضاً، بل ليتمكن مما هو أبسط: ليتمكن من إعادة سقف عالمه الشخصي المنهار بين يديه إلى ارتفاع

الشجر، مشيراً بطريقته الخاصة إلى أن وجوده ما زال موجوداً، وإلى أنه هو الذي يعبّر عن ذاته، لا شخص آخر يحتلها برضاه!

وهـذه هي أرضك، قد تمنحني ليلة من جسدها على مهب حب قديم. وقـد لا تفعل، فأمضي إلى ليلتي المنتقـاة من حبر المتنبي المشـعّ على منفـى لا يعذبني فيه إلّا أنه غيرهـا. وأما المهاة، بما حولهـا من صيّادين باكيـن من نجاتها، فهي ابنـة ألفاظنا الملقاة على رائحة الماء.

أذلـك هو نعيـم الغريب، أم تلـك هي الجحيم، بيـت من الشعر شارد بلا بيت؟ لك أم لي هذا الجناز المفتوح بلا بداية ونهاية؟ أم للشهداء الذين لم يكبـروا أبداً، فلم تتغير وجوههم ولا أحلامهم تغيـرت، فأيـن تفعـل القصيـدة فعلها: فـي القلب وهـو يقفز، كالـدوري الشقيّ، على مشهده الحـرّ، أم في الوجه وهو يسترد نظرته الأولى إلى القمر؟

أمـا وأنت من أنا، وأنا مـن أنت، فما علينا إلّا أن نأخذ العبارة من إغواء الاستعارة ونعيدها إلى أمها.

فلا تمض، أيها الشاعـر، إلى ما هو أبعد. فالبعيد هو هذا القريب. ليس للأَرض أب سوى اللـه. ولكن للأرض أماً واحدة هي: أرضنا!

وها أنذا أمامك. قد أرى لغتي على الأشجار دانية، فأهمس قرب هـذا البُعد: كنت أبحث عـن موطئ في المـكان وعن ملجأ في الزمـان، ولكنني أبحـث الآن عن بلدي في العبـارة. ألم يبقَ منا سـوى ذكريـات الحجارة عنـا، فخذ من يدي مفـردات الحنين

لآخذ من يدك الماء، وأحمل مزامير قلبي لأحمل هذا الهواء على كاهلـي مـن سماء إلى أختهـا، مثلما يحمل الموتـى أساميهم. يا أخي الناصريّ، تطلّع إلى شعبك وهو يحمل عنك الرسالة، رسالة الناصرة إلى جوارها وإلى العالم، رسالة سلام الحرّ للحرّ. وسلام الحـيّ للحيّ. تطلّع إلى كلماتك أيها الشاعر وهي تحفر اسمك، بقرن الغزال، على صدر هذه الأرض المعذبة.

الساخر من كل شيء(*)

الآن وأنــت مسجّــى علــى صوتك، ونحن مــن حولك، رجوع الصدى من أقاصيك إليك.

الآن لا نأخــذك إلــى أي منفــى، ولا تأخذنا إلــى أي وطن. ففي هذه الأرض من المعاني والجروح ما يجعل الإنسان قديساً منذ لحظة الولادة، وشهيــداً حيّاً مضرجاً بشائــق النعمان من الوريد إلى الوريد.

كان لــي موعد معك، هنا في ناصــرة البشارة والإشارة، فانتعلتُ قلبــي وحملت هواجسي في يــدي: هل أصل هذه المرة إلى جنة الجحيم هذه؟! أم سيعلمني السراب ثانية أن للأرض أرضاً أخرى

(*) [ألقيــت هــذه الكلمــة فــي حفــل تأبيــن إميــل حبيبي فــي الناصــرة في 1996/5/3].

قريبة منها وبعيدة؟ ولم تكن أنت ذريعة للنداء. كنت العناق البعيد. أما كان في وسعي أن أجد الاثنين، دليلي وسبيلي؟! أم أن المصائر اعتادت على لعبة الحضور والغياب؟ على إيقاظ القلب من سكرته: لا تحلم بما لا تستحق. فليس هذا اللقاء سوى وداع.

مَن يودع مَن، أيها الساحر الساخر من كل شيء؟ ومن وقفتي هذه بالذات؟ فها أنذا أراك تغمز المشهد بنظرتك الشقيّة، لا لشيء إلا لأنك تعرف نفسك وتعرفنا واحداً واحداً منذ أقدم الفاتحين حتى آخر العائدين. وتعرف أن الذات، لا الموضوع، هي ما يجعل المرء يركض من المهد إلى اللحد بحثاً عن ذاته التي لا تجد ذاتها، إلّا إذا امتلأت بخارجها. وكم كابدتَ في هذه الرحلة. كم كابدتَ كي تجد الأدب هناك في تلك المنطقة المتوترة من السؤال. فكنت كما تريد أن تكون وكما لا تريد. وحيداً في زحامك ومزدحماً في وحدتك. ولكن حدود الكون كانت واضحة فيك من غير سوء. هنا على هذه الأرض القديمة الصغيرة يجري الحوار بين الواقعي والخرافي، بين الزمني والروحي، بين النسبي والمطلق، بين الزائل والدائم، بين الحق والباطل، بين الحرب والسلام. وهنا... هنا البداية وهنا النهاية.

باقٍ في حيفا، حياً وحياً.

باقٍ في حيفا، هو الاسم الذي سمّيت به اسمك. لا لتميز بين صعود الجبل وبين هبوط الجبل. ولا لتحدد الفارق بين الباقي في منفى هويته، وبين العائد إلى هوية منفاه. بل لتفعل فعلتك الخاصة بالأسفار، ولتحفر فوق المخطوطات ما لست في حاجة إلى تأكيده، إلّا لمواجهة زمن طال فيه الشك شرعية الأم. حين صار

فـي وسع القوة الواثقة من امتلاك الحاضر، أن تضع الماضي على مائدة التساؤل، لتملي عليك روايتها: حجراً في مواجهة بشر.

لـم يرتكب شعبك من خطيئة سوى اسم هذه الهوية الذي تحفره في قطعة من رخام وفي الذاكرة الجماعية:

باقٍ حيث ولد في المكان الذي واصل فيه سليقة العلاقة العضوية المستمرة، وبلا قطيعة، بيـن الأرض وتاريخها ولغتها. وتابع فيه الإصغـاء المرهف بخشوع ومحبة إلى كلام السماء إلى الأرض. ليعيش حياتـه البسيطة قنوعـاً بحصته من الماء والهـواء والضوء وتبـدّل الفصول والغـزوات، لتصبـح الأرض التـي غابت عنها طبيعتها أرض التعددية والتسامح والسلام.

لقد شاءت طبيعة التطور التاريخي في تقاطع المصائر الإنسانية أن تجعـل هذه الأرض بلداً لشعبين، بعدما تعرض شعبها الفلسطيني إلـى المصير التراجيـدي المعاصر وبذل تضحيـات تفوق طاقة البشـر لتثبيت هويته الوطنية، وحقه فـي الاستقلال. وكنت أنت منذ البداية وحتـى هذه اللحظة، أحد المنابـر المتحركة الأقوى والأعلـى، الداعيـة إلى سـلام الشعوب بحق الشعـوب. السلام القائـم على العـدل والمسـاواة ونفي احتـكار اللـه والأرض، للوصـول إلى المصالحة التاريخية الحقيقية بين الشعبين، مع قيام الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.

والآن وأنـت مسجّى على هـذا المفترق، على لـون هذا الغسق الداكن مدمـى بالأمل وبخيبة الأمل، باليقيـن وبالشك معاً، فإن أكثر من جيل واحد من الباقين هنا يعبّر عن دَيْنه لك، للطريقة التي حللت بها جدلية التوتر الوجودي والثقافي بين الجنسية والهوية،

بطريقة وحيدة هي البقاء والدفاع عن حقهم في المساواة، وإمداد عناصر الهوية بمكوناتها الثقافية، الوطنية والقومية التي لا وجود لهم بدونها.

فطوبى لك أيها المعلم الـذي جعل الحنين فاكهة، وسيّج الحيرة بزهرة القندول.

كـم أنت يا حبيبـي، كم فيك من تناقض هو أحـد مرايا تناقضاتنا التـي تكسر اللغة من فرط نزوع المأساة إلى ارتداء قناع الملهاة. فـي كل واحد منّا واحد منك ونحن جميعاً فيك. وفي كل لحظة مـن زماننا أكثر من تاريخ يتبـدّل قبل أن يمنحنا فرصة للتكيّف أو فرصة للتذكّر. تاريخ ينقضّ علينا كقطار عشوائي، فماذا تفعل في انتحـار الرحمة؟ لم تكن السخرية خيـارك الأدبي قدر ما كانت حجتـك في وجه هـذا العبث، وطريقة في اختيـار برج للرصد، نقطة للوقوف على قدم المساواة مع الخصم ومع القدر معاً.

إذا كنا نلعب، فتلك هي شروط اللعبة، لساناً بلسان، لا طائرة ضد طائـر. وفي هذه المنطقـة أيضاً يتبطّن المعنى معنـى ثانياً، ويلجأ الفـرد إلى ذاته ساخراً من عبء رسالتها فيخف الحمل الثقيل من أجل الانتقال إلى حمل أثقـل، في صحراء الإيقاع الذي لا يتوتر إلّا لينسجـم بين السياسـي والأدبي. لا، لن تستطيـع العودة إلى الوراء لإجراء التعديل المبتغى على مصيرك. تلك كانت حسرتك الأخيـرة، أن تتخلـى عـن السياسة منـذ البداية لتكـون أديباً منذ البداية. فأنت من أنت ابـن شرطك التاريخي وابن ذاتك. وليس من شيم هذه البلاد أن ترحم أبناءنا ليكونوا عاديين كسائر البشر. وليسـ من شيمها أيضاً أن تأذن للضحيـة بلوم نفسها. وفيك من

المساحات والأصوات، فيك من تقاطع الطرق، وحوادثها، فيك من البطل والضحيـة والشاهد، فيك من الأنا والجماعة والآخر، مـا كان يُعجِز الفرد فيك عن أن تكـون الرواية، لأنك أنت، أنت الروايـة المفتوحة على الجهات كلها والمفارقات كلها والأسئلة كلها ما عدا سؤالاً واحداً: هل انكسار الإطار هو هزيمة المعنى، وهل هزيمة الأداة هي موت الفكرة؟

والآن وأنـت مسجّى على فكرتـك ذات الأقانيم الثلاثة، الحرية والعدل والسلام، فإن شعبك بأسـره، شعبك العربي وأشقاءه من آخر الصحـراء حتى آخر البحر، وأصدقـاءه الأوفياء، أصدقاءك، من قوى السلام في هذه البلاد وفي العالم يزدادون وفاءً لفكرتك فتلـك هي وصية الحُرّ للحُرّ، وتلك هـي هوية وجودنا الإنساني المشترك على أرض المعانـي الإنسانية العريقة والتعددية الثقافية والدينية والقومية. أرض السلام العطشى إلى السلام.

فانهض معنا يا ابن سلام لنمضي ليلاً معك وإليك، إلى هناك، إلى حيـث تريد أن تنام حارساً دائماً لتلفُّـت القلب إلى حيفا. واغفر لنـا يا معلمنا ما صنعت بنا وبنفسك. اغفر لنا أننا سنعود بعد قليل إلى أنفسنا ناقصين.

طريق العودة هي طريق المعرفة(*)

كُلُّ مـوت هو مـوت أوَّل. مفاجئ، صاعق، غيـر معروف وغير مألوف.

لـن نألف الحديث عـن إبراهيم أبو لغد باستخـدام فعل الماضي الناقص. فما زلنا معه، حوله، وهو يواصل البحث الحماسيّ عن حياة مختلفة في ساحة هذه الزنزانة، عن حياة تتَّسع لحلم عادي، يحقـق فيها الفرد والجماعة حرية الاختيار لطريقتهم الخاصة في الإقامة على هذه الأرض.

لقـد أشاح بوجهه عن شبح المـوت، وتابع التحديقَ إلى تفاصيلِ صـورةِ غدنـا. كان يعرف أننا لا نعرف أنه يعـرف ما نعرف عن سَفَـرِهِ القريـب إلى المطلق المجهول. لكـن كان، حتى اللحظة

(*) [ألقيت هذه الكلمة في حفل تأبين المربي إبراهيم أبو لغد في رام الله].

الأخيرة، عاكفاً على العمل لوطنـه الزمني كأنه يعيش أبداً، معنا، فينا، وفي الأجيال القادمـة. لأن سؤالَ الحياة هو سؤالُهُ الأبدي. ولأن فلسطينـه – الواقعيـة والمتخيَّلـة، هـي صـورة الجحيـم والفردوس معاً. ولأنَّ سدرة المنتهى تنمو في مدينة يافا.

رآهـا في أوَّل العمر. وفي ما يُشبه تداعيات الخطيئة الأولى، وجد نفسـه في قافلة الترحيل الجماعـي مُعاقَباً بالطرد من الجنة، لا لأنه اقترب من شجرة المعرفة المحرمة، بل لأنه لم يقترب منها. فأدرك آدمُ الفَتَى أن طريقَ العودةِ، الفرديةِ والجماعيةِ، هي طريقُ المعرفة.

من هنا تفتَّح وعي إبراهيم أبو لغد بحيوية البُعْد التعليمي والثقافي فـي الصراع المريـر على استعادة الحـق، الذي لـم يُسْلَب بقُوَّة السـلاح وحده، بل بسُلطـة المعرفة التي وُظِّفـت لبلورة الوعي الزائـف المزيِّـف لإفـراغ الأرضـ الفلسطينيـةِ مـن أهلها ومن حقيقتها التاريخية، ولإبقاء السيف أقوى من الدم وأبلغ...

لم يأتلف مـع منفاه الطويل الذي احتل فيه مكانةً أكاديمية عالية، فقـد ظلَّ مشـدوداً إلى هنـا، مُكرِّساً كفاءاته العلميـة والأخلاقية لتأسيـس ثقافة الحـق الفلسطيني. وكَكُلِّ مُبَشِّـرٍ كبير، لم يكتب كثيراً بقَدْر ما انخرط في القتال الفكري اليومي، دفاعاً عن الأمل المحاصـر بموازيـن قوى لا يكسـر وطأتها إلّا تفـاؤل الإرادة، حيث يرتبط الفكر بالعمل، وحيث تصبح المعجزة مشروعاً قابلاً للتحقيق. قطرةً قطرةً تمتلئ البئر، وخطوةً خطوةً ينفتح الطريق.

تعرَّفتُ إليه قبل حوالَيْ ثلاثين عاماً في بيروت. من اللحظة الأولى يجعلـك تواصل معه ماضيـاً مشتركاً وذكرى قديمـة. إنه صانع

الذكريـات بامتيـاز، لا لأنه خريطة ناطقـةٌ بالأمكنةِ والأشخاص فحسب، بل لأنه جاهزٌ للصداقة. أليف، وألوف، ووُديّ وودود. لا عُمْـرَ لـه لأنه ممتلـئ بالأعمار، إلـى حدٍّ لا يأذن لـك بإدراك الفارق بين مترادفات الزمن. ولا يأذن لك بالانتباه إلى اختلاف، فهو أخوي لا أبـويّ ومن فرط ما هو مُعَلِّم، يصغي إليك بتواضُع مَـنْ يريدُ أن يعرف، ثم يستدرجك إلى أسئلةٍ حريريةِ الصُنع، لأنَ حكمته وثقافته منتشرتان في النسيج لا في الشكل.

وفي حصار بيروت عشنا معاً. وبحثنا معاً عن الخبز والماء، وعن متر مربع آمن من الصواريـخ. ولكنه كان مُنْشغلاً بتجاوز حدود جهنـم، مسكوناً بأسئلـة اليوم التالي: ماذا بعـد بيروت؟ وكيف ستحافظ التجربةُ الوطنيةُ الفلسطينية على مخزونها التراكمي؟ إذ لا ينبغي لنا أن نبحث عن بداية جديدة منقطعة عن السياق. وكان مـن القلائل الذين لم يروا في الخـروج من بيروت نهاية. إذ رأى فلسطين أمامه: سنعود.

في علاقته بفلسطين مزيجٌ من صوفية وبرغماتية. لم يؤمن بإمكانية التوصـل إلى حلٍ عادلٍ فـي الظروف الراهنة. فالحـلّ والعدل، الآن، مفهومـان متناقضان. إذ، كيف يكـونُ من العدل ألّاَ تكونَ يافـا فلسطينية؟ لكنه يضع هذا السؤال في غرفة الأشباح، ليتسنَّى له التعاملُ مـع الواقع والعملُ على تغييره. لذلـك، لم يؤمن أيضاً بالمغامرة، فتبنَّى برنامج الحلّ الممكن لترسيخ الكينونة الوطنية، ولتمكين الشعب الفلسطينـي من الحضور في التاريخ، بعدما تمَّ رده من الجغرافيا والتاريخ ومن الوعي الإنساني.

فـي كلٍّ واحـدٍ منا أَثر مـن إبراهيم، فلم ينجُ من حبّـه أحد. ولم

يَنْـجُ من عدوي إيمانه العُضال أحد. فيا ليتنا نبلغ صبر النَّمْل فيه، والمثابـرةَ علـى العمل. كان يُـوَزِّع جسمه فـي جسوم عديدة، ويفيضـ. كأنَّ يومه مُرَكَّبٌ من زمن مختلف، كيوم صديق عمره إدوارد سعيـد الذي كان ينتظر وصوله بحنين التوأم الروحي إلى التـوأم. وكان يجـد في كل يوم من أيام صراعـه الأخير مع الألـم وقتـاً للنشوة بلقاء إدوارد: سنحتفل به كما يجب. وسأخرج معه إلى أي مكان.

كنـت في الغرفـة المجاورة حين توقَّـف إبراهيم عـن الانتظار. سالـت دموع كثيرة علـى الرغم من أننا كنا نعـرف هذه النهاية. لكـن الموت هو دائماً مـوت أوَّل. هل الزمن الفاصل بين الحياة والمـوت قصير ووهميّ إلى هذا الحد؟ وحدها، صورة يافا على الجدار منعتنا من القول: باطل، باطل الأباطيل...

لقد أنجز إبراهيم حقَّ العودة بطريقته الخاصة. منذ عاد إلى الوطن أَعلن أن لا يريد الموت في مكان آخر. كان له ما أراد. بَيْدَ أن هذا الإعـلان كان إعلانـاً أدبياً مجازياً. فلم يعـد إبراهيم ليموت، بل عاد ليُسهم فـي تطوير الحياة التعليمية. عاد لينشر رسالة المثقف الفلسطينـي إلى ذاته وإلـى مجتمعه وإلى العالـم: التمسُّك بحق العـودة... والمشاركة في صون الذاكـرة العامة، وفي بناء تصور أجمـل للمستقبـل، مهما كان الحاضـر هشَّ التكويـن، ومهما أسفرت التجربة عن خيبات.

كان حالماً، لا واهماً. وكم نحن في حاجة إلى الحالمين الكبار. فهـو يـدرك أن العـودة الحقيقية هي العـودة الجماعيـة. ولكنَّ فـي عودته الفردية دلالـة أخلاقية، وتعبيراً عن التـزام حرّ بمصير

شعـبٍ اعتزَّ بالانتماء إليه... إلى طاقته الفذّة في الصمود ومقاومة الاحتـلال، وإلـى جنونه اللامحـدود بالحرية. عـاد إبراهيم إلى الأرض التي لم يكـفّ عن مديـح جمالياتها. عـاد ليغرس فيها شجـرة المعرفة، فكان هو الشجرة. لقد وُلد فـي يافا. وعاد إلى يافا ليبقى، هناك، إلى الأبد، قرب سدرة المنتهى!

فدوى

فدوى، أختنا الكبيرة، ودّعت زملاءها من نافذة بيتها في نابلس، كما ودَّعت عشرات من الأحياء والشهداء. ولولا الحب، لولا الحب الذي هو شرط حياتها لكادت أن تكون خنساء العرب الفلسطينيين، في بلد صار فيه الموت هو سيّد الكتابة.

لم تعش كما تشتهي. لم تشأ أن يكون كل شيء واضحاً إلى هذا الحد الفاضح. ففي الضباب تأويل. وكم قالت لي كلما التقينا: كم أتمنى أن أعرف طريقي إلى غموضٍ ما في الشعر. كانت تطلب الغموض، لتقول أكثر مما قالت ربما من المسكوت عنه في قلبها، فقد ظنَّت أن في الغموض حريّة، وشاعريّة لا تُغريها تسميةُ الواضح.

لكنها أتقنت الشعر بصراعها مع سهولة الوضوح. فهل هنالك ما هو أَوضح من أن تكون المرأة امرأة؟ وهل هنالك ما هو أصعب

من أن تكتب الأنثى أنوثتها في مجتمع ذكوري الثقافة؟ لا تحتاج ثورة المرأَة على سجنها إلى نظرية، فمن حسيَّتها يتشكّل وعيها الأول بذاتها. وهكذا كانت رحلتها الجبلية، تفسيراً لخلفية شعرها الرومانتيكي المبشر بتمردها على ما أعدت لها «الرجولة» من مصير. وهكذا ارتبط شعرها، منذ البداية، بإعلان حقها في الحب، أي حقها في الحرّية.

أَحببنا شعر فدوى، لأنه كان يغوينا، من فرط بساطته، بتدوين عواطفنا الصغيرة وهمومنا الشخصية كيوميات خاصة، ولأنه كان يرشد الإحساس إلى البوح، ففي كل كائن بشري شاعر خفيٌّ لا يحتاج إلى سيف وفرس وبطولة ليمتلك حق الكلام.

لم تواصل فدوى تقاليد الشعر الفلسطيني المنخرط في صوغ صوت الجماعة المعرضة لخطر الاقتلاع. لم تكمل صوت أخيها إبراهيم الهجائي والمُحرِّض، على الرغم من دوره الحاسم في تشجيعها على كتابة الشعر. جلست في ركنها الأنثوي، وأصغت إلى قلبها وجسدها، وإلى ما يخاطبهما من شعر رومانتيكي قادم من العالم الخارجي، وجدت فيه صوت الذات الباحثة عن حريتها الشخصية لتكون مؤهلة لوعي تحررها الوطني.

صحيح أن فدوى كتبت شعراً في التراجيديا الفلسطينية، وكيف لها ألّا تكتب! لكن صوتها الخافت كان مختلفاً، كان صوت المرأة العاشقة، المتأمِّلة، المعذَّبة، الوحيدة، الذي لا يشبه صوتاً آخر. كانت من الجماعة وخارجها في آنٍ معاً. لقد عاصرت شعراء النكبة، ولم تكن منهم. عاصرت شعراء الحداثة العربية ولم تكن منهم. وعاصرت شعراء المقاومة، ولم تكن منهم.

لقـد حافظت على هويتها الشعريـة الخاصة بها. وحافظت على مـا يشبه «الثابت» في الشعر، وهو النزعة الرومانسية. وحافظت على مـا يشبه «الثابت» فـي الرومانتيكية، وهـو الحب خلاصاً وجواباً، ومداواةً للذات، ومقاومةً لعالم فقَدَ الرحمة. وبالحب، بالحب وحده يكون الشعر عزاء، وطريقة لبلوغ سلام مع النفس ومع الآخرين.

لكن زلـزال حزيران 67، أَخرج الشاعرة عـن طورها الشعري، فأحـدث خلخلة مـا في لغتهـا الحريريّة الصُنْـع، وزجّ بسليقتها وأخلاقيتهـا الأدبيـة الرفيعة في هذا السـؤال الصعب: ماذا يفعل الشاعر في زمـن المحنة؟ إذ صار على الشاعر أن يخرج من ذاته إلى خارجها، وصار على الشعر أن يشهد.

زارتنـا في حيفا.. أسيرةً تسعى إلـى أسرى، قرأت علينا قصيدتها الأولـى فـي المحنة الجديـدة: «لن أبكي». لكنهـا كانت تبكي كحمامـة. لـم يعـد الغنـاء الرومانتيكـي جوابـاً علـى الكراهية والوحشيـة، وعلى واقع لا يأذن للكلمات بـأن تواصل انفصالها السابق عن فخاخه، ولا يأذن لها بالاستمرار في البحث عن «الشعر الصافي»، ولا يتيح للشخصية أن تكشف عن خصوصيتها.

كانـت خصوصيـة الفلسطينـي، فـي تلـك اللحظـة التاريخية، تُحـدّد بموضوعه وبمكان كتابته، حيـث التقت الأصوات كلها فـي قصيـدة واحدة. وصـار كل اسم يـدلّ على اسـم آخر، ولم تعـد القصيدة في حاجـة إلى التوقيع. ففي وسـع القارئ، وحتى الناقد، أن يُعرِّف الخصوصية الشعرية الفلسطينية باللاخصوصية الشخصية!!

هل تلك هي إحدى أعراض مُهمَّة الشاعر في زمن المحنة، أم تلك هـي تداعيات ما يتطلبه الواجب؟ لا أدري، فلعل سؤال الشعر عن حـدود طبيعتـه الخاصة، قد أُرجئ إلى شرط آخـر تخف فيه حدَّةُ التوتُّر بين الجمالي والضروري. لكن، حين يطول زمن الطوارئ، يجد كل شاعر وقتاً للتأمل في خصوصيته، وليدرك أن فاعلية الشعر تأتي من جماليتـه، وأن جمالية الشعر تأتي من طريقته الخاصة في التعامل مع الواقع العَيْني، وتحويله إلى واقع لغوي مجازي.

وهـذا ما فعلته فـدوى التي واصلـت الكتابة عن ذاتهـا العاشقة حتى ما بعد الثمانين، دون أن تتنازل عن وفائها للوطن والإنسان والمشاعر الإنسانية والطبيعة، ومـن الصعب أن نعثر على تطابق أكبر مـن التطابق الشفَّاف بيـن شخصية فـدوى العذبة وشعرها العذب. بيـن تقشُّفها فـي العيش وتقشفها فـي اللغة. انكسرت جيتارة الألـم، واستمر النغم.

كما لو نودي بشاعر أن انهض(*)

علـى أربعـة أحرف يقوم اسمُـكَ واسمي، لا علـى خمسة. لأن حـرف الميم الثاني قطعةُ غيـار قد نحتاج إليها أثنـاء السير على الطرق الوعرة.

في عام واحـد وُلدنا، مع فارق طفيف في الساعات وفي الجهات. وُلدنا لنتدرّب على اللعب البـريء بالكلمات. ولم نكترث للموت الذي تَدُقُّهُ النساءُ الجميلات، كحبة جوز، بكعوب أحذيتهن العالية.

عالياً، عالياً كان كُلّ شـيء... عالياً كالأزرق على جبال الساحل السوري. وكما يتسلّقُ العشبُ الانتهازيّ أسوارَ السلطان، تسلّقنا أقواسَ قُزَحٍ، لنكتب بألوانها أسماء ما نحبُّ من الأشياء الصغيرة والكبيرة:

(*) [في ذكرى ممدوح عدوان].

يداً تحلب ثدي الغزالة،

مجداً لزارعي الخسّ في الأحواض، شغف الإسكافيّ بلمس قَدَم الأميرة، ومصائر أخرى لجمهور مطرود من المسرح.

لم ننكسر بِدَويٍّ هائل كما يحدث في التراجيديات الكبرى، بل كأشعة شمس على صخور مُدَبَّبة لم يُسْفَكْ عليها دم من قبل، لكنها أخذت لون النبيذ الفاسد. ولم نصرخ، هناك، لأنه لا أحد، هناك ليسمع:

أو يشهد.

دَلَّتني عليك تلك الضوضاءُ التي أحدثتها نَمْلَةٌ بين الخليج والمحيط، حينَ نَجَتْ من المذلَّة، واعتَلَتْ مئذنة لتؤذن في الناس بالأمل،

ودلَّتكَ عليَّ سخرية مماثلة!

ولما التقينا عرفتك من سعالك، إذ سبق لي أن حفظتُهُ من إيقاع شعرك الأول، يُفْزِعُ القططَ النائمة في زرقة دمشق العتيقة، ويبعثر رائحة الياسمين.

لم يكن لنا ماض ذهبيّ على أهبة العودة، كما يدّعي رواد المقهى الخائفون من القبض على قرون الحاضر الهائج كالكبش، ولا غَدٌ أكيد، خلفنا، كما يدّعي رُوّاد الشعر الخالي من الملح، المتخم بفراغ المطلق.

لم نبحث إلّا عن الحاضر.

لكننا، من فرط ما أُهِنّـا، بشَّرنا بالقيامة بصوت مرتفع، أثار علينا غضب الملائكة المنذورين لصون اللغة الصافية من غبار الأرض، والباحثين عن الشعر الصافي في جناح بعوضة.

ودُعِينـا، فـي غـرف التشريـح مُعَقَّمةِ الهـواء والكلام، إلـى بَتْر المفردات كثيـرةِ الاستعمال. وسرعـان ما علاها الصدأ مـن قلَّة الاستعمال، وفي أوّلها: الحياة... ومشتقّاتُها. لكننا آثرنا أن نخاصم الملائكة.

ممدوح، لا أطيق سماع اسمـك الآن، لأنه يذكّرني بما ينقصني من رغبة في الضحك معك على عَوْرةِ بَرَدَى المكشوفة كأسرارنا القوميـة. ولأنه يذكّرني بمدى حاجتـي إلى استراحة من الركض آناء النوم، بحثاً عن حلم مسروق، أراه واضحاً وأحاور السارق. ويذكّرني اسمك بما أنا فيه من طقطقة كأني حبّةُ بلُّوط في موقد.

لهذا، أكتب اسمك ولا ألفظه، ففي الكتابة يتموَّج اسمك على ماء الحضـور. وفي الكلام أسمع وحش الغياب يطاردني فمن حرف إلـى حرف، ليتفرسـ الشِلْوَ الأخير من قلبـي الجائع إلى هجائك المادح.

ممـدوح! ماذا فعلتَ بك وبنـا؟ فلم نعد نحزن من تساقط شعرك المبلّـل بالزيت، فإنك تستعيـده الآن من عشب الأرض. ولكن، فـي أية ريح أخفيت عنا سعالك، فلم يعد في غيابك مُتَّسع لغياب آخر.

لا لأن حـروف اسمك هـي حروف اسمي، لا أتبيَّـنُ مَنْ منّا هو الغائـب، بل لأن الحياة التي آلَفَتْ بيـن ثعلبين ماكرين لم تمنحنا الوقـت الكافـي لنقول لهـا كم أحببناهـا، وكم أحببنـا فُجُورها وتقواها... فتركتْ ثعلباً منّا بلا صاحب.

لا جلجامش ولا أنكيدو. لا الخلود هـو المبتغى ولا قُوَّةُ الثور. فنحـن الخفيفين الهشين، كواقعنا هـذا، لم نطلب أكثر من وقت إضافـي لنلعب بالكلمات لعباً غير بـريء، هذه المرة، أو لنورث مـا لم نَقُلْه بعد مَنْ لم يقل بعد. ولنجعل من الشعر مزاحاً مستحبّاً مع العدم. لكن حرف الميـم الثاني في اسمك واسمي ظلَّ قطعة غيار لا تنفع.

ممدوح! هذا هو وقتِ الزفاف الفاحش بين الرعد والصحراء، شرق الشمال، لإنجاب الكَمْأ إعجازيّ التكوين. صِفْ لي ولادة الكَمْأة، أصفْ لك عجزي عن وصف سر القصيدة، فانظر شرق الشمال!

هـي حسرةُ التعريف. أنين الرمـل على الشاطئ حين يرفع القمر، بأصابعـه الفضية، سروالَ البحر وقتَ الجَزْر، ويرشّ علينا قصيدةَ حبّ إباحيةَ التصوُّف.

فاغضُضْ من صوتك، لا من بصرك، وانظر. فمنذ ولادة اللغز الكوني، والشعرُ مختبئ في أشدِّ المواقع انكشافاً. ويظهر جلياً جلياً في اللامرئيّ من سماء مسقوفة بكفاءة الغيب.

ممدوح! كُلُّ الأزهار شريفة حين تُترك لحالها، ما عدا القرنفلاتِ الحمـرَ التي يضعهـا الجنرالات، ما بين وسـامٍ ونجمة، على بزّة سوداء أو كحلية... لخداع أرامل الشهداء.

وكل اليمامـات نظيفة، حتى لو بالَتْ علـى شرفتنا والوسائد، ما عدا اليمامات التي يُدَرِّبهـا الغزاة والطغاة معاً، وعلى حدة، على الطيـران الرسمي في أعيـاد ميلادهم، وفي مناسبـات وطنية أقلّ أهمية.

الآن، لا أتذكَّر شيئاً منك. فالذكرى تلي الحرب والموت والزلزال. وأنت، ما زلت معي تكتب هذه المرثية، على هذه الورقة البيضاء، فـي هذا الليـل البارد... أو نكتبهـا معاً لشاعر محبـط. فلعلّها لا تعجبـه فيتوقف عن اغتيال نفسه، إلـى أن يقوم غيرنا بكتابة مرثّية أفضل، لا تعجبه هي أيضاً، فينتظر غيرها ويحيا أكثر.

كما لو نُودي بشاعرٍ أن انهض من هذا الألم.

وأنسـي الآن، لتبقـى معي، أكثر من غَلَس لـم يدركنا ولم ندركه قبل أن تُفْرِغَ آخر كرمِ عِنَبٍ مقطّر في كأسك التي لا تخلو أبداً إلّا لتنكسر، أَيها العاصر الماهر!

ليس هذا مجـازاً، بل هو أسلوب ليلٍ لا يصلـح إلّا ضيفاً، وأنت المضيـف الباذخ. وإن افتـأتَ عليكَ، كصديـقٍ حامضِ القلب،

عامَلْتَهُ بالحسنى وأَرَقْتَ عليه حليب الفجر.

لكنـي لا أنسى ضحكتـك التي تشبه شجـرةَ زنزلخت مبحوحةَ الأغصـان، عالية وعريضة، لا تاريخ لهـا منذ صار التاريخ قهقهة عابثـة. ومنذ عـادت الجرار إلى حفظ الصـدى، كالزيت، خوفاً عليه من آثار الشمس الجانبية.

كـم حيَّرني فيك انشقاق طاقاتك الإبداعية عن مسار التخصُّص، كعازفٍ يَحَارُ في أية آلةٍ موسيقية يتلألأ. لم أقل لك إن واحداً منك يكفـي لتكون عشيرة نحـل تمنح العسل السـوري مذاق المتعة الحارق. بحثتَ عن الفريد في العديد، دون أن تعلم أن الفريد هو أنـت. وأنت أمامك بين يديك. ألا ترى إليك، أم وجدت نفسك أصفـى فـي تعدُّدها، يا صديقـي المفرط فـي التشظّي ككوكبٍ يتكوّن.

فَصَصْـتَ الثوم للقصيدة لتحمي شرايينهـا من التصلُّب. فالشعر، كالجسد، في حاجـة هو أيضاً إلى عناية طبيـة، وإلى فِصَادٍ كُلّما أُصيب الـدم بالتلوث. آه، من التلوّث الذي جعل الإيقاع نشازاً، واستبدل حفيـف الشجر بموسيقى الحجر، واعتبـر الحياة عبئاً على الاستعارة!

لكن هذا لم يهمك، لأن الحياة لا تُوهَب لتُعَرَّفَ أو تُعْرَضَ للنقاش، بل لتُعاش... وتعاش بكاملها، وتُلتَهم كقطعة حلوى إلهية، أو شفتين ناضجتي الكرز. وقد عِشْتَها كما شئت أنت،

لا كما هي شاءت. أحْبَبْتَها فأحبَّتك. وشاكست ما يجعلها أحد أسماء الموت، في عصرِ القتل المعولم الذي يمنح القتلى قسطاً من الحياة لا لشيء... إلَّا لينجبوا قتلى.

يا ابن الحياة الحرّ، أيها المدافع عن جمال الوردة العفوي، وحرية العشاق في العنـاق على مرأى من كُهَّان الطهـارة اللوطيين! مَنْ بعدك سيسخر ممَّنْ يتقنون تسمية الآلهة، ولا يقوون على تسمية الضحايا؟ يأنفون من الانتباه إلى دم مسفوك على طريق المعراج، ويسرفون في التحديق إلى غيمة عابرة في سماء طروادة، لأن الدم قد يلطخ نقاء الحداثة المتخيَّلـة، ولأن الغيم سرمديّ الدلالات. لعلَّهـم على حق، ما دامت هزائمنا تستدعي تطوير النقد إلى هذا الحد!

لكـن هذا أيضاً لا يهمك، أيها المتعالـي على التعالي، أيها العاليٍ مـن فرط ما انحنيتَ بانضباطِ جنديٍّ أمام سنبلة، ونظرت، حزيناً غاضباً، إلى أحذية الفقراء المثقوبة، فانحَزْت إلى طريقها الممتلئ بغبار الشرف. الشرف؟ يسألك المترجم: ما معنى هذه الكلمة؟ فلم أجدها في الطبعات الجديدة من المعاجم.

ممدوح، يـا صديقي، لماذا كما يفعل الطرخـون خانك وخاننا قلبـك؟ لماذا لم تعلم كم نحبك؟ لمـاذا تمضي وتتركني ناقصاً؟ لماذا... لماذا؟

ياسر عرفات(*)
فاجأنا بأنه لم يفاجئنا

1

فاجَأنـا ياسر عرفات بأنه لـم يفاجئنا. كأنّ تطابقـاً بين الشخص المريضـ والنص المريض قد حدَّد مسبقاً صـورة النهاية، وحرم البطـل التراجيدي من إضفـاء خصوصيته على القَدَر. فلا معجزة هذه المرة، ولا مفاجأة، منـذ أصبحت التراجيديا، المصورة في مسلسل تلفزيوني طويل، يومية ومألوفة وعادية!

لقـد أعدَّنا ياسر عرفـات، تدريجياً، لوداعـه المتواصل أكثر من

(*) [كتبت هذه الكلمة يوم رحيل ياسر عرفات].

مرة، وعوَّدنا على موت غير عـادي وغير معلن، بغارة من طائرة حربيـة، أو بسقـوط طائرة مدنيّـة في صحراء. لكنـه —والأقدار تُضفي عليه سحر الأعجوبة— كان يسبق الموت إلى الحياة، فنحيا معه فـي رحلة أدمنّا خلالها الرحيل إلى هـدف يتلألأ بجماليات المستحيل، وبشاعرية رعوية تُعيننا على طول الطريق.

من منفى إلى آخر، كان الموضوع ينأى عن أرض الموضوع... ويدنـو، في بلاغةٍ ترسـم اللافتات بدمٍ قلنا إنـه يخصب الفكرة، وينعشـ الذاكـرةَ، ورفـع الحـدود عـن العلاقـة بيـن الواقعـي والأسطوري. كنا في حاجـة إلى أسطورة أنجزنا بعض فصولها. لكـن الأسطورة في حاجة إلى واقع، فهل سينجح الأسطوري في امتحان العمل على أرض الواقع؟ إنه سؤال مُؤجَّل!

هو، ياسر عرفات، من استطاع أن يروِّض التناقض في المنافي، بمزيج من البراغماتية والدين والغيبيات. وتحوَّل، بديناميكيته الخارقة وتماهيه الكامل بين الشخصي والعام وعبادة العمل، من قائد إلى رمز شديد اللمعان.

لم يزاول مهنة الهندسة لتعبيد الطرق، بل لشقّها في حقول الألغام. قـد يحتاج التاريخ إلى وقت طويل لترتيـب أوراق هذا الرجل – الظاهـرة. لكنه سيمنحنه رتبة الشـرف في علم القدرة على البقاء منـذ الآن، ومنذ الآن سيتوقف طويلاً عنـد مغامرته – المعجزة: إشعال النار في الجليد. فقد قاد ثورة معاكسة لأي حساب، لأنها ربمـا جاءت قبل أوانهـا، أو بعد أوانها ربما. أو ربما لأن موازين

القوى الإقليمية لا تأذن لأحـد بإشعال عود كبريت قرب حقول النفط... وعلى مقربة من الأمن الإسرائيلي!

لـم ينتصـر في المعـارك العسكرية، لا في الوطـن ولا في الشتات. لكنـه انتصر في معركة الدفاع عن الوجود الوطني، ووضع المسألة الفلسطينية على الخارطـة السياسية، الإقليمية والدولية، وفي بلورة الهوية الوطنية للفلسطيني اللاجئ المنسيّ عند أطراف الغياب، وفي تثبيـت الحقيقة الفلسطينيـة في الوعي الإنسانـي، ونجح في إقناع العالم بأن الحرب تبدأ من فلسطين، وبأن السلم يبدأ من فلسطين.

وصارت كوفية ياسر عرفـات، المعقودة بعناية رمزية وفلكلورية معاً، هي الدليل المعنوي والسياسي إلى فلسطين.

لكنـه، وقد اختزل الموضوعات كلها في شخصه، صار ضرورياً لحياتنا إلى درجة الخطر... كَرَبِّ أسرة لا يريد لأولاده أن يكبروا لئـلا يعتمدوا على أنفسهـم. لذلك أعدَّنا، أكثر مـن مرة، للتعوُّد علـى الخوف من فكرة اليُتم، وعلى الخوف من احتضار الفكرة في حال غيابه الجسدي. ومن فرط ما ناوش الموت ونجا، امتلأ لا وعـيٌ فلسطيني خرافـي بشعور ما بأن عرفـات قد لا يموت! وهكذا لامَسَت أسطورته حدود الميتافيزيقيا.

لكن المفاجآت كانت تعمل في مكان آخر. فهذا المكان الرمزي العائد من تأويلات إغريقية، كان في حاجة إلى التخفيف من عبء أسطورتـه، لأن البلد في حاجة إلى بناء وإدارة، وإلى التخلّص من

الاحتـلال بوسائل جديدة. وهـو الآن مكشوف أمـام الجميع، عرضـة للمس والهمس والمساءلة. ومن سوء حظ البطل أن عليه أن ينتصـر على الأعداء في معـارك غير متكافئة، من جهة... وأن يصون صورته في المخيلة العامة من نتوءاتها الداخلية.

لكن، وهو المشبع بثقافة صلاح الدين التفاوضية، وبتسامح عُمَر، لم يأتِ على حصان أبيض، ولا ماشياً أمام جَمَل... فلا مكان للخيلِ والإبل في بلاغة الأزمنة الحديثة. بل جاء إلى واقعه الجديد محمولاً على اتفاق أوسلو، ذي الجوهر الأمني الخالي من الإفراط في التفاؤل، والمفتوح على غموض النوايا. لكنه عاد، وفي ذهنه خاطرة مرِحة: حتى النبي موسى لم يعد إلى «أرض الميعاد»!

هي خطوة أولى نحو الدولة، يقول، ويعلم أن فلسطين ما زالت هناك: في القضايا المعلّقة على مفاوضات الوضع النهائي، حول القدس وحق العودة وغيرها من القضايا الشائكة. والطريق إلى هناك لا يمر من أوسلو، بل من مرجعيات الشرعية الدولية.

وكان يعلـم أن تلـك المرجعيات لم تعد صالحـة تماماً في عالم القطب الواحد، الذي رفـع الدولة الإسرائيلية إلى مرتبة المقدس الـذي يُلهم «البيت الأبيض» بتعاليمه السماوية! ويعرف أيضاً أن المراسـم الرئاسية، وبطاقات الهويـة، وجوازات السفر لا تعني، بالنسبة إلى المسؤولين الإسرائيليين، إلّا ضرورة إلهاء المحرومين مـن الاستقلال بوجبات رمزيـة سريعة لا تشبـع الهوية الجائعة. ويعـرف أيضاً، وأيضاً، أنه قد انتقـل من المنفى إلى سجن مؤثَّث بصور الأشياء لا بحقيقتهـا، وأنه في حاجة إلى إذن بالانتقال من

سجن في رام الله إلى سجن في غزة.

ولا بأس من سجاد أحمر... ونشيد.

من هنا، بدأت محنة الرئيس، وداؤه السياسي والمعنوي. فهذا الأسير العظيم، المحكوم بالشروط الإسرائيلية القاسية، لا يستطيع التقدم نحو الفهم الإسرائيلي لعملية السلام، ولا يستطيع التراجع إلى أبجديات الصراع التقليدية. ولا يعزِّيه أن من ندم على أوسلو، وخان تداعياتها هو «الشريك الإسرائيلي» الذي لم يعد شريكاً. فما العمل؟

لم يختلف أحد على حق الفلسطينيين في المقاومة، فكانت الانتفاضة الثانية تعبيراً طبيعياً عن إرادتهم الوطنية، وإصرارهم على إعادة الحياة إلى الأمل بسلام حقيقي، يحقق لهم الحرية والاستقلال. لكن أسئلة كثيرة طرحت حول الوسائل التي ينبغي أن تخدم هذا الهدف، وتجنِّب الفلسطينيين خطر استدراجهم إلى الحلبة العسكرية التي تَشَهّاها شارون، ليدرج حربه على الكيانية الفلسطينية الوليدة في سياق الحرب العالمية على الإرهاب منذ أضاعت أميركا الحدود بين مفهوم المقاومة ومفهوم الإرهاب.

لم يعد أمام ياسر عرفات إلّا الرهان على قَدَرٍ لا يستجيب، وعلى معجزة لا تُطيع هذا الزمن. المقاطعة، مقره ومنزله الوحيد، تنهار عليه غرفة... غرفة. وهو يردِّد في نبرة نبوية: «شهيداً، شهيداً، شهيدا...»، فيثير في النخوة العربية قشعريرة كهربائية عابرة.

لكن تكرار أخبار المأساة يجعلها عادية. وهكذا صار حصار عرفات أمراً مألوفاً... ثلاث سنوات من تسميم الحياة، ثلاث سنوات من استنشاق الهواء الفاسد، ثلاث سنوات من الهجاء الأميركي «لم يعد ذا صلة»، ثلاث سنوات من الكدِّ الإسرائيلي لتجريد عرفات من صلاحيته وصلاحية رمزيته. بيد أن الفلسطينيين قادرون دائماً على الترميز: حصار الرئيس رمز لحصارنا، ومعاناته رمز لمعاناتنا. فهو معنا، وفينا، ومثلنا، نحبُّه لأننا نحبه. ونحبّه لأننا لا نحبّ أعداءه.

لم يفاجئنا هذه المرة. فقد أعدَّنا لوداع لا لقاء بعده. خرج المحاصر من حصاره ليزور الموت في المنفى، وليزوّد الأسطورة بما تحتاج إليه من مكر النهاية. لقد منحنا الوقت ليتدرب الحزن فينا على أدوات التعبير اللائقة، ولنبلغ سن الفطام التدريجي. في كل واحد منا شيء منه. هو الأب والابن: أبو مرحلة كاملة من تاريخ الفلسطينيين، وابنهم الذي أسهموا في صوغ خطابه وصورته.

لا نودِّع الماضي معه... ولكننا ندخل، منذ الآن، في تاريخ جديد مفتوح على ما لا نعرف. فهل نعثر على الحاضر، قبل أن نخاف الغد؟

تأخَّر حزني عليه(*)

2

تأخَّر حزني عليه قليلاً، لأني كغيري توقَّعْتُ من سيِّد النجاة أن يعود إلينا، هذه المرة أيضاً، ببداية جديدة. لكن الزمن الجديد أقوى من شاعرية الأسطورة ومن سحر العنقاء. وللتأبين طقس دائم يبدأ باستعمال فعل الماضي الناقص: كان... كان ياسر عرفات الفصل الأطول في حياتنا. وكان اسمه أحد أسماء فلسطين الجديدة، الناهضة من رماد النكبة إلى جمرة المقاومة، إلى فكرة الدولة، إلى واقع تأسيسها المتعثِّر. لكن للأبطال التراجيديين قدراً يشاكسهم، يتربّص بخطوتهم الأخيرة نحو باب الوصول، ليحرمهم من الاحتفال بالنهاية السعيدة لعمر من الشقاء والتضحية. لأن الزارع في الحقل الوعر لا يكون دائماً هو الحاصد.

(*) [ألقيت هذه الكلمة في أربعينية ياسر عرفات].

يُعَزِّينـا في هـذا المقـام أن أفعال هـذا القائد الخالـد، الذي بلغ حـدّ التماهي التام بيـن الشخصـيّ والعام، قد أوصلـت الرحلة الفلسطينيـة الداميـة إلى أشد ساعات الليل حلكـة، وهي الساعة التـي تسبق الفجر، فجر الاستقـلال المُرّ، مهما تلكأ هذا الفجر، ومهما أُقيمت أمامه أسوار الظلاميين العالية. ويُعَزِّينا أيضاً أن بطل هـذه الرحلة الطويلة الذي وُلد على هذه الأرض الشرسة، قد عاد إليهـا ليضع حجر الأساس للمستقبل، وليجد فيها راحته الأبدية، لتغتني أرض المزارات بمزار جديد.

الرموز أيضاً تتخاصم، كما يتخاصم التاريخ مع الخرافة، والواقع مع الأسطـورة. لذلك كان ياسر عرفات، الواقعيُّ إلى أقصى الحدود، فـي حاجة إلى تطعيم خطابه بقليل من البُعْـد الغَيْبيّ، لأن الآخرين أضافـوا إلى الصـراع على الحاضر صراعاً علـى الماضي، لمحو الحدود بين ما هو تاريخي وما هو خرافي ولتجريد الفلسطيني من شرعية وجوده الوطني على هذه الأرض. لكن البحث عن الحاضر هو شغل الناس وشاغلهم، وهو عَمَلُ القائد المتطلِّع إلى الغد.

وكان ياسـر عرفات الناظرُ إلى الغد والعميـقُ الإيمان بالله وأنبيائه، عميـقَ الإيمان أيضاً بالتعددية الثقافيـة والدينية التي تمنح هذه البلاد خُصُوصيتها، التعددية المضادة للمفهوم الحصري الإسرائيلي. وكان في بحثِه الديناميكي عـن الغد في الحاضر يبحث عن نقاط الالتقاء، ويشـكّل سداً أمام الأصوليات. لم يكـن تَدَيُّنُه حائلاً دون علمانيته. ولم تكن علمانيته عبئاً على تدينه. الدين لله والوطن للجميع.

مَنْ منّا لم يقف حائـراً أمام قُوّة إيمانه بالعودة القريبة. كان بصره كبصيرتـه يخترق الضباب الأسود. كنت شاهداً عليه وهو يستعد

لركوب البحر من بيروت إلى ما لا نعرف، إلى مجهول بعيد. سأله أوري أفنيري: إلى اين أنت ذاهب؟ فردَّ على الفور: إلى فلسطين. لم يصدِّق أحد منا هذا الجواب الهارب من الشعر. فلم تَبْدُ فلسطين، من قبل، بعيدة كما تبدو من هذا البحر.

كان خارجاً من حصار شارون. نجا من ملاحقة الطائرات ومن عدسة القنَّاص. ومضى في رحلة أوديسية، محملاً بنهاية مرحلة ليقول: أنا ذاهب إلى فلسطين.

أعاد ترميم الرحلة والحكاية. نجا من غارة على غرفة النوم في تونس ونجا مرة أخرى من سقوط طائرته في الصحراء الليبية. ونجا من آثار حرب الخليج الأولى، ونجا من صورة الإرهابي، واستبدلها بصورة الحائز على جائزة نوبل للسلام. وحقَّق نبوءته التي سكنته طيلة العمر: عاد إلى أرض ميعاده، عاد إلى فلسطين.

لو كانت تلك هي النهاية، لانقلبت التراجيديا الإغريقية على شروطها. لكن شارون العائد من ضواحي بيروت نادماً على ما لم يفعل، سيلاحق خصمه الكبير في رام الله، سيحاصره ثلاث سنوات، سيحول مقره أطلالاً، وسيسمّم حياته بالحصار والعزلة، وسيحرمه من الموت كما يشتهي: شهيداً في مقره. فإن شارون لا يحارب الشخص ونصَّه الوطني فحسب، بل يحارب إشعاع الرمز في الزمن، ويحارب أثر الأسطورة في ذاكرة الجماعة.

لكن ياسر عرفات، الذي يعي بعمق ما أعدّ لنفسه من مكانة في تاريخ العالم المعاصر، أشرف بنفسه على توفير وَجَع ضروري للفصل الأخير من أسطورته الحية. فطار إلى المنفى ليلقي عليه

تحية وداع، أسلم معها روحه، فالبطل التراجيدي لا يموت إلّا في المنفى. وفي طريق عودته المجازية، عرَّج ذو الهوى المصري على مصر ليسدِّد لها دَيْنَها العاطفي. وعند عودته النهائية، التي لا منفى بعدها، ألقى النظرة الطويلة الأخيرة على الساحل الفلسطيني المغروز كسيفٍ في خاصرة البحر... ونام. تدثّر الجسدُ الخفيفُ بأرض الحلم الثقيل، ونام... لا لينهض كصنم أو أيقونة، بل فكرةً حية تحرضنا على عبادة الوطن والحرية، وعلى الإصرار على ولادة الفجر بأيدٍ شجاعة وذكية.

إن صناعةً للوهم تزدهر الآن في مَكان آخر. فعلى مستويات عالمية وإقليمية يجري الاحتفال المبكر برؤية فجر كاذب، يبزغ من رحيل عرفات الموصوف بأنه كان العقبة الرئيسة أمام تقدم عملية السلام. ليكن، فما هي الرؤية الجديدة؟ سيُمْتَحن القانون الدولي والمرجعية الدولية ما دامت العقبة قد زالت، فهل سيزول الاحتلال؟ لن ينتظر العالم طويلاً ليدرك أن لاءات شارون الأربع، التي تبنّاها الرئيس الأميركي، لا تشكل العقبة الكبرى أمام السلام فحسب، بل تجعل السلام مستحيلاً، لأنها تجعل إمكانية قيام دولة فلسطينية مستقلة أمراً مستحيلاً، فلا يستوي السلام مع استمرار الاحتلال والسيطرة على مصير الشعب الفلسطيني، كما لا يستوي المؤقت مع الأبدي. فمن، بعد عرفات، سيرضى بشبه دولة مؤقتة إلى الأبد؟

سنفتقده دائماً، في الأزمان وفي المفاوضات، وفي جميع نواحي حياتنا، لأنه جزء عضوي منها، ولأنه فريد وبلا مدرسة. فالعرفاتية لا تقوم إلّا على صاحبها، لأنها موهبة خاصة، حيوية وألفة ونشاط خارق، ومزايا شخصية لا تُورث، وفوضى ونظام معاً، وعلاقات حميمة مع الناس جعلت الكاريزما العرفاتية ما هي

عليـه. بعد عرفات لن نعثر على عرفاتية جديـدة. لقد أَغلق الباب علـى مرحلة كاملـة من مراحل حياتنـا الداخلية. لكـن الباب لن ينفتح، بغيابه، على قبول الشروط الإسرائيلية التعجيزية لتسوية لم يبقَ فيها للفلسطينيين ما يتنازلون عنه. هنا، تواصل العرفاتية فعلها. وهنا، لا يكون عرفات فرداً، بل تعبيراً عن روح شعب حيّ.

في كل واحد منا ذكرى شخصية منه، وعناق وقبلة. وفي كل واحد منا وعيُ هوية لا تعاني من قلق التعريف: لن نكون فلسطينيين إلّا إذا كنـا عرباً. ولن نكون عرباً إلّا إذا كنا فلسطينيين. فهذه الهوية مستعصيـة على المراجعة والتفاوض، سواء قـام الشرق الأوسط أو لـم يقم. ولن نكون ما نريد أن نكون إلا إذا عرفنا كيف نوقف عملية الخروج من تاريخنا ومـن التاريخ الإنساني، وكيف نعود إليهما، بكل ما أوتينا من طاقات وتجارب ومواهب.

وتلك كانت محاولة ياسر عرفـات الدؤوب: الانتقال من الدور الذي تحتلّه ضحية التاريخ إلى المشاركة في صناعة التاريخ.

الراقص في حقل الألغام(*)

كلما التقيتُ باسمه، أصغيتُ إلى أُغنية صغيرة تمجِّد قِران الفُتُوَّة والوعـي، واقترانَ الـرأي بالشجاعة... ثم حزنـت، لا لأنَّ عمر الـورد قصير، بل لأن الوردةَ لم تُكْمل تفتُّحها الساطع على سياج يحترق!

كان سمير مهووساً بالسباق على طريق الغد، ليبقى الفتى الأوَّل. وكان لـه ما أراد: فإن مَنْ سَبَقَنا إلـى الغيب لن يكبر مثلنا. هناك، حول صورتـه، سيجد الزمنُ نفسَهُ، كعربـيّ معاصر، عاطلاً عن العمل!

أمّا نحن، أصدقاءه وعُشَّاقَ بيـروتَ المفجوعين، فلن نعتذر عن حلم جميـل، مهما ارتدى من أقنعة الفجر الـكاذب. ولن تُغرينا

(*) [ألقيت هذه الكلمة في أربعينية سمير قصير].

تعاليم التوازن باتهام شهيد الحرية والحب بالتهوّر، كما قد يفعل المحاسبون المَهَرةُ في مؤسسات العواطف والأفكار.

بل نسأل القاتل: أما كان في وسعك أن تكتب مقالة في جريدة تُثْبِتُ فيها أن سمير قصير على خطأ، ولا يستحقُّ الحياة في لبنان، ولا في بلد آخر؟

البراهين كثيرة. تبدأ من خلل فادح في خريطة يافا، ومن سُلالة تستقيم، على الرغم من صحّة الولادة، مع معبودات الطائفة والعائلة والقبيلة... ولا تنتهي عند حرمان الغريب من حقه في العمل اليدوي والفكري، ومن إبداء الرأي في المناخ المغيِّر في المحيط والعالم.

لم نقل له من قبل: ما أجملك! فقد كان يعرف ذلك أكثرَ مما ينبغي، ويعلنه نيابةً عنا. لكنَّ للغياب استرجاعاً لزمن أُصيب بالفصام.

في لحظة واحدة في انفجار واحد، ينقلب فعل المضارع إلى فعل ماضٍ ناقص يحتكر الذكرى، ويُنْقِصُ المكانِ. ويصبح ما بعده ظلاماً يدرك بالحواسّ الخمس... فبأيّ قلب أُناديه: يا صاحبي! لماذا جعلتنا نحبك إلى هذا الحد؟

لم نجتمع إلا لنضحك من امتلاء النرجس بالحكمة. فالطفلِ المعجزة -كما سمّيناه- كان سعيداً بأن يكبر كاتباً ومثقفاً وعاشقاً، دون أن يتخلّى عن خصوصية اللقب الذي يضمن له صورةَ يوسف بين إخوته، وسيرةَ الفارس المنذور للدفاع عن حرية غريبة الأطوار، وعن ديمقراطية شاذّة.

سميـر قصير، الراقص الرشيق في حقـول الألغام، الساخر من كل انسجام مـع عبودية مفروضة أو مختارة، هـو أحد أسماء التفوُّق على صَدَفة الهوية وعلى التخصّص في مُدَوَّنة واحدة. لذلك صدَّق أن في وسع الفلسطينـي أن يكون لبنانياً، وأن في وسع اللبناني أن يكـون فلسطينياً عربياً، وأنَّ من واجـب العربي أن يكون مشاركاً بالتفكير – على الأقل – في التداعيات التي تتركها انقلابات العالم المعاصـر على ما يُعَدُّ له من مصائر. وصدَّق أن ثقافة الديمقراطية لا تنتهك –بالضرورة– مقدساتِ التراث القومي!

لذلك لم يقع في شَرَك السؤال الزائد عن حاجتنا إلى الوجود: مَنْ أنـا؟ فهذا المواطن المتعدِّدُ المتجـدِّدُ المتنوِّرُ المتطور لا يحتاج إلـى برهان على شرعية الأمّ. لم يقاوم الأصولية بأصولية مضادة، ولا الطائفيـة بطائفيـة مُضْمَرة. هويَّتُهُ مفتوحـة على غدٍ ينبغي أن يكـون مفتوحاً للجميـع، وعلى حداثةٍ لا معنى لهـا –في شرطنا التاريخي– إلّا بارتباطها بمشروع تحرر شامل المستويات:

من حـق الطفل فـي مساءلة أبيه إلى حـقّ المرأة فـي خلع الرجل، إلـى حق المواطن في تغيير الحاكم، إلى حـق الفرد والمجتمع في مقاومة الاستبداد والاحتلال، معاً، إلى حقِّ الشاعر في التخلُّص من الانضبـاط للقافية، إلى حق الحالمين بأن يحلُموا بأنهم أحرار، إلى حق الكاتب في التمييز بين معنى الموت ومعنى القتل!

ألهذا استحقَّ سمير قصير القتل؟

ملءُ قلبي هجاء لسادة هذا الزمن الذي لا يُسأل فيه عن اسم القاتل، بل يُسأل عـن اسم القتيل التالي. كأن القاتلَ هـو الغامضُ الثابت،

والقتيلَ هو الواضحُ المتغيّـر. وهكذا تتحول شخوص المسرحية الدموية جمهورَ مشاهدين يتفرجون على مصائرهم المدوّنة، ويتحول جمهورُ المشاهدين شخوصاً في مسرحية لم يقرأوا نصَّها.

وملءُ قلبي رثاء مادح لمن كتبوا بالجمر أحلامهم، دون وَجَل من ضُبَّاط الليل، أو خجلٍ من عورة الحقيقة.

وملء قلبي بكاء مالح على لبنان الجميل، الذي أُشبعَ بلاغةَ مديح لا يريده، واخْتُزل إلى حد الخَنْق بصور مستوحاة من أغنياتٍ عن براءة ريفية، ومشهدٍ طبيعيّ لا يرى منه العابرون إلّا الأخضرَ المُصفَّى بأبدية الأزرق. أما الأحمر الدامي فلا يراه غيرُ الموغلين في كتابة المستقبل، وملاءمة الصورة مصدرَها. لقد نزف لبنان، الحائرُ المحيِّرُ، كثيراً من الدم لصوغ هويته التعددية، وللخروج من ثقافة الطائفة والعائلة إلى أفق أرحب، فإلى أين؟ إلى أية هاوية يجره الخائفون من خصوبة الهوية ومن فتنة الأمام؟ إلى أيِّ وراءٍ يريد أن يرجعه مهندسو الظلام؟

يقول المجاز الأكيد، إنها ساعة المخاض الطويلة. وإن الحرية، على ما فيها من جاليات، قد تتوحَّش ليلة العرس، وتتعطَّشُ إلى دم عُشَّاقها. فذلك هو حنّاؤها الباذخ قبل انصرافها إلى شؤون التدبير المنزلي.

وسمير قصير هو واحد من أجمل هؤلاء العُشَّاق.

شاعر نادر(*)



في أُمسية غيابٍ كهـذه، وفي المكان هذا، كُنَّا في العام الماضي ننثُـرُ ورد الحبِّ على اسـم الراحل ممدوح عـدوان. لم يحضر محمد الماغوط كاملاً، لعجز عُكّازه عن إسناد جبل. لكنه حضر صورةً شاحبة وصوتاً مُتَهدِّجاً، ليذكِّر بأنَّ للوداع بقيّة.

ذهبنـا إليه في صباح اليوم التالـي. كانت العاصفة مسترخيةً على أريكة، تشرب وتَضْحكُ وتدخِّنُ وعانق زوارها. كانت العاصفة فَرِحـةً بما تبقّى فيها من هواء وضيوف، ولا تأسف على ما فعلت باللغة وبالنظام الشعري. فهي لا تُعْرف إلّا من آثارها عندما تهدأ. هدأ الماغوط ونظر إلى آثاره برضا الفاتح المرهق.

قُلْنا له وقال لنا ما يقول العارفون بأن اللقاء وداع. وضحكنا كثيراً

(*) [في ذكرى محمد الماغوط].

لنُخْفِـيَ خوفاً أثارَهُ فينـا انكبابه على ترتيـب الموعد القاسي مع سلامه الداخليّ، فمثل هذا المحارب لا تليق به السكينة.

لكنـه لم يكن حزيناً ولا خائفاً مما يتربّص به. وَضَعَ الماضي كُلَّه على المائـدة، ووزَّع علـى كل واحد منا حصَّتَهُ مـن الذكريات والمـودة. قرأ لنا ما يدوّن من خواطر يومية عاجلة، فهو في سباق مع معلـومٍ يشاغلـه بالطرق على فـولاذ المجهـول... وحيَّاني بقصيدة، فخجلتُ وقلتُ في نفسي: لماذا لم يصدِّقني من قبل؟

وهو، الذي لا يحبّ الإعلام، ابتهـج بوصول فريق إذاعيّ، رُبّما ليعْلِـنَ وصيَّتهُ الأخيـرة على المـلأ: أوصيكم بالحـب... فهذا الغاضـب من كل شيء لـم يغضب إلّا لأن الحُـبَّ في هذا العالم قد نضـب. ولم يغضب إلّا لأن زنزانة هـذا العالم ما زالت تَتَّسع لسجيـن رأي مختلف. ولأن أرصفة هـذا العالم ما زالت تزدحم بالفقـراء والمشرّدين. ولم يغضـب إلّا لأن لفظة الحرية، بمعناها الشخصـي والعـام، ما زالـت مُسْتَعْصِيَـةً على العـرب والعاربة والمستعربة... والإعراب!

فوجئنـا بصحافـي يسألنا بـلا رحمة: هـل جئتم إلـى الماغوط لحضور جنازة مُبكرة؟

تحسَّس كلٌّ واحد منا قلبه وتلعثم، إلّا هو، هو النسر الوحيد في ذِروتـه، ملتفاً بكبرياء الأعالي وبمصاهرة البعيد. لم يكن سؤال الموت سؤالَهُ ما دام يكتب... ففي كل كتابة إبداعية نصٌّ صغير على الموت، وهزيمةٌ صغرى أمام إغواء الحياة التي تقول للشاعر: هذا لا يكفي، فما زالت القصيدة ناقصة!

وكنا نعلم أننا جئنا للقائه لنتدرب على وداعه.

رحل الماغوط، ونقص الشعر. لكنه لم يأخذ شعره معه كما فعل الكثيرون من مجايليه الذين صانوا سلطتهم الشعرية في حياتهم بحُرَّاس النقد والأحزاب. فهذا الوحيد الخالي من أية حراسة نظرية وتنظيم إعلامي، لم يراهن إلّا على شعريته وحريّته، وعلى قارئه المجهول الذي وجد في قصيدته صدى صوته وملامح صورته، بعدما أقامت كلماتُهُ المكتوبةُ بالجمر جسر اللقاء بين الذات والموضوع، وبين الذات وما تزدحم به من آخرين.

وهو، هو الذي جاء من الهامش واختار هامش الصعلوك، كان نجماً دون أن يدري ويريد. فالنجومية هي ما يحيط بالاسم من فضائح. وشعره هو فضيحتنا العامة، فضيحة الزمن العربي الذي يهرب منه الحاضر كحفنة رمل في قبضة يد ترتجف خوفاً من الحاكم ومن التاريخ. حاضر يقضمه ماضٍ لا يمضي وغد لا يصل. كم أخشى القول إنَّ الزمن الذي هجاًه الماغوط ربما كان أفضل من الزمن الذي ودّعه. فقد كنا ذاهبين، على الأقل، إلى موعد مرجأ مع أمل مُخْتَرَع. لا بأس من أن يكون ماضينا أفضل من حاضرنا. ولكن الشقاء الكامل هو أن يكون حاضرُنا أفضل من غدنا. يا لهاويتنا كم هي واسعة!

رأى الماغوط الهاوية فخاف. خاف بشجاعة المقاوم. فنظر إلى الأفق بعيون الشاعر الطائر، فخاف ثانية، وقاوم الخوف برؤيا الشاعر الحالم. فماذا على الشاعر أن يفعل غير أن يُخْلص مرَّتين: مرةً لانتمائه إلى الواقع، ومرة لتجاوز الواقع بالخيال وبصناعة الجمال؟

لكن هـذا الخائف على عفوية الحياة، وعلـى العلاقة السرّية بين الأشيـاء والكلمـات، رأى الخوف كما تُرَى المـواد الأولية لبناء الكابوس، فقاومه بحريـة الكلمات في تحرير صاحبها وقارئها، وقاومه بالتخلّـي عن حنين اللغة على ماضـي أطلالها وقصورها معـاً، وبفروسيةِ مَنْ لا يملك شيئاً ليخسره، وأكاد أقول: بمغامرةِ يأسِه اشتقَّ الأمل لغيـره، فأخاف ما يخيفه، كما تخيف الملحمة الشعرية الموت المتربِّص بأبطالها وقرائها الخالدين. لقد أخافت لغة الماغوط الساخنةُ الساخرةُ الجميعَ من فرط قوة الهشاشة في أعشابها، ومن فرط دفاعها عن حق الوردة في حماية خصائصها.

وهـو فضيحـة شعرنـا. فعندما كانـت الريـادةُ الشعريـةُ العربية تخوضـ معركته حـول الـوزن، وتُقَطِّعـهُ إلى وحـدات إيقاعية تقليديـة المرجعية، وتبحث عن موقع جديـد لقيلولة القافية: في آخـر السطر أم في أوّله... في منتصـف المقطع أم في مقعد على الرصيف، وتستنجد بالأساطير وتحار بين التصوير والتعبير، كان محمـد الماغوط يعثر علـى الشعر في مكان آخـر. كان يتشظّى ويجمـع الشظايا بأصابع محترقة، ويسـوق الأضداد إلى لقاءات متوتـرة. كان يُدْرِكُ العالـم بحواسّه، ويُصْغي إلـى حواسه وهي تُمْلي على لغتـه عفويتها المُحَنَّكة فتقـول المدهش والمفاجئ. كانت حسيَّتُهُ المرهفة هي دليله إلى معرفة الشعر... هذا الحدثِ الغامضِ الذي لا نعرف كيف يحدث ومتى.

انقضَّ على المشهـد الشعري بحيـاء عذراء وقُـوّة الطاغية، بلا نظرية وبـلا وزن وقافية، جـاء بنصّ ساخن ومختلـف لا يسميه نثـراً ولا شعراً. فشهـق الجميع: هذا شعر. لأن قـوة الشعرية فيه وغرائبيـة الصور المشعة فيه، وعنـاق الخاص والعام فيه، وفرادة

الهامشـيّ فيه، وخُلُوَّهُ من تقاليد النظـم المتأصِّلة فينا، قد أرغمنا علـى إعادة النظر في مفهوم الشعر الذي لا يستقر على حال، لأن جِدَّة الإبداع تدفع النظرية إلى الشكّ بيقينها الجامد.

لم يختلف اثنان على شاعرية الماغوط، لا التقليدي ولا الحداثي، ولا مَـنْ يودّ القفز إلى ما بعد الحداثـة. حجتهم هي أن الماغوط استثنـاء، استثنـاءٌ لا يُدْرَج فـي سياق الخلاف حـول الخيارات الشعريـة. لكنها حجة قد تكون مُخاتِلَة، فما هي قيمة الشاعر إذا لـم يكن استثناء دائمـاً وخروجاً عن السائـد والمألوف؟ لذلك، فنحـن لا نستطيع أن نحبَّ قصيدة الماغوط ونرفض قصيدة النثر التـي كان أحـد مؤسِّسيها الأكثـرَ موهبة. وإذا كانـت تعاني من شيوع الفوضى والركاكة وتشابه الرمال، على أيدي الكثيرين من كُتَّابها، فإن قصيـدة الوزن تعاني أيضاً من هذه الأعراض. الأزمة إذاً ليست أزمة الخيار الشعري، بل هي أزمة الموهبة، أزمة الذات الكاتبـة. فنحن القـرَّاء لا نبحث في القصيـدة إلّا عن الشعر، عن تحقق الشعرية في القصيدة.

سرُّ الماغوط هو سـرّ الموهبة الفطرية. لقد عثر على كنوز الشعر فـي طين الحيـاة. جعل من تجربتـه في السجن دلالـة وجودية. وصـاغ من قسوة البؤس والحرمان جماليات شعرية، وآليةَ دفاعٍ شعري عن الحياة في وجه ما يجعلها عبئاً علَى الأحياء.

وهو الآن، في غيابه، أقل موتاً منا، وأكثر منا حياة!

يد ترى، وقلب يرسم(*)

إذا كانت حياةُ الفنّان المستمرةُ هي أعماله التي تُجدِّد حياتها بمنأى عنه، فنحن اليومَ وغداً لا نُودِّع إسماعيل شموط... بل نستقبله عائداً من معركتين منتصراً:

الأولىـ صراعُ الفنِّ مع الموت القادرِ على إتْقان مهنته الأبدية، والعاجزِ في الوقت ذاته عن تعريف الخلود الذي لا شأن له به. فالخلود هو صناعة الفنان، آثارُهُ التي نُحدِّق إليها مُنْبَهِرينَ بتحوُّل المخلوق إلى خالق.

والثانيةـ هي صراع الفن مع وحشية التاريخ الذي اقتلع بجرافته العملاقة شعباً من جُغرافيته، وألقى بفتىً يافع إلى البريَّة، مُحَمَّلاً بسؤال ما زال يطاردنا: إلى أين؟

(*) [في ذكرى إسماعيل شموط].

هـل كان الفتى يعلم أنَّ بوسع ريشته الطريَّة أن تُعيد بناءَ ما انكسر من المكان والزمـان؟ ألموهبة تسبق وعي المهمة. ومن التجربة وُلـدت هذه الموهبةُ التي أدركت في ما بعد أنَّ عليها أن تخوض حرب الذاكرة ضد النسيان. وانتصر الفنانُ على ما أُعدَّ له ولشعبه من مشروعِ خروجٍ من التاريخ إلى التيه والنسيان.

نحن هنا، إذن، للاحتفال بقدرة الروح الإبداعية على الاختراق، وعلى تعميم الرجاء والعزاء لموتى لم يموتوا، ولأحياء لم يضيقوا ذرعـاً بحياتهم. نحن هنا لتحيـة إسماعيل شمـوط، لا لأنه كان رائـد الفن التشكيلـي الفلسطينـي، كما دَرَجْنا علـى هذا القول السهـل الذي لا معنى، فنيّاً، له، ولا لأنـه أقام أول معرض للرسم الفلسطينـي، ولا لأنه كان رئيس اتحاد التشكيليين العرب، فتلك أوسمـة تليق بجنرال متقاعد، لا بفنان أمضى أكثر من نصف قرن فـي البحث عن هوية فنية متداخلة مع هوية شعب حُرم من التأمُّل الحرّ في ذاته الإنسانية خارج ما أُعدَّ له من مصائر.

إسماعيـل فينا سيرة ومسيرة. ذاتٌ ذابت في الموضوع، وأقامت الموضـوع فـي الـذات، ومن فرط ما هُـوَ هُوَ وليس هـو في آن واحد، خُيِّل إلينا نحن المُثَبتين في زَيْت اللوحة، أننا شظايا قصائد أعاد الفنان تشكيلها وتجميعها في إطار.

لا يحتـاج الفلسطيني كثيراً إلى صرامة النظرية ليتساءل عن علاقة الشخصـي بالعام، وعن تحديد مفهوم الالتزام، فهو يولد متورطاً بالسليقة. في كل سيرة شخصية سيرةٌ عامة. وفي كلِّ فردٍ جماعة. يكفي أن يتذكر إسماعيل طفولتـه في اللد ليرسم جمالَ الطبيعة، وهجرتَـهُ ليرسم أحـزان النكبـة، وصباه بائعاً متجـولاً للحلوى

ليرسـم الشجن، وتلَّ الزعتـر ليرسم المأسـاة والبطولة، وحصار بيروت ليرسم الصمود والغضب، وصبرا وشاتيلا ليرسم الضمير الدولي طعاماً للكلاب الضالة، والانتفاضة ليرسم الأمل. ويكفي أن يتذكر الغد ليرسم المرأة.

فـي الذاكرة فردوس مفقود. وفي الواقع، لا مكانَ للفرح الصغير إلّا إذا مـرَّ يومٌ واحد بلا مجـزرة. عندها يرتاح اللونُ الأحمر من الصراخ ليتقدمَ أصفرُ الأقحوان بحياء إلى اللوحة. كأنَّ إسماعيل لصّ نبيـل يتربَّص بفرح قليـل... فيه من جمال السـراب وعدُهُ بالعطش.

ألهـذا تطـلُّ مـن سكتشاتـه الشفَّافة امـرأة عاريةٌ كطيـفٍ سريع الاختفاء، لا خوفاً من تمام، بل خوفاً من مشاهدين ظنَّ إسماعيلَ أنهـم لن يغفـروا للفلسطينيِّ المُنَمَّـط اختلاسَ النظـر إلى رخام أنثويّ فاتن؟

هنا، ينقضُّ علينا السؤال: هل قُدِّر للجماليات أن تبقى أسيرة التراجيديات؟ ليس هذا قلقي وحدي، بل قلقَ إسماعيل الذي رسم لنا صُوَرَنا المتحوِّلة، فرسمنا له صورته الثابتة. كم حاول أن يتمرد علينا وعلى نفسه، وأبقى تمرده سِرّاً للقلق. وحاول أن يغيِّر ويتغيَّر فعدَّد أشكاله وألوانه وغيَّرها داخل الثابت المتوقع. لا هنا إلّا هناك. لم يسعَ إلى تحرير الذات المُبدعة من موضوعها، بل حاول أن يوسِّع ضفاف الموضوع لتتَّسع لِما في الذوات الفردية من تعدّدٍ وتفرّد وطبائعَ ونوازع ليست كُلُّها وطنيةً بالضرورة. لكنه توجَّس من سوء فهم يضع حواجز التمييز بين الوطني والإنساني، ولا يرى مجالاً حيوياً للهوية الوطنية خارج الصَدَفَة،

من فرط ما تتعرض له هذه الهوية من تهديدٍ خارجها.

هل حُكم علينا بأن ننهمك إلى ما لا نهاية بتقديم البراهين على أننا نحن نحن، وعلى أننا كائنات بشرية لا أشباح، وعلى أن لنا بلاداً هي أرض لا بطاقةٌ بريدية؟ ربما... ربما. ولكن في وسع الفن أن يستبدل البرهانَ بالبديهة، وأن يتساءل: إلى متى يظلّ الوطنُ في حاجة إلى براهين جمالية وإلى متى يظلّ الفن في حاجة إلى براهين وطنية؟ قال رسام فرنسي: «إن البراهين تُضجر الحقيقة». ومن سوء حظنا التاريخي أن هذا القول قد لا يَخُصُّنا.

هل لنا أن نسأل إن كان إسماعيل شموط قد ضَحَّى بإمكاناته الفنيَّة الهائلة من أجل البرهان؟ كلا. الأصح هو أن نقول إنه كرّس طاقاته الفنية وحياته كلها ليؤرِّخ للتراجيديا الفلسطينية المستمرة، بلوحاتٍ تشهد على بطولات شعب حوَّل اليوميَّ إلى أسطوري بصموده أمام مشروع الموت السياسي، وبشَبَقِهِ إلى حياةٍ لا تُعرَّف ماهيّتُها إلّا بالحرية. وتشهد على قوة الروح الإبداعية المنتصرة على الزائل بالخالد. فصار إسماعيل أيقونة فنية ووطنية. صار الرسام هو اللوحة.

لا يأذن إسماعيل لأحد منّا بأن ينساه، فهو المُواظِب على الصداقة مُواظَبَتَهُ على العمل، يتفقَّدُنا في كل مناسبة. لا يرحم قلبه المفتوحَ كحديقةٍ عامة من أعباء الحب. هو الصديق الدائم المبتسم المتواضع المحتشم كعشبة. كان صديقي إلى حدّ أنه لم يسألني لماذا لم أُعلِّق لوحةً له على أحد جدراني المتنقّلة. وكنتُ صديقه إلى حدّ أنني لم أسأله لماذا لم أر كتاباً لي في بيته. وكان لصداقتنا مكانٌ ولادةٍ بعيد: صوفيا. هناك التقينا منذ حوالي

أربعين عاماً، وتآخينا كجناحيْ طائر: أنا القادم من أرض ذاكرته، وهو القادم من مستقبل منفاي. وكلما التقينا تذكرنا صوفيا كأننا بلغاريان منفيّان!

وفي بيروت، مع شفيق الحوت وسائر الأحبة، صرنا أُسرة واحدة منكبة على قراءة أحوال الغيب والغد، سالمين من عدوى الوهم تارة، ومصابين بتداعياته تارةً أخرى. وفي بيت إسماعيل، نسمع أزيز الرصاص القادم من حماسة جامعة بيروت العربية، ونواصل الاستماع إلى الموسيقى والشعر. وبينما يصمت زوجا الكناريّ العاشقان، تواصل أسماك الحوض الملونة سباحة النوم. أما سمسم السعدان الذي اكتفى من لغة البشر بالإشارات الخائبة، فقد لجأ إلى روضة أطفال لتعليم الإشارات بعيداً عن لغة الرصاص.

افترقنا، دون أن أسأل إسماعيل: لماذا لا يرسم سمسم والسمك وزوجي الكناري؟ ودون أن أقول له: حافظ على الذاتي، ولو قليلاً، من جَشَع الموضوع. ودون أن يقول لي: حافظ على الموضوع من جنوح الاستعارة.

إسماعيل شموط: يدُهُ هي التي ترى

وقلبه هو الذي يرسم!

صديقي العابس

جوزيف سماحة، صديقـي العابس، كان يفاجئنا أحياناً بابتسامة مـا، في آخـر الليل، لا تبلغ حـدَّ الضحـك. وكان يفاجئنا أحياناً باختفاءٍ ما في جزيرة بعيدة. لكننا لم نتوقع أن يفاجئنا بالسفر إلى لندن، ليَعبث بنا كما لو كان مؤلفاً تراجيدياً يرقد في نصّه المعتم، على مرأى من مشاهدين أُغمي على بعضهم من الصدمة.

هـو، ليس كذلك. لم يكن ساخراً إلى هذه الدرجة. فهو الذي لا يضحك ولا يبكي.

كل شـيء فيـه كان معـدّاً لحبّ الحيـاة بفجورهـا وتقواها: قوة حصان لم يمرض. وبسالة فارس لم يترجّل، وأملٌ جَشِعٌ لا يتوقّف عـن الثرثرة. وبصيرة مثقف لا يؤجِّل كلمة اليوم إلى الغد. مناضل وبوهيمي. صديقُ الوحيدات في الليل، ورفيق العاطلين عن العمل والبهجة. حيويّ ذكي يبحـث عن الاختلاف في كل شيء، وعن

الخصومة على كل شيء، لأن الإجماع من صفات القطيع.

رفع المقالة اليومية والأسبوعية إلى مستوى الأدب السياسي الرفيع، ببهاء العبارة ودهاء الحجة. لم يستطع أحد، حتى من خصوم، تجاهل ما يكتب. ما يكتب ليس خاطرة عابرة. في ما يكتب تحريض على التفكير. وفي ما يكتب كثافةُ معرفةٍ وإحالاتٌ إلى مراجع ومصادر، يومية وموسوعية. مقالته التي تحلِّل الخبر والحدث صارت هي الحدث والخبر.

هو الحائر الخلاّق الذي لا يَكُفُّ عن الشك في اليقين. عدوّ الجمود الفكري والعقائدي والسياسي، تقلباته الفكرية هي سرّ حيويته، وهي التعبير عن حيرة المثقف الباحث عن الحقيقة في فوضى التحولات. لكنَّ فيه ثابتاً لم يتعرض للمراجعة: هو عداؤه النهائي للمشروع الإسرائيلي، بتفرعاته الإقليمية والدولية. وعداؤه للاستبداد الكوني الذي تمثله الهيمنة الأميركية.

مقالاته في الحرب والسلم تحمل تعقيد المفهومين: فليست الحرب، في حقول النفط وعلى حافة الترسانة النووية، نزهة بلاغية. وليس السلم ممكناً. لكن المقاومة ضرورية وممكنة.

بيروت ناقصة بعده. صباحها ناقص وليلها ناقص. وثقافة المقاومة نقصت أحد منظّريها لكبار. وحياتنا ناقصة: فمن يزيدنا ذكاء كلما حاورناه وشاكسناه. وأحببناه أكثر؟

جوزيف نائم، ولا يستطيع أحد إيقاظه، لأن نومه، هذه المرة، عميق. لكن ذكراه صاحية.

III- ولادة الشعر العسيرة

مَطَرُ السَّياب(*)

كنت أنتمي إلى جيل وقف مذهولاً أمام فوضى القيامة. فقد انكسر المـكان، بما فيه من سيرة وكائن، وأحـدث ما يشبه القطيعة بين الذات وأبعادها، وما بين الحاضر والأمس. وحين كنا نتطلع إلى مصائرنا القادمة إلينا، واحداً واحداً، كان شكل الجماعة يتكثف كالشبح القادر على امتلاك المكان، وعلى مغادرته في آن واحد.

أمـا الصراخ الذي لا بد منه، كما يحدث عادة في ليل الكابوس، فلـم يكن كافيـاً إلّا للتأكـد من بقـاء الحواس في مجـال عملها المتبدل.

جيل مرمي على كواهله: عليه هو وحده أن يكون العناصر الأولى

(*) شهـادة قدمهـا الشاعر في ندوة حـول الذكرى الثلاثين لرحيـل السيّاب، أقامها معهد العالم العربي في باريس.

لتكوين حياة متخيّلة، على مرأى من الحياة الواقعية. وعليه هو أن يكون المُكون.

لعل ذلك كان هو الإرهاص الأول لحاجتنا الإنسانية إلى معالجة البـكاء بالغناء. ولعـل ذلك كان الإصغـاء الأول لضرورة الشعر. ولكننا كنا محرومين من إمكانية اللعب البريء، في الوقت الذي كنا نفتقر فيه إلى مهارة اللعب بالكلمات وفي الكلمات.

كانـت اللغة التي ورثناها، بلا انتظام، قـد بلغت حدّ الإشباع في وصـف ما لا يقترب من وصـف حالتنا الجديـدة. ولكنها هي، تلـك اللغة، مـا يُشير إلى هويتنـا وإلى شكل وجودنـا ونسيجه. وفيهـا، لا في الواقع الطارئ، نعثر على دفاع الجسد عن الروح، وعن حاجة الروح إلى جسد.

وهناك، كثيـراً ما التقى الواقع باللاواقع، واندفعت الحادثة اليومية إلـى البحـث عـن شخوصها في مـا يُحاذيها مـن أساطيـر تُغري المشاهـد باحتضان الماضي الذي لا يمضي، ليواصل الزمن نسق إيقاعه المنتظم، ولنتمكن من الإقامة على تلك الأرض التي انتقلت فينا من وظيفتها الرومانسية إلى احتلال مرتبة الجوهر المُقدس.

لكن للشعـر أيضاً أسئلته المركبة، أسئلة لـم نواجهها في البداية: كيـف يمتلك وجوده التاريخي بتعبيره عـن لحظته التاريخية من جهـة، وكيف يمتلك ما يتيح له الإفلات من ضغط الراهن ليعيش في لحظة تاريخية أخرى؟

لم يكن جيلي المحاصر ثقافياً، آنئذ، شديد الإصغاء لدويّ الانفجار العميق في الحيـاة الثقافية العربية، وفي بُنيـة القصيدة الباحثة عن

ذاتها الجديدة ورؤياها الجديدة، في علاقتها وتعبيرها معاً، بالبنى العربيـة المحتقنة بالصـراع الاجتماعي والطبقـي والوطني. ولم يكن أيضاً شديد الإصغاء لصراع الخيارات الشعرية وتوتّر البحث عن مرجعيات التجديد.

لـم يتجاوز سؤالنـا الشعري مساحته الموضوعيـة: جدل العلاقة بيـن النص والواقع. «على الشعر أن يُعبّـر وأن يحرِّر، أن يُعَبِّر وأن يغيِّـر» – تلك مساحة رحبة تتسع لمـا لا نهاية له من الخلاف أو الاختلاف بين أبناء جيل كان يبحث بسليقة الممارسة لا بالمعرفة، عمَّـا يُحرِّره ويحـرر لغته من القهـر ومن التقليد، وعـن انسجام مُحكم بين الجمالية والفاعلية.

ولـم يكن الصـدى، الذي يختـرق الحائط بين الداخـل الثقافي الوطنـي وبيـن الخـارج العربي، كافيـاً لتطويـر أسئلتنـا الأولية ووضعهـا في سيـاق العمليـة الشعريـة العربية، التـي كانت تتم فيهـا ولادة الجديد من ذاته التاريخية ومـن علاقتها بالآخر، عبر استيعاب محاولات التجديد المتداخلة وتجاوزها.

ولكن صدى السيّاب، ذا الرجع المتدفق، كان كافياً، إلى حدّ ما، لتوليد الرغبة في إحداث قطيعة ما بين لغة الماضي من جهة، وبين الرغبـة في امتلاك أرض الماضي باللغة، عبر إدراك شعري جديد لحركة المعنى ولشكل هذه الحركة.

تعرَّفتُ على شعر بدر شاكر السيَّاب، دفعة واحدة من خلال عمله الكبير «أنشودة المطر»، فعثرتُ على ضالة المثال الشعري دفعة واحدة. اخترقني النهرُ ولم أعُدْ بعد القراءة، منْ كُنْتُهُ قبل القراءة.

كانت الفتْنَةُ والجرح يصعدان بي إلى نقاط التقاطعِ الغامضة التي يتحقـق فيها الشعر، ثم يتكتمُ على سرِّه ليبقى مطلباً، ولتبقى غاية الشعر الخاصة هي الشعر.

كان هذا المؤسس الأكبر يزوّدنا إبداعياً بما يُـؤرق الحدس ويضيئه، كيف يكون الشعر فعلاً، بتفجير طاقته المشعّة على خلق شعائره الخاصة، وإطلاق الحلم إلى حُرّيته الأقصى، انسجاماً مع توق الإنسان إلى تجاوز كل ما يُعوق إنسانيته من ناحية، وكيف تحرر هذه الرؤيا ذاتها بتحرير أدوات التعبير عن ذاتها من فتنة التراث الشعري من ناحية أخرى. أي كيف تدرج مسألة الشكل، واللغة، والعروض في سياق هذه الرؤيا؟

جاءنـا صـوت السيَّـاب الفردي، وقـد اكتملت فيـه العلاقة بين رمـوزه الشخصية وأسماء مكانه الخاصـ وبين عناصر أسطورته الجماعيـة، التي وجدت مدارها في حركة الكون، التي لا تعرف السكـون. وقرأنا فيه الشهادة الأنضج علـى حركة الزمن العربي وعلى ما يعتمـل في باطن الواقع وظاهره من صـراع. وقرأنا فيه نصَّ الفضاء الذي كشف عنه السيَّاب أمام حركة القصيدة العربية الحديثة، وقد تأسست لا في الكتابة وحدها، بل في القراءة أيضاً: فقـد استطاعت قصيدة السيَّاب، أكثر مـن سواها، ترسيخ شرعية الشعر الحديث في ذائقة القـارئ وفي وعيه الثقافي، باستجابتها إلى شروط تجديد لا تسبِّب الاغتراب ولا القطيعة مع تاريخها.

إنها قصيـدة قادمة من قدرة اللغة على تجديـد حيويتها وحركتها، وعلى التذكيـر بذاكرتها المُشعَّة بجماليات عربيـة لا تَنْتهكُ، كما يشيـع البعض، متطلبـات الحداثة. إنها قصيـدة تتمثَّل روح الزمن

الجديد بفتح بنيتها على إيقاعه، وبقدرتها على بناء أسطورتها المعاصرة، من ذاتها، لا بالاعتماد الدائم على رموز أسطورية قادمة من خارجها، وبتطوير إمكانيات التفعيلة بمرونة لا توقظ الرتابة ولا تستغني عن ضرورة المتعة، وبرؤيا حديثة لا تحتاج إلى افتعال خصومة بين طرفي الفعل الشعري: الفاعلية والجمالية.

لقد أسهم شعراء كثيرون قبل السيَّاب ومعه وبعده، في إنجاز عملية التحول التدريجي والتراكمي التي أدت إلى ما وصل إليه المشروع الشعري العربي الحديث، وانفتاح القصيدة العربية على إمكانيات تطور لا حدود لها. ولكن، لعلنا ما زلنا قادرين على المجاهرة بأن لبدر شاكر السيَّاب، ذي الموهبة الجارفة والقلق المعرفي، الدور الإبداعي الأبرز في تحقيق الطفرة. إذ، لا يعنينا من عملية التأسيس أيُّ جدول زمني، من كتب التفعيلة قبل الآخر؟ بقدر ما يعنينا تحقق التأسيس في الإنجاز الإبداعي. ولعلنا قادرون على القول أيضاً إنَّ مرحلة الازدهار السيّابي، القصيرة زمنياً، ما زالت تحمل القسمات الأساسية لحركة الشعر الحديث في تطورها اللولبي. وإنَّ البذور التي تركها السياب في حقل التجربة الشعرية العربية ما زالت تنبت في هذا الحقل الواسع، وما زال مطر السيَّاب يتساقط على جفاف أيامنا. لا لأننا ما زلنا نقرأ في شعره لحظة تأزمنا التاريخية، بمستوياتها الاجتماعية والفكرية والسياسية، وترددها أمام حيرة الاختيارات فحسب، بل لأن المرحلة الانتقالية الواسعة التي يمثِّلها السيَّاب بين ماضي الشعر العربي وبين مستقبله ما زالت مفتوحة أيضاً للمزيد من الأسئلة.

وما زلنا نقرأ فيها أيضاً مناطق الاضطراب الشعري التي تتميز بها حركة الأنهار العنيفة، كأن تضطرب العلاقات التبادلية بين

عناصـر القصيدة، وكأن يفيض الشعر عن حدود القصيدة، وكأن تفتك الأسطـورة المستعارة بحركة نمو القصيـدة، وكأن يستبدّ الحنين القديم بالقافية، فتـدور على نفسها، وغيرها من الظواهر التـي تتسـم بها البدايـات الكبرى عـادة، ولكنها أسئلـة ما زال السيَّاب قادراً على إيقاظها فينا.

لم أتعرف على السيَّاب الشخص، فليس في وُسْع جميع الأبناء أن يتعرفوا إلى آبائهم الشعريين الشرعيين – وهذا حسن رُبما. بيد أن صورة هذا الصوت القلق، الحزين، المريض، ابن بويب وخالقه، ابـن جيكور ومؤسسهـا، ابن العراق وجرحه، ابـن تاريخ الشعر العربي ومحوِّل مجراه، هي أحد أسماء مرآتنا، التي تعكس حنيننا الجارف إلى وضع رموزنا الشخصية في مكانها من نظام الكون، على أرض الأسطورة المهدَّدة بالسقوط، لنقنع أنفسنا مرة أخرى بجدوى هذا العبث الجميل، وبأن الشعر ما زال ضرورياً وما زال ممكناً، ولنجدد إقامتنا على الأرض: أرض اللغة، ولغة الحلم.

هل ما زال الشعر ضرورياً؟(*)

ليس من عاداتنا أن نكرّم الأحياء، لذلك ساورني خوف من نفسي، فلعلي اقترفت موتاً دون أن أنتبه إلى أن تلك الحادثة، التي أردتها أن تكون سرّية، قد بلغت مسامعكم.

أليست تلك هي فضيحة الشاعر الذي لا يكتفي بالإفلات من صورته في عملية الإنصات على صخرة ولادته من ذاتها، لا لأن قطيعة أريد لها أن تكون كاملة قد دفعته إلى أن يكون «آخَر» أناه، بل لأنّ أناه ذاتها لن تكون إحدى ممتلكاته الخاصة مهما حاول ذلك. فبقدر ما ينقّب هناك، بقدر ما يدفع إلى كتابة تكوين فوق التكوين، وإلى شدّ البداية إلى بدايتها، فيجد نفسه هناك، في رجع الصدى البعيد الذي يزوّد نشيده بمشترك العزلة الجميلة على

(*) [كلمة الشاعر في اختتام ندوة نقدية تكريمية في مدينة قفصة التونسية، 1995].

الأرض، وقد أقام –راحلاً– في خيمة الوجود الشعري، دون أن يتمكن من الإقامة الجسدية على أرض هويته الخاصة.

تلك هي أرضي، أرض سمائي. ولست مكلّفاً إلّا من الغياب بكتابة أسماء حضورها الجغرافي والثقافي والحضاري والإنساني، في كتابها، وفي كتاب الشعر العربي. وهل هي كتابة على كتابة سابقة؟ ربما... فلست إلّا ما أعرف. ولكنّ إفراط الكتابة السابقة في خفّتها اللاهوتية يكسرني ويكسر واقعاً تكسره الهشاشة من شدّة ما امتلكه السيف الممتدّ إلى جسدي وإلى لغتي وإلى غدي السابق، في صيرورة مصير إنساني لا تدافع عنه تراجيديته وحدها، بل حقّه في الكلام عن ذاته العادية، أسوة بما يفعل الأدب المعاصر، الساعي إلى التحرر من البطولة ومن ضغط الجماعة، من الأسطورة ومن الراهن معاً. فهل أُذن له بذلك؟ هل أُذن له أن يخرج إلى المطلق من تاريخية لا يعترف بها بأي تاريخ؟

لم أولد في مكانين، ولكن في وسعي أن أموت في أكثر من مكان. وفي مقدوري أيضاً أن أولد وأموت في كل قصيدة. تلك هي حرّيتي، فلماذا يكون مكان ولادتي الجغرافي نقيضاً لهذه الحرية؟ وبعيداً عن شاعرية بلادي التاريخية، أرضاً وميثولوجيا تشير إلى عمل الآلهة وإلى كتابة التكوين، وإلى إفراط البشر في خطاياهم، ممرّات لهويات وحضارات، وزمناً متروكاً لإعادة التأليف المعاصر، وشعباً هو ما هو عليه من ولوج المألوف في الخارق، ومن سموّ الأحلام وانكسارها... بعيداً عن كلّ هذا وذاك، فهي أرض قرب الأرض، وهي نزوع الأسطورة البحرية إلى شبق الرسوّ على متر من برّ.

فهل في مكان ولادتي ما يفقر الشاعرية الإنسانية، أم فيه ما يغنيها، بتذكير الإنسان بسيرته في تاريخ الكون والكلمة، وفي فتح المعنى على معنى آخر، وفي قدرته على إنقاذ الواقع بالأسطورة، وفي عودة الأسطورة إلى عناصرها وإلى أهلها؟ لا حاضر للغة الشاعر إلّا في ماضيها، ولاّ فسأجيء إلى اللغة للتوّ، من الفراغ. فلماذا كان النقد يخجل من وطني كما لم يخجل من وطن أحد؟

إن إحدى مآسي طروادة المتراكمة هي أنّ أحداً لم يبحث عن الألواح التي دوّن عليها شاعرها سيرتها. من حسن حظي، أو من سوئه، أنني لست طروادياً. ومن حسن حظي أنني ما زلت أعبّر عن إنسانية تدافع عن خلاصها الشعري. وهي إنسانية تكثّف، وتتعرّف على ذاتها الثقافية والتاريخية تعرّفاً سلبياً، ولا بأس، من خلال علاقتها بأثينا التي أصبحت رومانية. ففي شعرنا العربي، إذاً، ما زال هناك الكثير مما لا يُقال، ما دام هذا آتياً من سياق بعيدنا الذي آن للغتنا، ذات الجماليات الفذة، أن تهيئه لاستقبال حداثة لا نشارك في صوغ منظوماتها الكونية، ونكتفي باستهلاكها كسائر المواد الأخرى.

وسوء حظي (في أنني لست طروادياً) هو أنني لو كنت ذلك فسأكون موضوعاً أنثروبولوجياً، لا لشيء إلّا لأن علماء الإغريق قد ارتاحوا إلى انتصارهم، فأحبّوا أن يضفوا مزايا إنسانية على ضحاياهم.

لا، لا أستطيع أن أضع الضمير في مواجهة لا مبرر لها مع الجمالية؛ ولا أستطيع أن أخون حواسّي كلّها، أو بعضها، لأنتمي إلى جسد حداثة مشوّه يغيّر اسمه وملامحه في كلّ لحظة. ولكني، وأنا

مُثقَل بما لا يعنيني،أعرف كيف أموت وأولد في سياق قصيدة لا تبحـث، وهي تكتب، عن هدف سـوى شعريتها التي لا تستطيع أن تتحـرر من ضغط تاريخها إلّا في تجـدّد تاريخيتها من خلال الاندماج فيها، لا الاغتراب عنها.

هذا هو المعنى الذي أدركه في تكريم المشروع الشعري العربي، الذي أحاول أن أسهم فيه بجدلية حياة وموت، رحيل وبقاء، حضور وغياب، لنتمكن معاً، من مراكز الثقافة العربية وأطرافها، من أن نحقق حضورنا الشعري المشترك في الذات وفي الآخر؛ في الذات التي انفصلت عن نفسها لترى إلى نفسها وهي تحاول أن نعيش الوجود شعرياً مهما كان الثمن، ومهما كان حجم القطيعة التي تقترح علينا الغياب عن الذات، وعن الآخر معاً. لقد متُّ بما فيه الكفاية، وما أسعدني أن أشهد هنا، في قفصة، قصة ميلادي. لا أعرف كيف أشكر نقادي وزملائي الشعراء الذين يدرّبونني على طريقة جديدة في فهم نفسي الشعرية. ولكنني أعرف كيف أحبّ أهل قفصة التونسية العربية، لا لأنها تكرّمني، بل لأنها شديدة الوفاء لذاكرتها، لحياتها، للغتها، ولبحثها عن الشعر في الشعر والحياة، ولأنها تجيبنا من جديد وبطريقتها الكريمة الأصيلة عن سؤالين يعذّبان نهاية القرن:

هل ما زال الشعر ضرورياً؟

وهل ما زال الشعر ممكناً؟

الشعر بين المركّز والهامش(*)

لا أعـرف كيف أصوغ شكـراً أكاديمياً مناسباً، علـى هذه اللفتة الكريمة: إحدى أعرق الجامعات الأوروبية، جامعة لوڤان، تمنح شاعراً عربياً شهادة دكتوراه فخرية. ستكون كلمات الشكر احتفاءً بالمشتـرك الإنسانـي والجمالي الـذي يحقّقه الشعـر، واعترافاً بالخصوصية التي يزداد تجلّيهـا صعوبة... بعدما بلغت التقنيات الشعرية الحديثة مستوى من التطور والتجريب و«تدفّق الأسرار»، يهدّدنا بفائضـ التشابُه بيننا، وبين الشعر والنثر، وباغتراب الشعر والشاعر معاً عن مكانة أقلّ سعادة، في المجتمع.

لم يعد في وسعنا، في نهايات هذا القرن الشعري، أن نطبّق فوارق المستوى الثقافي والاجتماعي والعلمي بين العالم العربي والغرب،

(*) [كلمـة الشاعر في احتفـال منحه شهادة دكتوراه فخريـة من جامعة لوڤان البلجيكية، 1998].

تطبيقـاً أوتوماتيكياً على العلاقة بين مستوى تطـوّر الشعر العربي الحديـث وحركة الشعر العالمية الحديثـة. ومن هنا، فإن الإصغاء إلى الشاعر العربي قد ينتهي إمّا بصدمة، وإمّا بخيبة أمل. ربما لأن هويـة الشعر القومية لم تعـد تعبّر عن نفسهـا إلّا بشكل خفيّ، أو مشهدي، أو عن حركـة مختلفة في الزمن... أي في منزلة ملحقة بهويـة الإنســان الإنسانية التـي يقولها الشعر المولـود من ماضي غربتنا الواحد على هذه الأرض.

بيـن غربة البدايـات الأولى وبين الاستـلاب المعاصر، مـروراً بتغيّر النظرة الأولى إلى قدرة الشعر على تغيير العالم، يواصل الشعر حضوره كممارسـة جوهرية، ويحقّق «عَوْلمته» الخاصة به، عولمته المتحررة من هيمنة المراكز، ومن خوف الأطراف على هوياتها المحلية.

هنالك حَسَدٌ طيّب تجاه مكانة الشاعر العربي المعاصر في مجتمعه. تلـك المكانة التي شكّلت صورتهـا من زمن مضى تحتاج الآن إلى مراجعـة وتدقيق. فهل ما زال العرب حقاً هـم شعب الشعر، لأنهم لا يملكـون من القوّة إلّا قوّة اللغة؟ إن مكانـة الشعر العربي الحالية فـي تراجع أيضاً، في تراجع صحّي ومَرَضي معاً، بعدما فرض إيقاع الزمن العالمي الحديث انقلاباً عربياً في النظرة إلى الشعر وإلى نظام المعنـى... حيث لم يعد مفهـوم «الشاعر» ترجمـة حرفية للمعنى العربـي «العارف»، وحيث تبدّل مفهـوم البطل، أمام إلحاح الرؤية الحديثة، لمصلحة الهامشي، العبثي، أو اليوميّ العادي البسيط.

بين الخوف من المدينة التي لم تنشأ بعد وبين الخوف من القبيلة التي لم ترحل بعد. بين سؤال ما بعد الحداثة في مجتمع ما قبل الحداثة، باستثناء حداثة المؤسسة الأمنية، تتأزّم أسئلة الحداثة الشعرية العربية

وتتشظّى إلـى حداثات لا يجمعها غير الشـكل. بعضها يستجيب إلى انفتاح اللغة علـى التاريخ وعلى الواقع والقارئ. وبعضها يغلق اللغة على ذاتها بعيداً عن المعنى وعن الزمن.

لذلك سيبقى سؤال الحداثة فـي المجتمع العربي المطحون بأسئلة وجـوده الأساسيـة سـؤالاً متأزّماً وغريبـاً، إذا لم يوضـع في سياق التحرّر. وهكذا لا يكون هناك ما هو أسوأ من الشعر السياسي، بمعناه المباشـر، إلّا الإفراط في تعالي الشعر عن قضاياه السياسية، بمعناها العميـق، أي الإصغاء إلى حركة التاريـخ والمشاركة في اقتراحات المستقبل. فتلك هي سياسة مضادة تغيّب الشاعر عن فضائه الجيو-سياسي، وتعزله عن الكينونة المشتركة وعن المجتمع.

صحيـح أن التحـولات الاجتماعيـة المتسارعة، وهيمنـة وسائل الإعلام، وانتهاك اللغة بتحويلها إلى لغة استهلاكية، قد أسهمت في تراجع الإصغـاء إلى الشعر. ولكن الصحيح أيضاً هو أن الشاعر قد أسهـم في هذه الظاهرة منذ أصبح مفتوناً إمّـا بعزلته المعقّدة، وإما بجماهيريتـه البسيطـة. في الحالة الأولى جعـل الغموض صورة لـ «أنا» لا تحتوي غيرها ولا تذهب من الذات إلى العالم. وفي الحالة الثانيـة جعل الوضوح رسالة نهائية تقتل المتعة التي نبحث عنها في الشعـر، وتترك القارئ عاطلاً عن العمـل. هنالك، إذاً، ما هو أسوأ من الغموض المُعْتم، هو الوضوح التعليمي الذي يحرم القارئ من المشاركة في عملية الإبداع، وإعطاء حياة ثانية للقصيدة.

فهل نحن في آخر الشعر؟ كلا. فما لا نعرف أوّله لا نعرف نهايته. ولكـن الشعر أيضـاً في حاجة إلـى أزمات لكي يعـرف ماهيته، ويتطوّر إلى ما لا نهاية.

شاعر الجميع

شمـوع كثيـرة تُضاء لنـزار قبّاني. لكنهـا أقلُ مـن الشموع التي أضاءهـا الشاعر، طيلـة خمسين عاماً، للعشـاق وللمدافعين عن حريـة الجسد والوعي والأرض. هو الشاعر المُتَفرِّد منذ قصيدته الأولـى، حتى صار «ظاهرة شعبية» فـي الشعر العربي المعاصر، الذي أنزلـه من أبراج النُّخْبة وليالي الإلهـام إلى متناول الأيدي، كالخبز والورد، حتى كاد أن يكون شاعر الجميع.

هو صاحب الحضور الأكبر في الوجدان العام. صاحب القصيدة-الأغنية الأكثر انتشاراً وتحريضاً على الحب والغضب، وعلى احترام الأناقة والجمال. ينتشـر اسمه في الدفاتر الأولى ومطالع الرسائل، وفـي إصغاء الجسد إلى حركة الملح الإيروسي في الدم... وفي ما يقوله الياسمين لأزقّة دمشق الغريبة في قرطبة، وينتشر على يد طفل فلسطيني تخدش ليل الاحتلال في القدس.

في عذوبته قسـوة الحرير على الصدر الغضّ. وفي قسوته عذوبة

انتحـار الأنهار فـي البحـر. عاشق الثُّنائيـات الحـادة والألوان الساطعة. بَـرِم بالرماديِ وشـروط الهدنة، وبجُنـوح الشعر إلى الخـروج من الحسيّ إلى المجرد. إذا كانت السماءُ موجودةً في كل مكان، فلماذا يبحث عنها خارج مصدرها الدنيويّ؟

في وُسْع نرجسه أن يتسلّل من صورته إلى الآخرين، فليس الحب إلا تَعَـرُّف الـذات على ذاتها فـي حوارها مع آخـر يخرجها من الصَّدفة إلى الوجود.

وهكذا يصبحُ تأمُّلُ النرجس في الماء مرايا لعُشّاق آخرين. ويصبح الشاعر مرجعية عاطفية لأجيال لا ترى في شعره تقلبات عواطفها أمام سَفَر العيون إلى الأزرق والأخضر والمجهول، بل تعثر فيه أيضاً على جدل الحب مع سؤال التحرر، تحرر الجمال والرغبة من سجن التابو.

مسكـونٌ بالحرية إلى حـدّ عشق الفوضـى والتدمير، وهناك... على ضفـاف المرأة، حيث يقيم الوطن المهدّد والمهان، يتسلّح النرجسـ الهشُّ بالمخالب والأشواك، وتعلـو قافية السيف على المفـردات، فلعلّ بمقدور هذا البريق أن يضيء ليل الوعي العربي المحـدِّق إلـى الهاوية. أهـذا هو نـزار قباني، صـوت الحليب والزَّغب؟ هو... هو عندما يغضب.

لعـلّ سيرة نزار الشعرية اكتملـت، الآن، أو منذ سنين. لقد ترافق اكتمالها مع وصول رحلة الوعد الجماعية بحثاً عن حرية الجسد والوعي وانفصال القبيلة عن المدينة، إلى مضارب قبائل جديدة، فاتخـذ صراخ الشاعر شكل البيان المبحوح، المحبط إلى درجة

استبدل معها الغناء بالهجاء، ولم يعد في حاجة إلى مفردات جديدة، فغرف من قاموسه الذي أصيب بالإرهاق الجمالي من فرط ما حوّله التداول إلى ماركة مسجلة.

لذلك، لا يُقرأ نزار مُتقَطِّعاً، أو قصيدة قصيدة. قراءته الأفضل هي أن يُقرأ أثره الاستثنائي في لغة الشعر التي نقلها من مستواها المفرط في الرصانة، أو الشعرية المتعالية، إلى مستويات لم تألفها من قبل، وأدرجها في لغة الحياة اليومية العصرية، فصار الشعر ملكية عامة، مصاحباً لأدوات التدبير المنزلي والجمالي، وتعبيراً سلسلاً عن العادي والمألوف والبسيط في الحياة والشعر والسياسة. لقد نزع عن الشعر هالته البعيدة، فأجرى المصالحة التاريخية الكبرى بين القصيدة وبين الطلبة الصغار، وربات البيوت، والموظفين، وأصحاب المهن... ورؤساء الدول.

لم ينتبه للنقد، أحدث قطيعته الكبرى مع بُنْية الشعر التقليدي المحافظ، دون أن يُطيل الإصغاء إلى إغواء الحداثة وأسئلتها الفكرية، لأن العتبة الواسعة بين مرحلتين تاريخيتين هي ساحته التي تتّسع له وحده لمواصلة التجديد والتطوير على طريقته الخاصة، وبلغته التي لم تكن في حاجة إلى توقيعه.

ولم ينتبه أيضاً إلى الغبار الذي تثيره خيلُهُ الجامحة، كتهمة الإفراط في جلد الذات، وتمجيد الذكورية الاستعلائية، إذ كان واثقاً من صواب قلبه، ومن أنه صنع للمرأة أكثر مما صنع بها. لم يعترف شاعر قبله، ومثله، بحقِّ المرأة في مثل هذا التعبير المباشر والصريح عن نفسها، عما يدور في خلَده وفي جسدها من أفكار وأسرار. بيد أنه ليس شاعر المرأة وحدها، إنه شاعر الجميع.

سعدي في السبعين

منذ قرأت شعر سعدي يوسف، صار هو الأقرب إلى ذائقتي الشعرية. في قصيدته الشفّافة صفاءُ اللوحة المائية، وفي صوتها الخافت إيقاعُ الحياة اليومية.

وقد أُجازف بالظن أنه، ودون أن يكتب «قصيدة النثر» السائدة اليوم، أَحدُ الذين أصبحوا من ملهميها الكبار، فهي تتحرّك في المناخ التعبيري الذي أشاعه شعر سعدي في الذائقة الجمالية، منذ أَتقن فَنَّ المزج بين الغنائية والسردية.

وهو أَحد شعرائنا الكبار الذي قادهم الشعر أو قادوه إلى التمرّد على تعالي اللغة الشعرية، وإلى تأسيس بلاغة جديدة، ظاهرُها الزُهْدُ، باطنُها البحث عن الجوهر... ليصبح الشعر في قصيدته هو الحياة بسليقتها وتلقائيتها، والحياة هي الشعر، حين تكتبه ذاتٌ ليست ذاتية تماماً. فقد تماهت الذات مع الموضوع،

وتآلف الموضوع مع الخصوصية الذاتية... دون أن يتخلّى الشاعر عن قدر من «حياد» موضوعيٍ، يخفِّف عن القصيدة طابعها الأوتوغرافي، ويُوَفِّر لها استقلالاً عن سيرة صاحبها.

الشاعر أم القصيدة؟ ليس هذا سؤال سعدي يوسف، فقد بلغ من النضج خبرة قادرة على أن تجعل حياة الشاعر وحياة النَّصِّ واحدة ومنفصلة في آن واحد، فهو يعبّر عن نفسه، ولا يعبِّر عنها وحدها، في اللقاء الحميم بين داخله الذاتي وخارجه الموضوعي في عملية مركَّبة يتبادلان فيها الأدوار.

سعدي يوسف، الذي يحاور نَصُّه الشعري تاريخ الشعر، لا يشبه شاعراً عربياً آخر. لكن الكثيرين من الشعراء أرادوا أن يشبهوا سعدي، وعانوا مما سمّاه هارود بلوم «قلق التأثير».

لقد بهرتني بساطة سعدي المعقّدة، في نزوعها إلى البحث عن شعرية الأشياء الصغرى الكامنة في نثر الحياة، والبحث عن العلاقات السرية بين اليومي والتاريخي. وبهرني أكثر من ذلك إلحاحُهُ في محاولة الإمساك بالحاضر الهارب.

وإذا كان صحيحاً أن في داخل كل شاعر مجموعة من الشعراء - كما يقول أوكتاڤيو باز، وأن النص هو محاورة مع نصوص أخر، فإن سعدي يوسف كان أحد الشعراء الذين درَّبني شعرهم على التنقيب عن الشعري في ما لا يبدو أنه شعري، وأغراني بمقاومة الإغراء الإيقاعي الصاخب، وبالاقتصاد في البلاغة.

وكم سُئلت عن فترات بَياتٍ شعري مررت بها، وكنت أقول دائماً: ما دام سعدي يوسف يكتبُ، إنني أشعر بأنه يكتب نيابةً عنِّي!

صديقي منذ ثلاثة عقود. لم نتوقف عن صيانة المودّة المتبادلة، النادرة بين الشعراء، منذ التقينا للمرّة الأولى في بغداد. كان في آخر الليل متهوّراً يقود سيارة هرمة، كادت تسقط بنا في دجلة. كم خفت من موت عبثي ينتظرنا في قاع النهر. لكننا اليوم، نحتفل بعيد ميلاده السبعين. هو في لندن، وأنا في رام الله.

أتذكره في منافيه العديدة، في بيروت، وفي عدن، وفي نيقوسيا، وفي باريس، وفي عمّان... يعتني بأصص الصبّار.

لقد أدمن سعدي يوسف المنفى، فصار جزءاً عضوياً من حياته ومن لغته، لا باعتباره مكاناً جغرافياً نقيضاً للوطن فحسب، بل باعتباره مجالاً حيوياً لتعرّف الذات على نفسها في الآخر، وللتأمل في الأشياء الأولى من بعيد، وباعتباره ثيمة أدبية تعبّر عن غربة وجودية.

كنا دائماً نؤمن بأن الغد أجمل. لكن التاريخ يفاجئنا دائماً بخيبة أمل جديدة، تغري الشاعر بمديح أمس. بيد أنَّ الشعر لا يمتثل إلى هذه المحنة، لأنه أدمن النظر إلى أبعد... وإلى أعلى!

آخر مرة / أول مرة(*)

... لـن أتكلَّم عن كتابي الجديد، لأنني –أولاً– لا أُحبُّ هذا النوع من النرجس. ولأنّني –ثانياً– لسْتُ من هؤلاء الشعراء الذين يدعمون مشروعهـم الشعـري بمشـروع نظريّ شديـد الإحـكام، يُخضع حرّيتهم الإبداعية، وحرية القارئ فـي التأويل، إلى مفهوم كامل أو نهائي عن الشعر، وهو مفهوم تُعَرِّضُهُ أسبقيَّةُ الإبداع للتبدّل الدائم.

ولأنّ الشعـر لا يتحقق إلّا بعد أن يحوِّل الشاعرُ «ما هو عام» إلى شخصـي، ولأنّ الشعر يُحَوِّل، فور تحققـه، كُلَّ ما هو شخصي إلـى «عام»، فإن في وسع الشاعر أن يعتـرف دائماً بأنه لا يعرف كيف فعل ذلك أثناء الكتابة.

إنَّ صـراع هذه القصيدة مـع تجربة موت شخصـي لم يكن في

(*) () [كلمة الشاعر في حفل التوقيع على «جدارية» الذي أُقيمَ في رام الله].

حاجـة إلى الإشـارة الواضحة إلى أن حياتنـا العامة هي في حالة صـراع جماعي ضد مـوت الهوية والمعنـى. وإنّ انتصار الشعر على الموت المجـازي، منذ كان الشعر، ربما يحمل دلالة قريبة أو بعيدة إلى قيامتنا الجديدة.

بَيْـدَ أنَّ مساحة أرضـ الصراع اتسعت، وخرجـت من المكان المحدَّد والزمن المحـدد، لتلتقي مع تساؤل الكائن البشري عن مأزقـه الوجودي، عَبر أزليّـة السؤال الأوّل عـن الموت الأوّل، وعَبر تقاطع الميتافيزيقيا مع التاريخ.

لذا، في مقدورنا أن نجد الخاص في العام والعام في الخاص، دون أن نخسـر شيئاً أوسع من ثقب الإبرة، وما حُدِّد لنا من حيّز ضيّق حرَمَنا من طرح أسئلتنا العميقة عن الوجود. صحيح أن الحرمان قـد دفعنا إلى وضع جغرافيتنا الخاصة في مرتبة «المُقدَّس» الذي نـرى من خلالـه الكون. ولكن مـن الصحيح أيضـاً أن نتساءَل، شعرياً، هل من الممكن إنجاز حداثة حقيقية دون أن نَحُول دون تحوُّل هذا المقدَّس إلى عبء على الرؤية والرؤيا والمنظور؟

أكتـب في كل مرة، كأنّنـي أكتب لأوّل مرّة، وربمـا لآخر مرّة. وسيكـون علـيَّ، وحـدي، أن أسعى منـذ الآن إلى تجـاوُز هذه القصيـدة/ الكتب، لا لشـيء إلّا استجابةً لنزعة هـدم المنجز – فالمنجز سجن – وللبحث عن الجديد – فالجديد أُفق.

فإذا كان الشعر صراعاً ضد الموت، بتأويلاته ومستوياته المتعددة، فإنه أيضاً صراعٌ ضد ذاته، ضدَّ موته الاختياري حين يصبح تقليدياً

ونمطياً ومألوفـاً، وحين يطمئنُّ إلى أشكالـه واستعاراته الجاهزة وخياله المُرَوَّض.

من هنا، أُرحّـب بمغامرات القطيعة، وبالتطورِ من داخل السياق وحتى مـن خارجه. القطيعـة النسبية بين الأجيـال والقطيعة مع التقاليد الوطنية المعروفة في الشعر الفلسطيني، والقطيعة الممكنة بيـن الشاعر وتراثه الشعري الخاص والعام. فالشعر دائماً هو ما لا نعرفـه، هو القادم المجهول. ولعـلّ أسوأ تعريف للشعر هو أن يُعَرَّف، فالمُعرَّفُ ممتلك. ولعلَّ أجمل الشعر هو ما يغيِّر مفهومنا عن الشعر.

لكنّني سأُسْأَل: ما دام الأمر كذلك، فلماذا الجدارية؟ إنّ الجدارية هي العمل الفنـي الذي يُنْقَش، أو يُرْسَم، أو يُعَلَّق على جدار، ظنّاً ممـن يفعل ذلـك أنّ هذا العمـل جدير بأن يحيا، وبـأن يُرى من بعيد... مكانيّاً وزمانيّـاً. فهل أصابني مَسٌّ من هَوَس البحث عن الخلود حيـن اخترت هذا العنوان الذي يُذَكِّـر، في سياق الشعر العربي، بمكانة المُعلَّقة؟

كلاّ. لقـد استبـدّ بي هاجسُ النهاية، منـذ أدركـت أنّ الموت النهائي هو موت اللغة. إذ خُيِّل إليّ – بفعل التخدير – أنني أعرف الكلمات وأعجز عن النطق بها. فكتبت على ورق الطبيب: «لقد فقـدتُ اللغة»... أي لم يبـقَ مِنّي شيء. لم يبق مِنّي أكثر. فمَنْ أنا بلا لُغَة!

لذلـك، لـم أتوقّع لهـذا العمـل أن يُنجـز. كان المعنـى الوحيد لوجودي هو أن أتمكـن من الكتابة للمرّة الأخيرة، وحين كتبتُ

هذه القصيدة طيلة العام الماضي، استبدّ بي هاجسُ نهايةٍ أُخرى: لمن أحيا لأكتبَ عملاً آخر. لذلك سمَّيته «جدارية» لأنّه قد يكون عملي الأخير الذي يُلَخِّص تجربتي في الكتابة، ولأنّه نشيدُ مديحٍ للحياة.

لكنّه، وما دامَ قد كُتِب، فإن عليه أن يَنسى قصّته وإدراكه أنّ الموت هو عذاب الأَحياء. وما دُمْتُ قد عشتُ مرّة أخرى، فإنّ عليَّ أن أتمرَّد على كتابي هذا، وأن أُحبَّ الحياة أكثر، وأُحبّكم أكثر...

مهنة الشاعر(*)

لستُ من الذين ينظرون إلى المرآة برضا. المرآة هنا هي انكشاف الـذات في صورة صارت ملكية عامة... أي صار من حق غيرها أن يبحـث عن ملامح ذاته فيها. فـإذا وجد فيها ما يشبهه أو يعنيه مـن تعبير وتصويـر، قال: هذا أنـا. وإذا لم يعثر علـى شراكة في النصّ/الصورة، أشاح بوجهه قائلاً: لا شأن لي!

كَـمْ أخشى هذا التعليق الذي صار رائجاً في العلاقة بين الكثير من الشعر الحديث وبين أغلبيّة القُرّاء، منذ استمرأ الكثيرون من الشعراء توسيع الهُوَّة بين القصيدة وكاتبها الثاني: المتلقّي، الذي لا يتحقّق المشروع الشعري بدونه، وبـدون تحرّكه في اتجاه النص. التّهَمُ متبادلـة بين الطرفين. لكن أزمة الشعر، إذا كانت هنالك أزمة، هي

(*) [ألقيـت هذه الكلمة في حفل التوقيع على كتاب «كزهر اللوز أو أبعد» في رام الله].

أزمة شعراء. وعلى كل شاعر أن يجتهد في حلّها بطريقته الإبداعية الخاصة.

أعلَم أنني سأُتَّهم، مرة أخرى، بمعاداة شعر الحداثة العربية التي يُعرِّفُها العُصَابيُّون بمعيارين: الأول: انغلاق الأنا على محتوياته الذاتية دون السماح للداخل بالانفتاح على الخارج. والثاني: إقصاء الشعر الموزون عن جنَّة الحداثة... فلا حداثة خارج قصيدة النثر. وتلك مقولة تحوَّلت عقيدةً يُكَفَّرُ مَنْ يقترب من حدودها متسائلاً. وكُلُّ مَنْ يُسائِلُ الحداثة الشعرية عمّا وصلت إليهِ يُتَّهَم، تلقائياً، بمعاداة قصيدة النثر!

لم أَكُفَّ عن القول إن قصيدة النثر التي يكتبها الموهوبون هي من أهم منجزات الشعر العربي الحديث، وإنها حقَّقت شرعيتها الجمالية من انفتاحها على العالم، وعلى مختلف الأجناس الأدبيّة، لكنها ليست الخيار الشعري الوحيد، وليست «الحلّ النهائيّ» للمسألة الشعرية التي لا حلَّ لها، فالفضاء الشعري واسع ومفتوح لكل الخيارات التي نعرفها والتي لا نعرفها. ونحن القرّاء لا نبحث في التجريب الشعري المتعدِّد إلّا عن تحقُّق الشعرية في القصيدة، سواء أكانت موزونةً أم نثرية.

وأعلم أيضاً أن مجموعتي الشعرية الجديدة، كسابقاتها، ستُزوِّد خصومي الكثيرين بمزيد من أسلحة الاغتيال المعنوي الشائعة في ثقافة الكراهية النشطة. سيُقال –كما قيل ويُقال– إنني تخلّيت عن «شعر المقاومة». وسأعترف أمام القضاة المتجهّمين بأنني تخلَّيت عن كتابة الشعر السياسي المباشر محدود الدلالات، دون أن أتخلّى عن مفهوم المقاومة الجمالية بالمعنى الواسع للكلمة... لا

لأن الظروف تغيَّرت، ولأننا انتقلنا «من المقاومة إلى المساومة»، كمـا يزعم فقهاءُ الحماسة، بل لأنّ على الأسلوبية الشعرية أن تتغيَّر باستمـرار، وعلى الشاعـر أن لا يتوقف عن تطوير أدواته الشعرية، وعـن توسيع أفقه الإنساني، وأن لا يكرِّر ما قاله مئات المرات... لئلاَّ تصاب اللغة الشعرية بالإرهـاق والشيخوخة والنمطية، وتقع فـي الشّـرَك المنصوب لهـا: أن تتحجّر في القـول الواحد المعاد المُكرَّر، فهل هذا يعني التخلِّي عن روح المقاومة في الشعر؟

أما من دليل آخر على المقاومة سوى القول مثلاً: سجِّل أنا عربي، أو تكـرار شعر: سأقـاوم وأقاوم؟ فليس من الضـروري، لا شعرياً ولا عملياً، أن يقول المقاوم إنه يُقاوِم، كما ليس من الضروري أن يقول العاشق إنه يعشق. لقد سمَّانا غسان كنفاني «شعراء مقاومة» دون أن نعلـم أننا شعـراء مقاومة. كنا نكتب حياتنـا كما نعيشها ونراها. ندوِّن أحلامنا بالحرية وإصرارنا على أن نكون كما نريد. ونكتـب قصائد حبّ للوطـن ونساء محـدَّدات. فليس كل شيء رمزياً. وليس كل خَصْر شجرة نخيل خصر امرأة أو بالعكس!

لا يستطيع الشاعر أن يتحرَّر من شرطه التاريخي. لكن الشعر يوفِّر لنـا هامش حريّة وتعويضـاً مجازياً عن عجزنا عـن تغيير الواقع، ويشدنا إلى لغة أعلى من الشـروط التي تُقيِّدنا وتُعرقل الانسجام مـع وجودنا الإنساني، وقد يُساعدنا علـى فهم الذات بتحريرها مما يعيق تحليقها الحرّ في فضاء بلا ضفاف.

إن التعبيـر عن حقّ الذات في التعـرّف إلى نفسها، وسط الجماعة، هـو شكل من أشكال البحث عن حريّـة الأفراد الذين تتكون منهم الجماعة. ومن هنا، فإن الشعر المعبِّر عن سِمَاتنا الإنسانية وهمومنا

الفرديـة –وهي ليست فرديـة تماماً– في سياق الصـراع الطويل، يُمثِّل البعد الإنساني الذاتي من فعل المقاومة الشعرية، حتى لو كان شعر حُبّ أو طبيعة، أو تأمُّلاً في وردة، أو خوفاً من موت عادي.

ليس صحيحاً أنه ليس من حق الشاعر الفلسطيني أن يجلس على تلَّـة ويتأمَّل الغروب، وأن يصغي إلى نداء الجسد أو الناي البعيد، إلّا إذا ماتت روحه وروح المكان في روحه، وانقطع حبل السُرَّة بينه وبين فطرته الإنسانيّة.

وليســ الفلسطيني مهنـة أو شعاراً. إنه، في المقـام الأول، كائن بشري، يحبُّ الحياة وينخطف بزهرة اللوز، ويشعر بالقشعريرة مـن مطر الخريـف الأول، ويُمارس الحبّ تلبيـةً لشهوة الجسد الطبيعة، لا لنـداء آخر... وينجب الأطفال للمحافظة على الاسم والنوع ومواصلة الحيـاة لا لطلب الموت، إلّا إذا أصبح الموت فيمـا بعد أفضل مـن الحياة! وهذا يعنـي أن الاحتلال الطويل لم ينجـح في محـو طبيعتنا الإنسانيـة، ولـم يفلح فـي إخضاع لغتنا وعواطفنا إلى ما يريد لها من الجفاف أمام الحاجز.

إن استيعاب الشعر لقوّة الحياة البديهية فينا هو فعل مقاومة، فلماذا نتّهـم الشعر بالردة إذا تطلَّع إلى ما فينا من جماليات حسيّة وحرية خيـال وقاوم البشاعة بالجمال؟ إن الجمال حرية والحرية جمال. وهكذا يكون الشعر المدافع عن الحياة شكلاً من أشكال المقاومة النوعية.

هل أتساءل مرة أخرى إن كان الوطن ما زال في حاجة إلى براهين شعريـة، وإن كان الشعر مـا زال في حاجة علـى براهين وطنية؟

إن علاقـة الشعـر بالوطن لا تتحـدَّد بإغراق الشعـر بالشعارات والخريطـة والرايـات. إنها علاقـة عضوية لا تحتـاج إلى برهان يومي، فهي سليقة ووعي وإرادة. ميراث واختيار. مُعْطىً ومبدع. ولكن الشعر الوطني الرديء يسيء إلى صورة الوطن الذي يشمل الصراع عليه وفيه مستويات إبداعية لم ننتبه إليها دائماً.

لذلـك، فـإن حاجتنا إلـى تطوير أشـكال التعبير عـن الجوانب الإنسانيـة في حياتنا العامة والخاصـة، بتطوير جماليات الشعر، وأدبيّـة الأدب، وإتقـان المهنة الصعبة، والاحتـكام إلى المعايير الفنيـة العامـة، لا إلى خصوصيـة الشرط الفلسطينـي فقط، هي مهام وطنيـة وشعرية معاً، وهي ما يؤهِّل شعرنا للوصول إلى منبر الحوار الإبداعي مع العالم، فيصبح الاعتراف بقدرتنا العالية على الإبـداع أحد مصادر الانتباه إلى وطن هذا الإبداع. فكم من بلد أحببناه، دون أن نعرفه، لأننا أحببنا أدبه!

هكـذا تمّحي الحـدود بين وطنيـة الشعـر وبين نزعتـه الدائمة لاجتيـاز حواجـز الثقافات والهويـات، والتحليـق المشترك في الأفـق الإنساني الرحب، دون أن ننسى أن للشعر دوراً خاصاً في بلورة هوية ثقافة لشعب يُحارب في هويته.

نعم، على الشعراء أن يتذكروا كل العذاب، وأن يُصْغوا إلى صوت الغيـاب، وأن يُسَمُّـوا كل الأشياء، وأن يخوضـوا كل المعارك. ولكن عليهم أيضاً ألّا ينسوا واجبهم تجاه مهنتهم. وألّا ينسوا أن الشعر لا يُعرَّف، أساساً، في ما يقوله، بل بنوعية القول المختلف عن العـادي، وألّا ينسوا أن الشعر متعـة، وصنعة، وجمال. وأن الشعـر فرح غامض بالتغلُّب على الصعوبة والخسارة، وأنه رحلة

لا تنتهي إلى البحث عن نفسه في المجهول.

وأنـا هنـا، لا أُدافع عن كتابي الجديد الذي لـم يعد لي. ولم أَعد أتذكـر شيئاً منـه، منذ خـرج مني وأدخلنـي في مـأزق السؤال الفـادح: ماذا بعد؟ بل أدافع عن حقّ الشعراء في البحث عن شعر جديد، يُنَقِّي الشعر مما ليس منه. فإن شقاء التجديد المتعثِّر أفضل من سعادة التقليد المتحجِّر.

الولادة على دفعات(*)

نادراً ما أقـرأ مقدمات الشعراء لأعمالهم، وإن فعلتُ ذلك فلكي أحتفي بالفارق الجميل بين ما يودُّ الشاعر أن يقوله عن قصيدته... وبين ما تقوله قصيده. فالقصيدة كثيراً ما تُفْلتُ من سياق التفكير بها ومـن مشروعها الذهني، ولا تخضع خضوعاً كاملاً لوضوح الفكـر الذي يُحركها. وكأنها، إذ تستقـل في صيرورتها الذاتية، تستقل أيضاً عن شاعرها.

فماذا سأفعل بما هو مطلوب منّي بإلحاح: أن أقدم هذه المختارات؟

سأقول أيضاً: إن المختارات تنطوي دائماً على خدعة، ففي وُسع مَنْ يختار أن يصنع بشاعره ما يشاء: أن يختار البؤرة المشعة

(*) مقدمة المختارات الشعريـة الصادرة عن دار غاليمار تحت عنوان «تضيق بنا الأرض»... وقصائد أخرى].

في القصيدة تاركاً جانباً ما تُحدِّق إليه من ظلام، مهملاً سياقها العام... سياق القصيدة وموقعها من شعر الشاعر. وفي وسعه أن يفعل العكس: أن يختار منها طريقها النثري إلى الشعر. وفي وسعه أيضاً التركيز على صورة، أو استعارة، أو خلاصة، أو حكمة شعرية... منحازاً إلى طريقته في فهم الشعر. وطبقاً لهذا الفهم الخاص، جعل من شاعر عاديّ شاعراً استثنائياً، ومن شاعر استثنائي شاعراً عادياً... باستحضار البؤر المشعة أو باستبعادها.

وهكذا، يبقى السؤال مثيراً للشكوك: هل نستطيع التعرف إلى حقيقة الشاعر الشعرية من خلال المختارات؟ سيبقى الجواب نسبياً وقابلاً للتضليل. ولكن السؤال التالي هو الأصعب: هل نستطيع التعرف إلى لغة الشاعر الجمالية من خلال مختارات مترجمة من لغة إلى أخرى؟

غنيّ عن القول أن لكل لغة نظامها الدلالي وأسلوبيتها الخاصة وتركيبها النحوي. وبما أن اللغة في الشعر ليست وسيلة أو أداةً فقط لنقل المعنى، والمعنى في الشعر ليس سابقاً لبنية القصيدة، فإن على الترجمة أن تنقل ما ليس وسيلة للنقل أصلاً... إلى نظام لغة أخرى. وهنا، لا يكون المترجم ناقلاً للكلمات، بل مؤلِّفاً لعلاقاتها الجديدة. ولا يكون مصوّراً لضوء المعنى، بل راصداً للظل ولما يومئ لا لما يقول. لذا، يتحول مترجم الشعر إلى شاعر موازٍ، متحرّر من نظام اللغة الأصل، يفعل في اللغة الثانية ما فعله الشاعر في اللغة الأولى.

في فسحة التحرر هذه، تُرتكَب الخيانة الجميلة التي لا بُدّ منها، الخيانة التي تحمي لغة الشعر المنقول من عِناد وطنيّتها، ومن

اندماجها الكامل في مناخ لغة أخرى، في آن واحد. فعلى الشعر أن يحافظ على نَفَسه الإنساني العام، القادم من بعيد مشترك من ناحية، ومن ناحية أخرى، عليه أن يحافظ على ما يدُلنا على أنه مترجم، أي قادم من خصوصية تجربة أخرى، عبَّرت عن نفسها بتركيب لغوي مختلف وفي سياق مرجعية ثقافية مختلفة. ولعلّ ذلك هو ما يُغرينا بقراءة الشعر المترجم لا للحوار مع المشترك والمختلف، والبحث عن غنى التجربة الشعرية الإنسانية وتنوعها فقط، بل أيضاً لفتح قابلية التأثر التي تحتاج إليه لغتنا الشعرية، أية لغة، لتجديد أسلوبيتها وبناء جملتها، عن طريق الإصغاء إلى تجربة لغة أخرى.

هنا، يمتلك المترجم/المبدع سلطة البناء والهدم. فكم من قصيدة كبرى قرأناها بأكثر من ترجمة، فلم تكن هي ذاتها، لا بسبب تعدُّد مستويات قراءته، بل بسبب تحكّم المترجم في مساراتها وطريقة تنفّسها، فلم تعد قصيدة شاعرها فقط، بل قصيدة مترجمها/شاعرها المؤول أيضاً. ولا يهمنا في هذا المجال إن كانت أفضل من الأصل أو أسوأ.

كيف نُصدِّق الشعر المترجم إذاً؟

سنصدّق منه ما يتخفّى، وما يتحفّز للظهور، ذلك الظلّ المطلّ من خلف الكلمات، وربما ذلك البُعد الذي يشير إلى وجوده ويغيب.

وكيف نصدِّق المختارات التي اختارها الشاعر، وهنا، كيف تصدقونني؟

إن العنوان الثانوي لهذه المجموعة «مختارات شخصية» هو

عنوان مجازي، لأنها ليست شخصية تماماً. فلو كان الأمر متعلقاً بي وحدي، دون تدخُّل أيِّ اعتبار آخر، لما اخترتُ من شعري إلّا مـا كتبته في العقدين الأخيرين. لأن كل عمل جديد لي ينزع إلى قطيعـةٍ ما قائمةٍ على استمرارية. في كل عمل جديد محاولة لهدم مـا سبق من خلال تطوير ما كان يبدو لي هامشياً وثانوياً، وتقريبه مـن المركز. ربما لأنني لا أسكن النهـر، بل أقيم على الضفاف. وربما لأن الزمن يعلمني الحكمة، بينما يعلمني التاريخ السخرية، أو ربمـا لأنني أكبر وأقترب مـن أسئلة ميتافيزيقية تتلاءم مع حيرة الوجود، وقد تحمي اللغة الشعرية من سرعة الراهن.

بيـد أن صورتي العامـة أقوى من قلقـي. فأنا المسمّـى «شاعراً فلسطينيـاً»، أو «شاعـر فلسطيـن» مُطالب –منّـي ومن شرطي التاريخي– بتثبيت المكان في اللغة، بحماية واقعي من الأسطورة، وبامتلاكهمـا معاً لأكـون جزءاً من التاريخ وشاهـداً على ما فعله التاريـخ بي في آنٍ واحـد. لذا يتطلبُ حقي فـي الغد تمرداً على الحاضـر، ودفاعاً عن شرعية وجودي فـي الماضي الذي زُجَّ به إلى المناظرة، حيث تصبح القصيدة دليلاً على وجود أو عدم. أما سُكان القصيدة، فلا يكترث بهم مؤرخو الشعر.

حين بدأتُ الكتابة، كنتُ مسكوناً بهاجس التعبير عن خسارتي، عـن حواسي، عنـد حدود وجـودي المحـدّد، وعـن ذاتي في محيطهـا وجغرافيتهـا المحدّدين، دون أن أنتبـه إلى تقاطع هذه الذات مع ذات جماعية. كنتُ أسعى إلى التعبير، غير حالم بتغيير أيّ شيء سوى نفسي. ولكـن قصتي الشخصية، الاقتلاع الكبير من المـكان، كانت قصة شعـب كامل. لذلك، وجـد القرّاء في صوتي الخاص صوتهم الخاص والعام. فعندما كتبتُ حنيني إلى

خبز أمي وقهوتها، داخل السجن، لم أقصد تجاوز تلك المساحة العائلية، وحين كتبتُ اغترابي في بلادي وشقاء الحياة والتوق إلى الحرية، لم أقصد إلى كتابة «شعر مقاومة» كما سمَّاه النقد العربي، ووجد فيه القرّاء العرب تعويضاً شعرياً مبالغاً فيه عن هزيمة العرب في ما سُمِّي بحرب الأيام الستة.

حين أتذكر الآن تلك المرحلة، أتذكر قدرة الشعر على الانتشار حين لا يطلب العزلة هدفاً ولا يطلب الانتشار أيضاً. فلا الانتشار ولا نقيضه يصلحان معياراً للحكم على جمالية الشعر. كما أن هنالك ما هو أسوأ من الشعر السياسي، هو الإفراط في تعالي الشعر على السياسة، بمعناها العميق، أي الإصغاء إلى أسئلة الواقع وإلى حركة التاريخ، والمشاركة الضمنية في اقتراح الأمل. فاللاسياسة هي أيضاً سياسة مبطنة.

من هذا المنظور، لا تستطيع هذه المختارات أن تخدع قارئها أو شاعرها، بفصل البدايات عما وصلت إليه تجربتي الشعرية الآن. وهكذا، لا أستطيع تحديد النقطة التي حدثت فيها القطيعة النسبية في سياق الاستمرارية، لأن العملية متداخلة متشابكة، ولأن كل مرحلة سابقة تحمل بذور تطور المرحلة اللاحقة.

يهمني كثيراً أن أطوّر شعري بطريقة نوعية. ولكن هل يمكن فصل ذلك عن الحالة التراكمية؟ لا أدري. وهكذا أرى في مرحلة المنافي امتداداً للصوت الذاتي/الجماعي على أرض عمل أخرى، أوسع في الجغرافيا وفي التنوع الثقافي واللغوي، يرافقها تطوّر في المعرفة، وإعادة نظر دائمة في مفهوم الشعر، واقتراب من الإدراك الشعري للتجربة الإنسانية.

إن صَبْر المسافة، ومساحة التأمُّل من بعيدٍ ما، توفّر للشاعرية فرصة للتخفيف من درجة حماسة اللغة، وفرصةَ النظر إلى ذاتها وأدواتها بطريقة أبرأ وأهدأ من ناحية، وتُحملها من ناحية أخرى أعباء استحضار المكان بذاكرته وعناصره خالياً من الغبار ومن الروتين!

إنني شديد الإصغاء إلى حركة الزمن، وإلى إيقاعات المشهد الشعري العالمي، لا أتوقف عن التدرب على كيفية الاقتراب من توفير حياة خاصة للقصيدة بشرطها التاريخي وباستقلالها عنه معاً. ولا أتوقف عن تدريب القصيدة على الاقتراب من سُلالتها الأسطورية، لا بالاعتماد على رموزها فقط، بل بإنجاز بنيتها الأسطورية المعاصرة من عناصرها الذاتية.

ولكن كيف للشاعر أن يُتقن الرحلة من داخله إلى خارجه، ومن خارجه إلى داخله، دون أن يغرق في «أناه» ودون أن يفقدها، بتحويلها إلى ناطقة باسم الجماعة، وكيف يحميها من قضْديَّة التمثيل؟

لعل مصدر الشعر واحد، هو هويتنا الإنسانية، من ماضي غربتها على هذه الأرض إلى حاضره المغترب. لقد وُلد الشعر من أولى أسئلة الدهشة عن وجودنا، من ذلك البعيد الذي تساءل فيه طفلنا الإنساني عن أسرار وجوده الأولى. من هنا لم تكن العالمية، منذ البداية، إلّا محلية.

في سياق السفر الواحد من الذات إلى العالم، في هذا السياق المتعدد اللغات والمناطق ودرجات التطور التاريخ، تتوحد التجربة الشعرية الإنسانية، وتحقق «عولمتها» الخاصة بها، متحررة من هيمنة المركز وتبعية الطرف، بإسهام كُلّ محلية شعرية في صوغ ما نسميه الشعر العالمي.

لكـن، لا بُـدّ للجهات من تسميات على ما يبـدو. فماذا يعني أن أقول إن شعري قادم من الجنوب، من شرط تاريخي لم تتحقق فيه حرية الفرد ولا تحرر الجماعة، ومن بلد انكسرت فيه العلاقة بين المـكان والزمان، وتحول فيه الكائن إلى شبح؟ إن ذلك لا يرمي إلـى أكثر مـن الإشارة إلى مـأزق الحداثة الشعريـة العربية، على طريق الرحلة مـن القبيلة التي اندثرت خيامها إلى المدينة التي لم تنشـأ بعد. ماذا تفعل الحداثة فـي مجتمعات عربية تعيش مرحلة مـا قبـل الحداثة؟ من الطبيعـي أن تبقى هامشيـة ومجازية. ومن الطبيعي أيضاً أن تتشظّى إلى حداثات لا يجمعها غير الشكل.

ليـس الغموض هدف الشاعـر. لكنه ينتج من التوتـر بين حركة القصيدة وبين ما يحركه مـن فكر، وعن التوتر بين حالتها النثرية وحالتها الإيقاعية، وهذا الغموض، الشبيه بإيماءات الظلال، هو أحـد أشكال صراع اللغة الشعرية مـع الواقع الذي لم يعد الشعر مشغـولاً بوصفـه، بل بالنفـاذ إلى جوهـره، وبصـراع اللغة مع مرجعياتها. ولعـل هذا النوع من الغموض هـو الفضاء المفتوح لـدور القارئ في منح القصيدة حياةً ثانية، إذ يُوَفِّر له دوراً إبداعياً فـي القـراءة والتأويل، بدلاً من تلقي الرسالـة كاملة نهائية. فليس هـذا الغموض نقيض الوضوح، بـل نقيض الوضـوح التعليمي الذي يترك القارئ عاطلاً عن العمل.

ولكـن، لا غموضي ولا وضوحي هو ما أنقذ شعري من القطيعة مع قـارئ يجدّدني وأجدّده. فمن مفارقات تجربتـي الشعرية أنها كلما طـوّرت أدواتها التعبيريـة وأسلوبيتهـا، حَفّزت قارئهـا إلى القبول بالمزيد من التجديد، فتقاربت ذائقة الشارع والقارئ الجمالية. ربما لأن اقتراحاتي الشعريـة تنبع من سياق تاريخ الشعر العربي وإيقاعاته

ومن داخـل جماليات اللغـة العربية. ومـن المعـروف أن القصيدة العربية الحديثة لم تصل إلى ما وصلت إليه الآن دفعة واحدة.

صحيـح، أنـه ليس هنالـك من شاعـر حقيقي يـأذن لأي اعتبار خارجـي ولا لأي قارئ بأن يراقـب عملية الكتابة الشعرية. لكن الشاعر قارئ شديد المطالبة وهو القارئ الأول لنصه. وما تنقيح النصّ مراراً إلا فعل قراءة كاتبة، يخضع لمعايير واعية لمدى ما في الذات الشخصية من لقاء مع ذوات أخرى.

لـكل شاعر طريقتـه الخاصـة، أو تقاليده، في الكتابـة، وأنا من أولئـك الذين يكتبـون النص مرتيـن: في المرة الأولـى تقودني سليقتي الشعريـة ولا وعيي. وفي المرة الثانيـة يقودهما إدراكي لمتطلبـات بناء القصيدة. وغالباً ما لا تشبـه الكتابة الثانية صورة الكتابة الأولى، لا تشبهها أبداً.

إن أحد تدريباتي على امتحان قصيدتي هو أن أنساها لفترة طويلة. وحيـن أعود لزيارتهـا للتحقق من طبيعتهـا الشعرية أحكم عليها بمـدى الشبـه بينها وبيني. فـإذا تعرفت إليها مـن الوهلة الأولى أدركـتُ أنها تقلدني أو أننـي أقلّد نفسي. أمـا إذا أحسستُ بأن شاعراً آخر هو الذي كتبها، متجاوزاً الشاعر الذي كنتُه، أدركت أنها قصيدة جديدة.

ولكن، من يعنيه هذا السر؟

إن مـا يعنيني في هذه المختارات، التـي شارك في اقتراحها عدد مـن الأصدقاء، هـو أن تكون أمينـة وصادقة فـي تمثيل تجربتي الشعريـة وتطورها، زمنياً وجمالياً، كما هي في بحثها عن الشعر

في القصيدة، وفي بحثها عن القصيدة في الشعر.

قليلون هم الشعراء الذين يولدون شعرياً دفعة واحدة. أما أنا، فقد ولدت تدريجياً وعلى دفعات متباعدة. وما زلت أتعلّم المشي العسير على الطريق الطويل إلى قصيدتي التي لم أكتبها بعد.

الأعمال الجديدة



محمود درويش

أثَرُ الفَرَاشَة



[صفحات مختارة من يوميات،

كُتبت بين صيف 2006 وصيف 2007]

البنتُ / الصرخة

على شاطئ البحر بنتٌ. وللبنت أَهلٌ
وللأهل بيتٌ. وللبيت نافذتان وبابْ...
وفي البحر بارِجَةٌ تتسَلَّى
بصَيْدِ المشاة على شاطئ البحر:
أَربعَةٌ، خَمْسَةٌ، سَبْعَةٌ
يسقطون على الرمل، والبنتُ تنجو قليلاً
لأنَّ يداً من ضبابْ
يداً ما إلٰهيَّةً أَسْعَفَتْها، فنادتْ: أَبي
يا أَبي! قُمْ لنرجع، فالبحر ليس لأمثالنا!
لم يُجِبْها أبوها المُسَجَّى على ظلِّهِ

في مهبِّ الغيابْ

دَمٌ في النخيل، دَمٌ في السحابْ

يطير بها الصوتُ أَعلى وأَبعدَ مِنْ
شاطئ البحر. تصرخ في ليل برّيّة،
لا صدى للصدى.
فتصير هي الصرخةَ الأبديَّةَ في خَبَرٍ
عاجلٍ، لم يعد خبراً عاجلاً
عندما
عادت الطائرات لتقصف بيتاً بنافذتين وبابْ!

ذباب أخضر

أَلمشهد هُوَ هُوَ. صيفٌ وعَرَقٌ، وخيال يعجز عن رؤية ما وراء الأفق. واليوم أفضلُ من الغد. لكنَّ القتلى هم الذين يتجدّدون. يُولَدُون كُلَّ يوم. وحين يحاولون النوم يأخذهم القتلُ من نعاسهم إلى نومٍ بلا أحلام. لا قيمة للعدد. ولا أَحدَ يطلب عوناً من أحد. أصوات تبحث عن كلمات في البرية، فيعود الصدى واضحاً جارحاً: لا أَحد. لكن ثمَّةَ من يقول: «من حق القاتل أن يدافع عن غريزة

القتل». أمَّا القتلى فيقولون متأخرين: «من حق الضحية أن تدافع عن حَقِّها في الصراخ». يعلو الأذان صاعداً من وقت الصلاة إلى جنازات متشابهة: توابيتُ مرفوعةٌ على عجل، تدفن على عجل... إذ لا وقت لإكمال الطقوس، فإنَّ قتلى آخرين قادمون، مسرعين، من غاراتٍ أخرى. قادمون فُرَادى أو جماعات... أو عائلةً واحدةً لا تترك وراءها أيتاماً وثكالى. السماء رماديَّةٌ رصاصية، والبحر رماديٌّ أزرق. أَمَّا لون الدم فقد حَجَبَتْهُ عن الكاميرا أَسرابٌ من ذباب أَخضر!

كقصيدةٍ نثريّة

صيفٌ خريفيٌّ على التلال كقصيدةٍ نثرية. النسيم إيقاعٌ خفيف أحسُّ به ولا أَسمعه في تواضُع الشجيرات. والعشب المائل إلى الاصفرار صُوَرٌ تتقشَّفُ، وتُغري البلاغة بالتشَبُّه بأَفعالها الماكرة. لا احتفاء على هذه الشِعاب إلاَّ بالمُتاح من نشاط الدُوريّ، نشاطٍ يراوح بين معنىً وعَبَث. والطبيعة جسدٌ يتخفَّف من البهرجة والزينة، ريثما ينضج التين والعنب والرُمَّان ونسيانُ شهواتٍ يوقظها المطر. «لولا حاجتي الغامضة إلى الشعر لَمَا كنت في حاجة

إلـى شـيء» ـ يقول الشـاعر الذي خَفَّتْ حماسـته فقلَّـت أخطـاؤه. ويمشـي لأن الأطبـاء نصـحوه بالمشـي بلا هدف، لتمرين القلب على لامبالاةٍ ما ضـروريـةٍ لـلـعـافـيـة. وإذا هـجـس، فليس بأكثـر مـن خاطـرة مجانيّـة. الصـيف لا يصـلح للإنشـاد إلاّ فـي مـا نـدر. الصـيف قصـيدةٌ نثريَّـةٌ لا تكتـرث بالنسـور المحلِّقة فـي الأعالي.

ليتني حجر

لا أَحنُّ إلى أيِّ شيءٍ
فلا أَمسِ يمضي، ولا الغَدُ يأتي
ولا حاضري يتقدَّمُ أَو يتراجَعُ
لا شيء يحدث لي!
ليتني حَجَرٌ - قُلْتُ - يا ليتني
حَجَرٌ ما ليصقُلَني الماءُ
أَخضَرُ، أَصفَرُ ... أُوضَعُ في حُجْرَةٍ
مثلَ مَنْحُوتةٍ، أَو تمارينَ في النحت...
أو مادَّةً لانبثاق الضروريِّ
من عبث اللاضروريّ ...

يا ليتني حجرٌ
كي أَحنَّ إلى أيِّ شيء!

أبعد من التماهي

أَجلسُ أمام التلفزيون، إذ ليس في وسعي أن أفعل شيئاً آخر. هناك، أمام التلفزيون، أَعثُرُ على عواطفي، وأَرى ما يحدث بي ولي. ألدخان يتصاعد مني. وأَمدُّ يدي المقطوعةَ لأمسك بأعضائي المبعثرة من جسومٍ عديدة، فلا أَجدها ولا أهرب منها من فرط جاذبيّة الألم. أَنا المحاصَرُ من البرِّ والجوِّ والبحر واللغة. أقلعتْ آخرُ طائرةٍ من مطار بيروت ووضعتني أمام التلفزيون، لأشاهد بقيَّة موتي مع ملايين المشاهدين، لا شيء يثبت أني

موجود حين أفكِّر مع ديكارت، بل حين ينهض مني القربان، الآن، في لبنان. أَدخُلُ في التلفزيون، أنا والوحش. أَعلم أنَّ الوحش أقوى مني في صراع الطائرة مع الطائر. ولكني أَدمنت، ربما أكثر مما ينبغي، بُطُولَةَ المجاز: التهمني الوحشُ ولم يهضمني. وخرجتُ سالماً أكثر من مرة. كانت روحي التي طارت شَعَاعاً مني ومن بطن الوحش تسكن جسداً آخر أَخفَّ وأَقوى، لكني لا أعرف أين أنا الآن: أمام التلفزيون، أم في التلفزيون. أما القلب فإني أراه يتدحرج، ككوز صنوبر، من جبل لبناني إلى رَفَح!

العدوّ

كنتُ هناك قبل شهر. كنتُ هناك قبل سنة. وكنت هناك دائماً كأني لم أَكن إلاَّ هناك. وفي عام 82 من القرن الماضي حدث لنا شيء مما يحدث لنا الآن. حُوصرنا وقُتِلْنا وقاومنا ما يُعْرَضُ علينا من جهنم. القتلى / الشهداء لا يتشابهون. لكلٍّ واحد منهم قوامٌ خاصْ، وملامح خاصة، وعينان واسمٌ وعمر مختلف. لكن القتلة هم الذين يتشابهون. فَهُم واحدٌ مُوزَّعٌ على أَجهزة معدنية. يضغط على أزرار إلكترونية. يقتل ويختفي. يرانا ولا

نـراه، لا لأنـه شـبح، بـل لأنـه قنـاع فـولاذيّ لفكـرة ... لا ملامـح لـه ولا عينـان ولا عمر ولا اسـم. هـو ... هـو الـذي اختـار أن يكـون لـه اسم وحيد: العَدُوّ!

نيرون

ماذا يدور في بال نيرون، وهو يتفرّج على حريق لبنان؟ عيناه زائغتان من النشوة، ويمشي كالراقص في حفلة عُرْسٍ: هذا الجنون، جنوني، سيِّدُ الحكمة. فلتُشْعلوا النار في كل شيء خارج طاعتي. وعلى الأطفال أَن يتأدَّبوا ويتهذَّبوا ويكُفُّوا عن الصراخ بحضرة أنغامي!

وماذا يدور في بال نيرون، وهو يتفرَّج على حريق العراق؟ يُسْعِدُهُ أن يُوقِظَ في تاريخ الغابات ذاكرة تحفظ اسمه عَدُوّاً لحمورابي

وجلجامش وأبي نواس: شريعتي هي أُمُّ الشرائع. وعشبة الخلود تنبت في مزرعتي. والشعر؟.. ما معنى هذه الكلمة؟

وماذا يدور في بال نيرون، وهو يتفرَّج على حريق فلسطين؟ يُبهجه أن يدرج اسمه في قائمة الأنبياء نبيّاً لم يؤمن به أَحد من قبل ... نبيّاً للقتل كلَّفه الله بتصحيح الأخطاء التي لا حصر لها في الكتب السماوية: أنا أَيضاً كليمُ الله!

وماذا يدور في بال نيرون وهو يتفرَّج على حريق العالم؟ «أنا صاحب القيامة». ثم يطلب من الكاميرا وقف التصوير، لأنه لا يريد لأَحد أن يرى النار المشتعلة في أَصابعه، عند نهاية هذا الفيلم الأميركي الطويل!

الغابة

لا أسمعُ صوتي في الغابة، حتى لو
خَلَتِ الغابةُ من جوع الوحشِ ...
وعاد الجيشُ المهزومُ أو الظافرُ، لا فرق،
على أشلاء الموتى المجهولين إلى الثكَنات
أو العرشِ |
ولا أسمع صوتي في الغابة، حتى لو
حملته الريحُ إليَّ، وقال لي:
«هذا صوتُكَ» ... لا أَسمعُهُ

لا أسمع صوتي في الغابة، حتى لو

وقف الذئب على قدمين و صفَّق لي:
«إني أسمع صوتك، فلتَأمُرْني! |»
فأقول : الغابةُ ليست في الغابة
يا أَبتي الذئبَ ويا ابني! |

لا أَسمع صوتي إلاّ إنْ
خَلَتِ الغابةُ مني
وخلوتُ أنا من صمت الغابة!

حَمَام

رفٌّ من الحمام ينقشع فجأة من خلل الدخان. يلمع كبارقة سِلْم سماوية. يحلِّق بين الرماديّ وفُتات الأزرق علًى مدينة من ركام. ويذكِّرنا بأن الجمال ما زال موجوداً، وبأن اللا موجود لا يعبث بنا تماماً إذ يَعِدُنا، أو نظنُّ أنه يعدنا بتجلِّي اختلافه عن العدم. في الحرب لا يشعر أَحد منا بأنه مات إذا أَحسَّ بالألم. الموت يسبق الألم. والألم هو النعمة الوحيدة في الحرب. ينتقل من حيّ إلى حيّ مع وقف التنفيذ. وإذا حالف الحظّ أحداً

نسـيَ مشـاريعه البعيـدة، وانتظـر الـلا موجـود وقـد وُجِـدَ مُـحَلِّقاً في رفّ حمام. أرى في سـماء لبنـان كثيراً مـن الحمـام العابث بدخان يتصـاعد من جهة العدم!

البيتُ قتيلاً



بدقيقـة واحـدة، تنتهي حيـاةُ بيتٍ كاملـة. البيتُ قتيـلاً هـو أيضـاً قَتْـلٌ جماعـيّ حتى لـو خلا من سُـكّانه. مقبـرة جماعيـة للمـوادّ الأوليـة الـمُعَدَّةِ لبنـاء مبنـى للمعنـى، أو قصـيدةٍ غيـر ذات شـأن فـي زمـن الحـرب. البيـت قتيـلاً هـو بَتْـرُ الأشـياء عـن علاقاتهـا وعـن أسـماء المشـاعر. وحاجـةُ التراجيديـا إلـى تصـويب البلاغـة نحـو التَّبَصُّـر فـي حيـاة الشـيء. فـي كل شـيء كائـنٌ يتوجَّـع... ذكـرى أَصـابع وذكـرى رائحـة وذكرى صـورة. والبيـوت تُقْتَلُ

كما يُقْتَلُ سكانها. وتُقْتَلُ ذاكرةُ الأشياء: الحجر والخشب والزجاج والحديد والإسمنتُ تتناثر أشلاء كالكائنات. والقطن والحرير والكتّان والدفاتر والكتب تتمزّق كالكلمات التي لم يتسَنَّ لأصحابها أن يقولوها. وتتكسَّر الصحون والملاعق والألعاب والأسطوانات والحنفيّات والأنابيب ومقابض الأبواب والثلاَّجة والغسَّالة والمزهريات ومرطبانات الزيتون والمخللات والمعلبات كما انكسر أصحابها. ويُسحق الأبْيَضان الملح والسُّكَّر، والبهارات وعلب الكبريت وأقراص الدواء وحبوب منع الحمل والعقاقير المُنَشّطة وجدائل الثوم والبصل والبندورة والبامية المُجَفَّفة والأرُزّ والعدس، كما يحدث لأصحابها. وتتمزَّق عقود الإيجار ووثيقة الزواج وشهادة الميلاد وفاتورة الماء والكهرباء وبطاقات الهوية وجوازات السفر والرسائل الغرامية، كما تتمزّق قلوب أَصحابها. وتتطاير الصُّوَر وفُرَشُ الأسنان وأمشاط الشَّعْر وأدوات الزينة والأحذية والثياب الداخلية والشراشف والمناشف كأسرار عائلية

تُنْشَرُ على الملأ والخراب. كل هذه الأشياء ذاكرةُ الناس التي أُفْرِغتْ من الأشياء، وذاكرة الأشياء التي أُفْرِغَتْ من الناس... تنتهي بدقيقة واحدة. أشياؤنا تموت مثلنا. لكنها لا تُدْفَنْ معنا!

مَكْرُ المجاز

مجازاً أقول: انتصرتُ
مجازاً أقول: خسرتُ ...
ويمتدُّ وادٍ سحيقٌ أمامي
وأَمتدُّ في ما تبقَّى من السنديانْ ...
وثَمَّة زيتونتان
تَلُمَّانني من جهاتٍ ثلاثٍ
ويحملني طائرانْ
إلى الجهة الخاليةْ
من الأَوْج والهاويةْ
لئلاَّ أقول: انتصرتُ
لئلاَّ أقول: خسرتُ الرهانْ!

ألبعوضة

أَلبعوضـةُ، ولا أَعـرف اسـم مُذَكَّرهـا، أشَـدُّ فَتْـكاً مـن النميمـة. لا تكتفـي بمصّ الـدم، بـل تـزجّ بـك فـي معركـة عَبَثيّـة. ولا تـزور إلاّ فـي الظـلام كَحُمَّـى المتنبـي. تَطِـنُّ وَتَـزُنُّ كطائـرةٍ حربيـة لا تسـمعها إلاّ بعـد إصـابة الهـدف. دَمُـكَ هـو الهـدف. تُشْـعل الضـوء لتراهـا فتختفـي في رُكْـنٍ ما مـن الغرفة والوسـاوس، ثم تقف على الحائط ... آمنةً مسـالمةً كالمستسلمة. تحـاول أن تقتلهـا بفـردة حذائـك، فتراوغـك وتفلـت وتعـاود الظهـور الشـامت. تشـتمها

بصوت عال فلا تكترث. تفاوضها على هدنة بصوت وُدِّي: نامي لأنام! تظنُّ أَنك أَقْنَعْتَها فتطفئ النور وتنام. لكنها وقد امتصت المزيد من دمك تعاود الطنين إنذاراً بغارة جديدة. وتدفعك إلى معركة جانبيّة مع الأَرَق. تشعل الضوء ثانية وتقاومهما، هي والأرق، بالقراءة. لكن البعوضة تحطُّ على الصفحة التي تقرؤها، فتفرح قائلاً في سرّك: لقد وَقَعَتْ في الفخّ. وتطوي الكتاب عليها بقُوَّة: قَتَلْتُها... قتلتُها! وحين تفتح الكتاب لتزهو بانتصارك، لا تجد البعوضة ولا الكلمات. كتابك أَبيض!. البعوضة، ولا أعرف اسم مُذَكَّرها، ليست استعارة ولا كنايةً ولا تورية. إنها حشرة تحبُّ دمك وتَشُمُّه عن بُعْد عشرين ميلاً. ولا سبيل لك لمساومتها على هدنة غير وسيلة واحدة: أن تغيِّر فصيلةَ دمك!

نسر على ارتفاع منخفض

قال المسافرُ في القصيدة
للمسافر في القصيدة:
كم تبقَّى من طريقكَ؟
ـ كُلُّهُ
ـ فاذهبْ إذاً، واذهبْ
كأنَّكَ قد وصلتَ ... ولم تصلْ
ـ لولا الجهات، لكان قلبي هُدْهُداً
ـ لو كان قلبُكَ هدهداً لتبعتُهُ
ـ مَنْ أَنتَ؟ ما اسمُكَ؟
ـ لا اسمَ لي في رحلتي

ـ أأراك ثانيةً؟

ـ نعم. في قِمَّتَيْ جَبَـلَيْن بينهما
صدىً عالٍ وهاويةٌ ... أراكَ

ـ وكيف نقفز فوق هاويةٍ
ولسنا طائِرَيْنِ؟

ـ إذنْ، نغنِّي:
مَنْ يرانا لا نراهُ
ومَنْ نراهُ لا يرانا

ـ ثم ماذا؟

ـ لا نغنِّي

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم تسألني وأسألُ:
كم تبقَّى من طريقكَ؟

ـ كُلُّهُ

ـ هل كُلُّهُ يكفي لكي يَصِلَ الـمُسَافِرُ؟

ـ لا. ولكني أرى نسراً خرافيّاً
يحلِّقُ فوقنا... وعلى ارتفاعٍ منخفضْ!

واجب شخصي

هتفوا له: يا بطل! واستعرضوهُ في الساحات. نَطَّتْ عليه قلوب الفتيات الواقفات على الشرفات، ورششنه بالأَرُزِّ والزنبق. وخاطبه الشعراء المتمردون على القافية بقافية ضروريّة لتهييج اللغة: «يا بَطَلْ! أنتَ الأَمَلْ». وهو، هو المرفوع على الأكتاف رايةً منتصرة، كاد أن يفقد اسمه في سيل الأوصاف. خجول كعروس في حفلة زفافها. «لم أفعل شيئاً. قمت بواجبي الشخصي». في صباح

اليوم التالي، وجد نفسه وحيداً يستذكر ماضياً بعيداً يلوِّح له بيد مبتورة الأصابع «يا بطل! أنت الأمل». يتطلع حوله فلا يرى أحداً من المحتفلين به البارحة. يجلس في جُحرْ العزلة. ينقِّبُ في جسده عن آثار البطولة. ينتزع الشظايا ويجمعها في صحنِ تَنَك، ولا يتألم... «ليس الوجع هنا. الوجع في موضع آخر. لكن من يستمع الآن إلى استغاثة القلب»؟ أحسَّ بالجوع. تفقَّد معلبات السردين والفول فوجدها منتهية الصلاحية. ابتسم وغمغم: «للبطولة أيضاً تاريخ انتهاء صلاحية». وأدرك أنه قام بواجبه الوطنيّ!

عَدُوّ مشترك

تمضي الحرب إلى جهة القيلولة. ويمضي المحاربون إلى صديقاتهم متعبين وخائفين على كلامهم من سوء التفسير: انتصرنا لأننا لم نمت. وانتصر الأعداء لأنهم لم يموتوا. أمَّا الهزيمة فإنها لفظة يتيمة. لكنَّ المحارب الفرد ليس جندياً بحضرة من يُحبُّ: لولا عيناك المُصَوَّبتان إلى قلبي لاخترقتْ رصاصةٌ قلبي! أو: لولا حرصي على ألاَّ أُقْتَلَ لما قتلتُ أحداً! أو: خفت عليك من موتي، فنجوت لأطمئنك عليَّ. أو: البطولة

كلمة لا نستخدمها إلاّ على المقابر. أو: في المعركة لم أفكِّر بالنصر، بل فكرت بالسلامة وبالنمش على ظهرك. أو: ما أَضيق الفرق بين السلامة والسلام وغرفة نومك. أو: حين عطشتُ طلبتُ الماء من عدوي ولم يسمعني، فنطقت باسمك وارتويت... ألمحاربون من الجانبين يقولون كلاماً متشابهاً بحضرة من يُحِبُّون. أمَّا القتلى من الجانبين، فلا يدركون إلاّ متأخرين، أن لهم عدواً مشتركاً هو: الموت. فما معنى ذلك، ما معنى ذلك؟

بقيَّةُ حياة

إذا قِيل لي: ستموتُ هنا في المساء
فماذا ستفعل في ما تبقَّى من الوقتِ؟
– أَنظُرُ في ساعة اليدِ
أَشربُ كأسَ عصيرٍ
وأَقْضُمُ تُفَّاحَةً
وأُطيلُ التأمُّلَ في نَمْلَةٍ وَجَدَتْ رِزْقها...
ثُمَّ أَنظر في ساعة اليدِ:
ما زال ثَمَّةَ وقتٌ لأَحلق ذقني
وأَغطسَ في الماء | أَهجسُ:
«لا بُدَّ من زينةٍ للكتابةِ

فليكُنِ الثوبُ أزرقَ»....
أَجلسُ حتى الظهيرة، حيّاً، إلى مكتبي
لا أرى أَثَرَ اللون في الكلمات
بياضٌ، بياضٌ، بياضٌ ...

أُعِدُّ غدائي الأخير
أَصبُّ النبيذ بكأسين: لي
ولمَنْ سوف يأتي بلا موعدٍ.
ثُمَّ آخُذُ قَيْلُولةً بين حُلْمينِ
لكنَّ صوتَ شخيري سيُوقظُني ...
ثُمَّ أنظرُ في ساعة اليدِ:
ما زال ثَمَّةَ وَقْتٌ لأَقْرأَ
أَقرأُ فصلاً لدانتي ونصْفَ مُعَلَّقَةٍ
وأرى كيف تذهب مني حياتي
إلى الآخرين، ولا أَتساءل عَمَّنْ
سيملأُ نُقْصَانَها
ـ هكذا؟
ـ هكذا،

ثُمَّ ماذا؟

– أُمَشِّطُ شَعْري

وأَرمي القصيدةَ: هذي القصيدةَ

في سلَّة المهملات

وأَلبسُ أحدث قُمْصانِ إيطاليا

وأُشيِّعُ نفسي بحاشِيَةٍ من كَمَنْجات إِسبانيا

ثُمَّ

أمشي

إلى المقبرةْ!

لون أصفر

أزهارٌ صفراء توسِّع ضوء الغرفة. تنظر إليَّ أكثر مما أنظر إليها. هي أولى رسائل الربيع. أهْدَتْنِيها سيِّدةٌ لا تشغلها الحرب عن قراءة ما تبقَّى لنا من طبيعة متقشفة. أَغبطها على التركيز الذي يحملها إلى ما هو أبعد من حياتنا المهلهلة ... أَغبطها على تطريز الوقت بإبرة وخيط أَصفر مقطوع من الشمس غير المحتلة. أُحدِّق إلى الأزهار الصفراء، وأُحسّ بأنها تضيئني وتذيب عتمتي، فأخفّ

وأشفّ وأجاريها في تبادل الشفافية. ويُغويني مجاز التأويل: الأصفر هو لونُ الصوت المبحوح الذي تسمعه الحاسة السادسة. صوت مُحَايِدُ النَّبْرِ، صوت عباد الشمس الذي لا يغيِّرُ دِينَه. وإذا كان للغيرة - لونِهِ من فائدة، فهي أن ننظر إلى ما حولنا بفروسية الخاسر، وأن نتعلم التركيز على تصحيح أخطائنا في مسابقاتٍ شريفة!

ليت الفتى شجرة

ألشجرة أخت الشجرة، أو جارتها الطيّبة. الكبيرة تحنو على الصغيرة، وتُمدُّها بما ينقصها من ظلّ. والطويلة تحنو على القصيرة، وترسل إليها طائراً يؤنسها في الليل. لا شجرة تسطو على ثمرة شجرة أخرى، وإن كانت عاقراً لا تسخر منها. ولم تقتل شجرةٌ شجرةً ولم تقلِّد حَطّاباً. حين صارت زورقاً تعلَّمت السباحة. وحين صارت باباً واصلت المحافظة على الأسرار. وحين صارت مقعداً لم تنسَ سماءها السابقة.

وحين صارت طاولة عَلَّمت الشاعر أن لا يكون حطاباً. الشجرة مَغْفَرةٌ وسَهَرٌ. لا تنام ولا تحلم. لكنها تُؤْتَمَنُ على أسرار الحالمين، تقف على ساقها في الليل والنهار. تقف احتراماً للعابرين وللسماء. الشجرة صلاة واقفة. تبتهل إلى فوق. وحين تنحني قليلاً للعاصفة، تنحني بجلال راهبة وتتطلع إلى فوق ... إلى فوق. وقديماً قال الشاعر: «ليت الفتى حجر». وليته قال: ليت الفتى شجرة!

وصلنا متأخرين

في مرحلة ما من هشاشةٍ نُسَمِّيها نضجاً، لا نكون متفائلين ولا متشائمين. أَقلعنا عن الشغف والحنين وعن تسمية الأشياء بأضدادها، من فرط ما التبس علينا الأمر بين الشكل والجوهر، ودرَّبنا الشعورَ على التفكير الهادئ قبل البوح. للحكمة أسلوبُ الطبيب في النظر إلى الجرح. وإذ ننظر إلى الوراء لنعرف أَين نحن منَّا ومن الحقيقة، نسأل: كم ارتكبنا من الأخطاء؟ وهل وصلنا إلى الحكمة

متأخرين. لسنا متأكدين من صواب الريح، فماذا ينفعنا أن نصل إلى أيّ شيء متأخرين، حتى لو كان هنالك من ينتظرنا على سفح الجبل، ويدعونا إلى صلاة الشكر لأننا وصلنا سالمين ...
لا متفائلين ولا متشائمين، لكن متأخرين!

غريبان

يرنو إلى أَعلى
فيبصر نجمةً
ترنو إليهْ!

يرنو إلى الوادي
فيبصر قبرَهُ
يرنو إليهْ

يرنو إلى امرأةٍ،
تعذِّبُهُ وتعجبُهُ

ولا ترنو إليه

يرنو إلى مرآتِهِ
فيرى غريباً مثله
يرنو إليهْ!

ماذا ... لماذا كُلُّ هذا؟

يُسَلِّي نفسه، وهو يمشي وحيداً، بحديث قصير مع نفسه. كلمات لا تعني شيئاً، ولا تريد أن تعني شيئاً: «ماذا؟ لماذا كل هذا؟» لم يقصد أن يتذمر أو يسأل، أو يحكَّ اللفظة باللفظة لتقدح إيقاعاً يساعده على المشي بخفَّةِ شاب. لكن ذلك ما حدث. كلما كرَّر: ماذا ... لماذا كل هذا؟ أحسَّ بأنه في صحبة صديق يعاونه على حمل الطريق. نظر إليه المارة بلا مبالاة. لم يظن أَحد أنه

مجنـون. ظنـوه شـاعراً حالمـاً هائمـاً يتلقّـى وحيـاً مفاجئـاً مـن شـيطان. أمـا هـو، فلـم يَتَّهـم نفسـه بمـا يسـيء إليهـا. ولا يـدري لمـاذا فكَّـر بجنكيزخـان. ربمـا لأنـه رأى حصـاناً بـلا سـرج يسـبح فـي الهـواء، فـوق بنايـة مُهَدَّمـة فـي بطـن الـوادي. واصـل المشـي علـى إيقـاع واحـد: «مـاذا ... لمـاذا كل هـذا؟» وقبـل أن يصـل إلـى نهايـة الطريـق الـذي يسـير عليـه كل مسـاء، رأى عجـوزاً ينتحـي شـجرة أكاليبتوس، يسـند علـى جذعهـا عصـاه، يفـك أزرار سـرواله بيـد مرتجفـة، ويبـول وهـو يقـول: مـاذا ... لمـاذا كل هـذا؟. لـم تكتـف الفتيـات الطالعـات مـن الوادي بالضـحك علـى العجوز، بل رمينه بحبَّات فستق أَخضر!

موهبة الأمل

كلما فكَّر بالأمل أنهكه التعب والملل، واخترع سراباً، وقال: بأيّ ميزانٍ أَزِنُ سرابي؟ بحث في أدراجه عمَّن كانه قبل هذا السؤال، فلم يعثر على مُسَوَّداتٍ كان فيها القلبُ سريعَ العطب والطيش. ولم يعثر على وثيقة تثبت أنه وقف تحت المطر بلا سبب. وكلما فكَّر بالأمل اتسعت المسافة بين جسد لم يعد خفيفاً وقلبٍ أصيب بالحكمة. ولم يكرِّر السؤال: مَنْ أنا؟ من فرط ما هو

مُجَافٍ لرائحة الزنبق وموسيقى الجيران العالية. فتح النافذة على ما تبقَّى من أفق، فرأى قطَّتين تمازحان جَرْواً على الشارع الضيِّق، وحمامةً تبني عشاً في مدخنة. وقال: ليس الأمل نقيض اليأس، ربما هو الإيمان الناجم عن لا مبالاة آلهةٍ بنا ... تركتنا نعتمد على مواهبنا الخاصة في تفسير الضباب. وقال: ليس الأمل مادَّةً ولا فكرة. إنه موهبة. تناول قرصاً مضاداً لارتفاع ضغط الدم. ونسي سؤال الأمل ... وأَحسَّ بفرح ما ... غامض المصدر!

ما أنا إلاّ هو

بعيداً، وراء خطاه
ذئابٌ تَعَضُّ شعاع القمرْ

بعيداً، أمام خطاه
نجوم تضيء أَعالي الشجرْ

وفي القرب منه
دمٌ نازفٌ من عروق الحجرْ

لذلك، يمشي ويمشي ويمشي

إلى أن يذوب تماماً
ويشربه الظلّ عند نهاية هذا السفرْ

وما أنا إلاّ هُوَ
وما هو إلاّ أنا
في اختلاف الصُّوَرْ!

لم أحلم

متنبّهاً إلى ما يتساقط من أَحلامي، أَمنع عطشي من الإسراف في طلب الماء من السراب. أَعترفُ بأني تعبت من طول الحلم الذي يعيدني إلى أَوَّله وإلى آخري، دون أن نلتقي في أيِّ صباح. «سأصنع أحلامي من كفاف يومي لأتجنَّب الخيبة». فليس الحلم أن ترى ما لا يُرى، على وتيرة المُشْتَهى، بل هو أن لا تعلم أنك تحلم. لكن، عليك أن تعرف كيف تصحو. فاليقظة هي نهوض الواقعي من الخياليّ مُنَقَّحاً،

وعودةُ الشِعْر سالماً من سماءِ لُغَةٍ متعالية إلى أرض لا تشبه صورتها. هل في وسعي أن أختار أحلامي، لئلا أحلم بما لا يتحقّق، كأن أكون شخصاً آخر ... يحلم بأنه يرى الفرق بين حيّ يرى نفسه ميتاً، وبين ميت يرى نفسه حيّاً؟ ها أَنذا حيّ، وحين لا أحلم أَقول: «لم أحلم، فلم أَخسر شيئاً»!

جار الصغيرات الجميلات

يمشي على الشارع ذاته، في الموعد ذاته، مكتفياً بما يمنحه المساء من تذوّق متمهّل لطعم الهواء. يأسف كلما لاحظ النقصان المتزايد في أشجار الزيتون، حيث تزداد البنايات ارتفاعاً كآلامنا وتُقَلِّص كمية الفضاء. لكن الفتيات الصغيرات يكثرن ويكبرن وينضجن دون أن يخشين الزمن المتربِّص بهن عند نهاية الشارع النازل إلى الوادي، ينظر إليهن بلا اشتهاء. وينظرن إليه بفضول، ويقلن له: مساء الخير يا عم!. يُحِبُّهنَّ

بلا غصَّةٍ سفرجليَّة، ويحتفي بجمال نضارتهنَّ وبنضارة آمالهنّ، كما يحتفي بموسيقى، وبلوحة مائية، وبطائر أزرق الذيل. هُنَّ يستعجلن الزمن ليصبغن أظافرهن بالأحمر المتحرّش بثيران خفيّة، ولينتعلن الكعب العالي لكسر ثمار الجوز وإيقاظ النائم. وهو يستمهل الزمن ليطيل متعة المرور بينهن جاراً الجمال مستقلّ. ولا بأس في أن يتذكر أنه عندما كان أَصغر كان يغبط نفسه كلما مشى برفقة مُهْرَةٍ على طرق أخرى: «هل كُلُّ هذا الكليّ لي؟» ثم يواصل المشي على الشارع وحيداً. يَعُدُّ على أصابع يديه ما تبقَّى من أشجار الزيتون، ويفرح بغزلان تتقافز حوله بحياد متبادل. لا يغبط نفسه على شيء!.. ولا يحسد غيره!

كم البعيد بعيد

«كم البعيدُ بعيدٌ»؟
كم هي السُبُلُ؟
نمشي
ونمشي إلى المعنى
ولا نَصِلُ ...

هُوَ السرابُ
دليلُ الحائرين
إلى الماء البعيد
هو البُطْلاَن ... والبَطَلُ

نمشي، وتنضج في الصحراءِ
حكمتُنا
ولا نقول: لأنّ التيهَ يَكْتملُ

لكن حكمتنا تحتاجُ أُغنيةً
خفيفةَ الوزن،
كي لا يتعب الأَمَلُ

«كم البعيد بعيدٌ»؟
كم هِيَ السُبُلُ؟

يرى نفسه غائباً

أنـا هنـا منذ عشـر سـنوات. وفـي هذا المسـاء، أجلس فـي الحديقـة الصـغيرة علـى كرسـيّ من البلاسـتيك، وأنظـر إلى المـكان منتشـياً بالحجر الأحمـر. أَعُـدُّ الدرجـات المؤديـة إلـى غرفتـي علـى الطابـق الثانـي. إحدى عشـرة درجـة. إلى اليمين شـجرةُ تين كبيـرة تُظَلِّل شـجيرات خوخ. وإلـى اليسـار كنيسـةٌ لوثريَّـة. وعلـى جانـب الدرج الحجري بئر مهجورة ودلو صـدئ وأزهار غيـر مرويَّة تمتصّ حبيبات من حليـب أوَّل الليل. أنا هنا، مع أربعين شخصاً، لمشاهدة مسرحية قليلة

الكلام عن منع التجوُّل، ينتشر أبطالها المنسيّون في الحديقة وعلى الدرج والشرفة الواسعة. مسرحية مرتجلة، أو قيد التأليف، كحياتنا. أسترق النظر إلى نافذة غرفتي المفتوحة وأتساءل: هل أنا هناك؟ ويعجبني أن أدحرج السؤال على الدرج، وأدرجه في سليقة المسرحية: في الفصل الأخير، سيبقى كل شيء على حاله

شجرةُ التين في الحديقة. الكنيسةُ اللوثرية في الجهة المقابلة. يوم الأحد في مكانه من الرُزنامة. والبئر المهجورة والدلو الصدئ. أما أنا، فلن أكون في غرفتي ولا في الحديقة. هكذا يقتضي النص: لا بد من غائب للتخفيف من حمولة المكان!

قال: أنا خائف

خافَ. وقال بصوت عالٍ: أنا خائف. كانت النوافذ مُحْكَمَةَ الإغلاق، فارتفع الصدى واتّسع: أنا خائف. صَمَتَ، لكن الجدران ردَّدتْ: أنا خائف. الباب والمقاعد والمناضد والستائر والبُسُط والكتب والشموع والأقلام واللوحات قالت كُلُّها: أنا خائف. خاف صوت الخوف فصرخ: كفى! لكن الصدى لم يردِّد: كفى! خاف المكوث في البيت فخرج إلى الشارع. رأى شجرة حَوْرٍ،

مكسورة فخاف النظر إليها لسبب لا يعرفه. مرت سيارة عسكرية مسرعة، فخاف المشي على الشارع. وخاف العودة إلى البيت لكنه عاد مضطراً. خاف أن يكون قد نسي المفتاح في الداخل، وحين وجده في جيبه اطمأنّ. خاف أن يكون تيار الكهرباء قد انقطع. ضغط على زر الكهرباء في ممر الدرج، فأضاء، فاطمأن. خاف أن يتزحلق على الدرج فينكسر حوضه، ولم يحدث ذلك فاطمأنّ. وضع المفتاح في قفل الباب وخاف ألا ينفتح، لكنه انفتح فاطمأنّ. دخل إلى البيت، وخاف أن يكون قد نسي نفسه على المقعد خائفاً. وحين تأكد أنه هو من دخل لا سواه، وقف أمام المرآة، وحين تعرَّف إلى وجهه في المرآة اطمأنّ. أَصغى إلى الصمت، فلم يسمع شيئاً يقول: أنا خائف، فاطمأنّ. ولسببٍ ما غامض ... لم يعد خائفاً!

هدير الصمت

أُصغي إلى الصمت. هل ثمة صمت؟ لو نسينا اسمه، وأَرهفنا السمع إلى ما فيه، لسمعنا أَصوات الأرواح الهائمة في الفضاء، والصرخات التي اهتدت إلى الكهوف الأولى. الصمت صوت تبخّر واختبأ في الريح، وتكسّر أَصداء محفوظةً في جِرارٍ كونيّة. لو أرهفنا السمع لسمعنا صوتَ ارتطام التفاحة بحجر في بستان الله، وصرخةَ هابيل الخائفةَ من دمه الأول، وأَنينَ الشهوة الأصلي بين ذكر وأُنثى

لا يعرفان ما يفعلان، ولسمعنا تأملاتِ يونس في بطن الحوت، والمفاوضاتِ السرية بين الآلهة القدامى. ولو أرهفنا السمع إلى ما وراء حجاب الصمت، لاستمعنا إلى أحاديث الليل بين الأنبياء وزوجاتهم، وإلى إيقاعات الشعر الأولى، وإلى شكوى الأباطرة من الضجر، وإلى حوافر خيل في حرب مجهولة الزمان والمكان، وإلى الموسيقى المصاحبة لطقس الدعارة المقدس، وإلى بكاء جلجامش على صاحبه أنكيدو، وإلى حيرة القرد حين قفز من الشجرة إلى عرش القبيلة، وإلى الشتائم المتبادلة بين سارة وهاجر. لو أَرهفنا السمع إلى صوت الصمت ... لصار كلامنا أَقل!

شخص يطارد نفسه

كما لو كنتَ غيرك سادراً،
لم تنتظر أَحداً
مشيتَ على الرصيف
مشيتُ خلفك حائراً
لو كنتَ أنتَ أنا لقلتُ لَكَ:
انتظرني عند قارعة الغروب
ولم تقل: لو كنتَ أنتَ أنا
لما احتاج الغريب إلى الغريب.
ألشمس تضحك للتلال. ونحن نضحك
للنساء العابرات. ولم تقل إحدى النساء:

هناك شخص ما يُكَلِّم نفسه ...
لم تنتظر أحداً
مشيتَ على رصيفك سادراً
ومشيتُ خلفك حائراً.
والشمسُ غابت خلفنا ...
ودَنَوْتَ مني خطوةً أو خطوتين
فلم تجدني واقفاً أو ماشياً
ودَنَوْتُ منك فلم أجدك ...
أكنتُ وحدي دون أن أدري
بأني كنت وحدي؟ لم تقل
إحدى النساء: هناك شخصٌ ما
يطارد نَفْسَهُ!

حنين إلى نسيان

ظلام. وقعتُ عن السرير ممسوساً بسؤال: أَين أنا؟ بحثت عن جسدي فأحسستُ به يبحث عني. وبحثت عن مفتاح النور لأرى ما يحدث لي، فلم أَجده. تعثَّرتُ بكرسيّ فأسقطتُهُ وأسقطني على ما لا أَعرف. وكأعمى يرى بأصابعه الأشياء فَتَّشت عن جدار أَستند إليه، فارتطمتُ بخزانة. فتحتُها ... فلامستْ يدي ثياباً شَمَمْتُها فعثرتُ على رائحتي. أدركت أني في حيِّز من العالم يخصني، وانفصل عني أو انفصلت عنه. تابعتُ البحث عن

مفتـاح النـور لأرى إن كان ذلـك صـحيحاً، فوجدتـه. تعرفـت إلـى أشـيائي: هـذا سـريري، وهـذا كتابـي، وهـذه حقيبتـي، وهـذا الـذي فـي البيجامـة هـو أنـا تقريبـاً. فتحـت النافـذة، وسـمعت نبـاح كلاب فـي الـوادي. ولكـن، لم أتذكـر متـى عـدت، ولا أتذكـر أني وقفـتُ على الجسـر. ظننـتُ أنـي أحلـم بأنـي هنـا ولسـتُ هنـا. غسـلت وجهي بمـاء بـارد، وتأكـدت من يقظتي. سـرت إلى المطبخ فرأيـت فواكه طازجة، وصـحوناً غيـر مغسـولة تدلُّ علـى أننـي تناولت العشـاء هنـا. لكن، متـى حدث ذلك؟ تصـفحت جـواز السـفر فأدركت أني وصـلت اليـوم، دون أن أتذكـر أنـي سـافرت. هـل حصـل فصـامٌ مـا فـي ذاكرتـي؟ هل انفصـل وجـودي النفسـي عن وجودي الفيزيائي. خفتُ .. واتصـلتُ بصديق في سـاعة متأخـرة مـن الليـل: أُعانـي مـن وعكة في الذاكـرة ... أيـن أنـا؟ قـال: أنـت فـي رام الله. سـألته: متـى أتيـت؟ قـال: اليـوم، وكنا معـاً بعد الظهر في حديقة ڤاتشـي. سـألته: لمـاذا لا أتذكر،

هل تظن أني مريض؟ قال: يحدث ذلك مع مرضى من نوع آخر: مرضى الحنين إلى النسيان!

نهر يموت من العطش

كان نهرٌ هنا،
وله ضفّتان
وأُمٌّ سماويَّةٌ أرضَعَتْهُ السحابَ المُقَطَّرَ،
نهرٌ صغيرٌ يسير على مهله
نازلاً من أعالي الجبال
يزور القرى والخيام كضيف لطيف خفيف
ويحمل للغَوْر أشجارَ دفلى ونخل
ويضحك للساهرين على ضفتيه:
«اشربوا لَبَنَ الغيمِ
واسقوا الخيول

وطيروا إلى القدس والشام»
كان يغني فروسيةً مرةً
وهوى مَرةً...
كان نهراً له ضفتان
وأُمٌّ سماويّةٌ أرضعته السحاب المُقَطَّر
لكنهم خطفوا أُمَّه،
فأصيب بسكتة ماء
ومات، على مهله، عطشاً!

الجدار

أَفعى معدنية ضخمة تلتفُّ حولنا. تبتلع جدراننا الصغيرة الفاصلة بين غرفة النوم والحمام والمطبخ وغرفة الاستقبال. أَفعى لا تسعى بخط مستقيم لئلاَّ تَتَشَبَّه بنظراتنا إلى أمام. تتلوَّى وترفع كابوسها المصنوع من فقرات إسمنت مُقَوَّى بحديد مرن ... يُسَهِّلُ عليها الحركة إلى ما تبقَّى لنا من فُتات جهاتٍ وأحواضِ نعناع. أَفعى تسعى لوضع بيضها بين زفيرنا والشهيق: لنقول مرة واحدة: نحن،

من فرط ما نختنق، نحن الغرباء. ننظر في مرايانا فلا نرى غير اقتراب الأفعى من أعناقنا. لكننا، وبقليل من جهد الرؤيا، نرى ما فوقها: نرى سماء تتثاءب ضجراً من مهندسين يسقفونها بالبنادق والبيارق. ونراها في الليل تتلألأ بكواكب تحدِّق إلينا بحنان. ونرى أَيضاً ما خلف جدار الأفعى: نرى حُرَّاس الڠيتو خائفين مما نفعل خلف ما تبقى لنا من جدران صغيرة... نراهم يُزَيِّتون أَسلحتهم لقتل العنقاء التي ظنوها تختبئ عندنا، في قنّ دجاج. فلا نملك إلاّ أَن نضحك!

شريعة الخوف

ينظر القاتل إلى شَبَح القتيل، لا إلى عينيه، بلا ندم. يقول لمن حوله: لا تلوموني، فأنا خائف. قتلتُ لأني خائف، وسأقتل لأني خائف. بعض المشاهدين المدربين على تفضيل التحليل النفساني على فقه العدل، يقول: إنه يدافع عن نفسه. والبعض الآخر من المعجبين بتفوُّق التطور على الأخلاق، يقول: العدل هو ما يفيض من كرم القوة. وكان على القتيل أن يعتذر عما سبَّب للقاتل من صدمة!

والبعض الآخر، من فقهاء التمييز بين الواقع والحياة، يقول: لو وقفتْ هذه الحادثة العادية في بلاد أخرى غير هذه البلاد المقدسة، أكان للقتيل اسم وشهرة؟ فلنذهبنَّ، إذن، إلى مواساة الخائف. وحين مشوا في مسيرة التعاطف مع القاتل الخائف، سألهم بعض المارة من السُيَّاح الأجانب: وما هو ذنب الطفل؟ فأجابوا: سيكبر ويسبِّب خوفاً لابن الخائف. وما هو ذنب المرأة؟ قالوا: ستلد ذاكرة. وما هو ذنب الشجرة؟ قالوا: سيطلع منها طائر أَخضر. وهتفوا: الخوف، لا العدل، هو أساس الملك. أما شبح القتيل، فقد أطلَّ عليهم من سماء صافية. وحين أطلقوا عليه النار لم يروا قطرة دم واحدة!.. وصاروا خائفين !

على قلبي مشيت

على قلبي مشيتُ، كأنَّ قلبي
طريقٌ، أو رصيفٌ، أو هواءُ
فقال القلبُ: أَتْعَبَني التماهي
مع الأشياء، وانكسر الفضاءُ
وأَتعبني سؤالُكَ: أين نمضي
ولا أرضٌ هناك... ولا سماءُ
وأَنتَ تطيعني ... مُرني بشيء
وصوِّبْني لأفعل ما تشاءُ
فقلتُ له: نسيتُكَ مذ مشينا
وأَنتْ تَعِلَّتي، وأنا النداءُ

تمرَّدْ ما استطعت عليَّ، واركُضْ
فليس وراءنا إلاّ الوراءُ!

روتين

مُنْخَفَضٌ جـويّ. الرياح شـمالية غربيـة، زخّات من مطـر. البحـر مجعَّد رمادي. أشـجار السـرو عاليـة. وغيـوم الخريـف تسـقط اليـوم ثلاثيـن شـهيداً شـمالي غـزة، بينهـم امرأتـان اشـتركتا فـي مظاهـرة تطالـب بحصـة النسـاء مـن الأمل. السـماء عاليـة. البحـر هـادئ أزرق. الريـاح شـمالية. الرؤيـة صـافية. لكـن غيـوم الخريف – الاسـم الرمـزي للقتل – تقضـي على أسـرة كاملة مكونة من سـبع عشـرة حيـاة ... تبحـث الأخبار عـن أسـمائهم تحـت الأنقاض. مـا عـدا ذلك،

تبدو الحياة غير العادية عاديَّةَ الوتيرة. ما زال الشيطان يتباهى بخلافه الطويل مع الله. وما زال الأفراد إذا صحوا أحياء قادرين على القول: صباح الخير. ثم يذهبون إلى أشغالهم الروتينية: تشييع الشهداء. ولا يعرفون إن كانوا سيعودون سالمين إلى ما تبقى من بيوت تحاصرها جرافات ودبابات وأشجار سرو مكسورة. والحياة، من فرط لامبالاتها، لا تُرَى إلاّ تخطيطاً أولياً لأمنيّة عصيّة على التدوين: المساواة مع بنات آوى في الاستمتاع بكهف آمن. لكننا مطالبون بمهمة صعبة: الوساطة بين الله والشيطان للتوصل إلى هدنة قصيرة ندفن خلالها شهداءنا!



بندقيَّة وكفن

«لن يهزمني أَحد. ولن أَنتصر على أَحد» ـ قال رَجُلُ الأمن المُقَنَّعُ المُكَلَّفُ مهمَّة غامضة. أطلق النار على الهواء، وقال: على الرصاصة وحدها أن تعرف مَنْ هو عدوِّي. ردَّ عليه الهواء برصاصة مماثلة. لم يكترث المارة العاطلون من العمل بما يدور في بال رجل الأمن المقنع العاطل مثلهم من العمل، لكنه يبحث عن حربه الخاصة منذ لم يجد سلاماً يدافع عنه. نظر إلى السماء فرآها عالية صافية. وبما أنه لا يحبُّ الشعر فلم ير فيها مرآة للبحر. كان

جائعاً، وازداد جوعاً حين شمَّ رائحة الفلافل، فأحسَّ بأن بندقيته تُهينُهُ. أطلق رصاصة على السماء لعلَّ عنقوداً من عنب الجنّة يسَّاقط عليه. ردّت عليه رصاصة مماثلة، فأجَّجت حماسته المكبوتة إلى القتال. فاندفع إلى حرب متخيَّلة، وقال: عثرت أخيراً على عمل. إنها الحرب. وأَطلق النار على رجل أَمن مُقَنَّع آخر، فأصاب عدوَّه المُتَخَيَّل، وأُصيب بجرح طفيف في ساقه. وحين عاد إلى بيته في المخيّم متكئاً على بندقيته، وجد البيت مزدحماً بالمعزّين، فابتسم لأنه ظنَّ أنهم ظنوا أنه شهيد، وقال: لم أَمت!. وعندما أخبروه أنه هو قاتل أخيه، نظر إلى بندقيته باحتقار، وقال: سأَبيعها لأشتري بثمنها كفناً يليق بأخي!

إن أردنا

سنصيرُ شعباً، إن أَردنا، حين نعلم أَننا لسنا ملائكةً، وأَنَّ الشرَّ ليس من اختصاص الآخرينْ

سنصير شعباً حين لا نتلو صلاة الشكر للوطن المقدَّس، كلما وجد الفقيرُ عشاءَهُ ...

سنصير شعباً حين نشتم حاجبَ السلطان والسلطان، دون محاكمةْ

سنصير شعباً حين يكتب شاعرٌ وصفاً إباحياً لبطن الراقصةْ

سنصير شعباً حين ننسى ما تقولُ لنا القبيلة...، حين يُعْلي الفرد من شأن التفاصيل الصغيرةْ

سنصير شعباً حين ينظر كاتبٌ نحو النجوم، ولا يقول: بلادنا أعلى... وأجملْ!

سنصير شعباً حين تحمي شرطةُ الآداب غانيةً وزانيةً من الضرب المبرِّح في الشوارعْ!

سنصير شعباً حين لا يتذكَّرُ الفردُ الفلسطينيُّ رايته سوى في ملعب الكرة الفسيح، وفي مسابقة الجمال، ويوم نكبته فقطْ

سنصير شعباً، إن أَردنا، حين يؤذن للمغنِّي أَن يرتِّل آية من «سورة الرحمن» في حفل الزواج المُخْتَلَطْ

سنصير شعباً حين نحترم الصواب، وحين نحترم الغَلَطْ!

وَقْتٌ مغشوش

لأنَّ أَحداً لا يأتي في موعده. ولأنَّ الانتظار يشبه الجلوس على صفيح ساخن... أَعاد عقارب ساعته اليدوية عشرين دقيقة إلى الوراء. هكذا خفَّف عن نفسه عذاب الانتظار، ونسي الأَمر. لكنه، ومنذ غشَّ الوقت، لم يصل إلى أيّ موعد. يجلس على حقيبته في المحطة منتظراً قطاراً لا يصل أبداً، دون أن ينتبه إلى أن القطار مَرَّ في موعده الدقيق، وإلى أنه هو الذي تأخر. يعود إلى بيته خائباً. يفتح حقيبة السفر

ويعيد محتوياتها إلى الأدراج ككُل عائدٍ من سفر. ثم يتساءل غاضباً: لماذا لا يحترمون الوقت؟ وحين دقَّ الموتُ على بابه مستأذناً بالدخول، وبَّخه قائلاً: لماذا وصلت قبل الموعد بعشرين دقيقة؟. اختبأ في الحمام. ولم يفتح له الباب، كأنه مات في الحمَّام!

إتقان

فضاء لازورديّ، عالٍ وعريض ومغسول بماء الضوء. وإنْ ظَهَرَتْ غيمةٌ خفيفة كفقاعة صابون، فلا تلبث أن تذوب في قصيدة منسية. فضاء دائري محمول على أشجار الغابة الباسقة وعلى أَجنحة النوارس، محمول على هودج في ذاكرة الحجاج إلى الأرض المقدسة. فضاء شاسع واسع مُتْقَنُ التكوين والتلوين. من فرط الإتقان ... أَخشى من حريق في الغابة، ومن غارة على النوارس، ومن سطو على

زوجة نبي. أَخشى من خلل طارئ في نظام الأشياء ... وأخشى من كتابة قصيدة موزونة ... على سطح هذه الشفافية!

واحد، اثنان، ثلاثة

صعد الممثِّل إلى خشبة المسرح مع مهندس الصوت: واحد، اثنان، ثلاثة. توقَّفْ! سنجرِّبُ الصوت مرة ثانية: واحد، اثنان، ثلاثة، توقَّفْ! هل تفضّل قليلاً من الصدى؟ قال: لا أَعرف ... افعل ما تشاء!. كانت القاعة خالية تماماً. مئات المقاعد الخشبية تحملق فيه بصمتِ مقبرةٍ جماعيّة، وتدعوه إلى المغادرة أو إلى الانضمام إليها. آثر الخيار الثاني، واختار مقعداً في الوسط ... ونام. أَيقظه المخرجُ ليجري البروفة الأخيرة. صعد

إلى الخشبة، وارتجل فصلاً طويلاً إذ أعجبته فكرة أن يخاطب المقاعد الفارغة، وأن لا يصفق له أَحد ما عدا المخرج. ثم ارتجل فصلاً آخر بلا أَخطاء. وفي المساء، حين امتلأت القاعة بالمشاهدين، ورُفِعَت الستارة، وقف واثقاً من سلامة الصمت ... نظر إلى الصّفّ الأمامي، وتذكر نفسه جالساً هناك، فارتبك. نسي النصَّ المكتوب وتبخَّر النصُّ المرتجل ... ونسي المشاهدين، واكتفى بتجريب الصوت: واحد، اثنان، ثلاثة. ثم كَرَّر: واحد، اثنان، ثلاثة حتى أُغمي عليه وضجَّت القاعة بالتصفيق!

صناديق فارغة

إذا كان السلامُ هدنةً بين حربين، فإنَّ للموتى حقَّ الإدلاء بأصواتهم: سنختار الجنرال. وإذا كانت الحرب حادثةَ سيرٍ وقعت على الأوتوستراد السريع، فإنَّ على الأحياء واجب الإدلاء بأصواتهم: سنختار الحمار. لكن الأحياء لم يذهبوا إلى صناديق الاقتراع، لا لأن الثلج كان يندف، بل لأن شللاً مفاجئاً أصاب سكان المدينة، وحين فتحوا النوافذ رأوا عناكب تبني بيوتها في الثلج، فأصيبوا بالعمى. وحين

أرهفوا السمع إلى ما يحدث، هبَّت عواصف لا عهد لهم بأصواتها الوحشية، فأصيبوا بالصمم. وقال المنجمون: هي فوضى الكون على باب القيامة. ومن حُسْن حظنا أو من سوئه، أن المؤرخين الأجانب الخبراء في مصائرنا وتاريخنا الشفهي لم يكونوا هنا، فلم نعرف ما حلَّ بنا!

عن اللا شيء

هو اللا شيء يأخذنا إلى لا شيء،
حدَّقنا إلى اللاشيء بحثاً عن معانيه . . .
فجرَّدنا من اللاشيء شيءٌ يشبه اللاشيءَ
فاشتقنا إلى عبثية اللاشيء
فهو أخفّ من شيء يُشَيِّئنا . . .
يحبُّ العبدُ طاغيةً
لأن مَهابة اللاشيء في صنم تُؤَلِّهُهُ
ويكرهُهُ
إذا سقطت مهابته على شيء
يراهُ العبد مرئيّاً وعاديّاً

فَيَهْوَى العبدُ طاغيةً سواهُ
يطلُّ من لا شيءَ آخرَ ...
هكذا يتناسل اللاشيء من لا شيء آخرَ ...
ما هو اللاشيء هذا، السيِّدُ المتجدِّدُ،
المتعدِّدُ، المتجبرِّ، المتكبرِّ، اللزجُ
المُهَرِّجُ ... ما هو اللاشيء هذا

رُبَّما هو وعكةٌ رُوحيَّةٌ
أو طاقةٌ مكبوتةٌ
أو، ربما هو ساخرٌ متمرِّسٌ
في وصف حالتنا!

خيالي ... كلب صيد وفيّ

على الطريق إلى لا هدف، يُبَلِّلني رذاذ ناعم، سقطتْ عليَّ من الغيم تُفَّاحةٌ لا تشبه تفاحة نيوتن. مددتُ يدي لألتقطها فلم تجدها يدي ولم تَرَها عيناي. حدَّقتُ إلى الغيوم، فرأيتُ نُتَفاً من القطن تسوقها الريح شمالاً، بعيداً عن خزانات الماء الرابضة على سطوح البنايات. وتدفَّق الضوءُ الصافي على إسفلت يَتَّسع ويضحك من قلَّة المشاة والسيارات... وربما من خطواتي الزائغة. تساءلتُ: أَين التفاحة التي

سقطت عليَّ؟ لعلَّ خيالي الذي استقلَّ عني هو الذي اختطفها وهرب. قلت: أَتبعه إلى البيت الذي نسكنه معاً في غرفتين متجاورتين. هناك، وجدت على الطاولة ورقة كُتِبَ عليها، بحبر أَخضر، سطر واحد: «تفاحة سقطت عليَّ من الغيوم»، فعلمت أَن خيالي كلب صيد وفيّ!

لو كنتُ غيري

في العزلة كفاءةُ المُؤْتَمَن على نفسه – يكتب العبارة، وينظر إلى السقف. ثم يضيف: أن تكون وحيداً ... أن تكون قادراً على أن تكون وحيداً هو تربية ذاتيَّة. ألعزلة هي انتقاء نوع الأَلم، والتدرّب على تصريف أفعال القلب بحريّة العصاميّ... أَو ما يشبه خلوَّك من خارجك وهبوطك الاضطراري في نفسك بلا مظلَّة نجاة. تجلس، وحدك، كفكرة خالية من حجة البرهان، دون أن تحدس بما يدور من حوار بين

الظاهر والباطن. العزلة مصفاة لا مرآة. ترمي ما في يدك اليسرى إلى يدك اليمنى، ولا يتغيَّر شيء في حركة الانتقال من اللافكرة إلى اللامعنى. لكن هذا العَبَث البريء لا يؤذي ولا يجدي: وماذا لو كنتُ وحدي؟ العزلة هي اختيار المُتْرَف بالممكنات ... هي اختيار الحرّ. فحين تجفّ، وتضيق بك نفسُك، تقول: لو كنتُ غيري لانصرفتُ عن هذه الورقة البيضاء إلى محاكاة رواية يابانية، يصعد كاتبها إلى قمة الجبل ليرى ما فعلت الكواسر والجوارح بأجداده الموتى. لعلَّه ما زال يكتب، وما زال موتاه يموتون. لكن تنقصني الخبرة. والقسوة الميتافيزيقية تنقصني. وتقول: لو كنتُ غيري، كما أنا الآن، لنزلتُ إلى بطن الوادي، حيث تؤجّج فتاة مكبوتة شهوتها بورقة تين خشنة وتَعَضُّ سروالها، لكن، تنقصني مهارة الوصف. والجرأة الإباحية تنقصني!

اغتيال

يغتالني النُقَّاد أَحياناً:
يريدو ن القصيدةَ ذاتَها
و الاستعار ة ذاتها . . .
فإذا مَشَيْتُ على طريقٍ جانبيّ شارداً
قالوا: لقد خان الطريقَ
وإنْ عثر تُ على بلاغة عُشْبَةٍ
قالوا: تخلَّى عن عناد السنديان
وإن رأيتُ الورد أَصفرَ في الربيع
تساءلوا: أَين الدمُ الوطنيُّ في أور اقِهِ؟
وإذا كتبتُ: هي الفر اشةُ أُختيَ الصغرى

على باب الحديقةِ
حرَّكوا المعنى بملعقة الحساء
وإن هَمَسْتُ: الأمُّ أمٌّ، حين تثكل طفلها
تذوي وتيبس كالعصا
قالوا: تزغرد في جنازته وترقُصُ
فالجنازةُ عُرْسُهُ...

وإذا نظرتُ إلى السماء لكي أَرى
ما لا يُرَى
قالوا: تَعَالى الشعرُ عن أغراضه...

يغتالني النُقَّادُ أَحياناً
وأَنجو من قراءتهم،
وأشكرهم على سوء التفاهم
ثم أَبحثُ عن قصيدتيَ الجديدةْ!

حفيف

كَمُصْغٍ إلى وَحْيٍ خفيّ، أُرهف السمع إلى صوت أوراق الشجر الصيفيّ ... صوتٍ خَفِرٍ مُخَدَّر مُتَحدِّرٍ من أَقاصي النوم ... صوتٍ شاحب ذي رائحة حنطية قادم من عزلة ريفيّة ... صوتٍ متقطعٍ مُوَزَّع بتقاسيمَ مرتجلةٍ على أوتار نسيم مُتَمَهِّل. لا يسترسل ولا يطيل الفواصل. لصوت أوراق الشجر في الصيف تَقَشُّف الهمس وتعفُّف النداء. كأنَّ الصوت هذا لي وحدي، يخطفني من ثقل المادة إلى خفّة

الإشراق: هناك، وراء التلال، وما بعد الخيال، حيث يتساوى الظاهر والباطن، أَسبح خارج ذاتي في ضوء بلا شمس. بعد غفوة تشبه الصحوة، أو بعد صحوة تشبه الغفوة، يعيدني حفيف الشجر إلى ذاتي معافىً مُصَفّىً من الوساوس والهواجس. لا أَسأل عن معنى هذا الصوت: هل هو نجوى ورقة إلى أختها في هذا الخلاء، أم هو حنين الهواء إلى قيلولة؟ صوت بلا كلام يهدهدني ويمسّدني ويحولني وعاء ينضح بما ليس منه... ولا فيه. كأنه عاطفة تبحث عن عاطفيّ ... شبيه!

إستعارة

في هذا النهار الأزرق، تُطيل الوقوفَ على جبل مرتفع، وتطيل النظر إلى غيومٍ تَحْتَكَ، تغطِّي البحر والسهل. فتظنُّ أنك أعلى من نفسك ... شِبْهُ طائرٍ لم يوجد إلاَّ في استعارة. وتُغْريك الاستعارةُ بأن تنفصل عنها وتنظر إلى سماء مهجورة، كصحراء زرقاء، خلوٍ من سراب. ثم تناديك الاستعارة للرجوع إلى مصدرها، فلا تجد طريقاً في الغيوم.

وفي هذا الليل الأزرق، ترى الجبال

تنظر إلى النجوم، وترى النجوم تنظر إلى الجبال. وتظن أنها تراك، فتشكرها على لطيف المسامرة. ولا تريد الخروج من الاستعارة لئلاّ تسقط في بئر الوحدة!

في صحبة الأشياء

كنا ضيوفاً على الأشياء، أكثرُها
أقلُّ منَّا حنيناً حين نهجُرُها

النهر يضحك، إذ تبكي مسافرةٌ:
مُرِّي، فأُولى صفات النهر آخِرُها

لاشيء ينتظرُ. الأشياءُ غافلةٌ
عنا، ونحن نُحَيِّها ونشكرها

لكننا إذ نُسَمِّيها عواطِفَنا

نصدِّقُ الاسم. هل في الاسم جوهرُها؟

نحن الضيوف على الأشياء، أكثرنا
ينسى عواطِفَهُ الأولى ... ويُنْكِرُها!

شال حرير

شال على غصن شجرة. مرَّتْ فتاةٌ من هنا، أو مرّت ريح بدلاً منها، وعلَّقت شالها على الشجرة. ليس هذا خبراً. بل هو مطلع قصيدة لشاعر متمهِّل أَعفاه الحُبُّ من الأَلم، فصار ينظر إليه - عن بعد - كمشهد طبيعةٍ جميل. وضع نفسه في المشهد: الصفصافة عالية، والشال من حرير. وهذا يعني أن الفتاة كانت تلتقي فتاها في الصيف، ويجلسان على عشب ناشف. وهذا يعني أيضاً أنهما كانا يستدرجان العصافير

إلى عرس سري، فالأفق الواسع أَمامهما، على هذه التلة، يغري بالطيران، ربما قال لها: أَحنُّ إليكِ، وأَنتِ معي، كما لو كنتِ بعيدة. وربما قالت له: أَحضنكَ، وأَنت بعيد، كما لو كنتَ نهديَّ. وربما قال لها: نظرتك إليَّ تذوِّبني، فأصير موسيقى. وربما قالت له: ويدك على ركبتي تجعل الوقت يَعْرَق، فافْرُكْني لأذوب ... واسترسل الشاعر في تفسير شال الحرير، دون أن ينتبه إلى أن الشال كان غيمة تعبر، مصادفة، بين أغصان الشجرة عند الغروب.

ما يشبه الخسارة

أَصعدُ من هذا الوادي، على درجات نفسي تقريباً. أَصعد إلى ربوة عالية لأرى البحر. لا أُغنية تحملني ولا سوء تفاهم مع الكينونة. أَتسلّى بمراوغة ظلِّي، وبالتفكير المريح في مآل قوس قزح الذي يلهيني، فجأة، عن ظلِّي المشتبك بعوسجة جرحته ولم ينزف. أَنحني عليه لأسعفه من وخزات الشوك، فتنغرز شوكةٌ في يدي وتسيل قطرةُ دمٍ حمراءُ خِلْتُها، في البداية، انعكاساً لأحدٍ ألوان قوس قزح.

لكن ألَماً خفيفاً في يدي نَبَّهني إلى أنَ ما تفعله الشمسُ بكثافة الماء الطائرِ هو شيء آخر. ضمَّدتُ جرحي التافه بمنديل ورقيّ، وواصلتُ الصعود إلى الربوة العالية لأرى البحر. لكن الغيوم تكاثفت وغطَّت السهلَ والجهاتِ والبحرَ الذي وقع أَسيراً في إحدى الحروب. هبط الليل على كل شيء، وظهرتْ أضواء المستعمرات من كل ناحية. وحين نزلتُ على درجات نفسي تقريباً، من الربوة العالية إلى الوادي، تذكَّرتُ أنني نسيتُ ظلّي عالقاً بعوسجة. لا أعرف إن كنت حزنت أم لا، فإنَّ خسارةً أدبيَّةً مثلَ هذه لا تصلح للتدوين. وقلت: غداً أصعد إلى ربوة أعلى لأرى البحر خلف المستعمرات. لكني سأربط ظلي برَسَنٍ لئلاّ أُضيّعه مرة ثانية!

أَرضٌ فضيحة

أَرضٌ ضيِّقةٌ هي تلك الأرض التي نسكنها وتسكننا. أَرض ضيِّقة لا تَتّسع لاجتماع قصير بين نبيّ و جنرال. وإذا تعارك ديكان على دجاجة وعلى خُيَلاء، تطاير ريشهما عن الأسوار. أرضٌ ضيِّقة لا حميميةَ فيها لنكاح بين ذكر الحمام و أُنثى الحمام. أَرضٌ فضيحةٌ. أَرضٌ صفراءُ الصيف ينقر الشوك فيها وجه الصخر لتزجية الوقت، حتى لو قالت قصائدنا عكس ذلك، وأَمدَّتها بمختارات من أَوصاف

الفردوس لإشباع جوع الهوية إلى جماليات. ونحن، رواةَ ما تحتاج إليه البداهةُ من وثائق رسمية وشعرية، نعلم أن السماء لن تتخلّى عن أشغالها الكثيرة لتدلي بشهادتها. أَرض ضيّقة ... ونحبّها. ونظن أَنها تحبّنا أَحياء وموتى. نحبها، ونعلم أنها لا تتسع لضحكة الفاجر، ولا لصلاة الراهبة، ولا لنشر الغسيل بعيداً عن فضول الجيران، ولا تَتّسع للسطر الرابع عشر من سوناتة مترجمة. أرضٌ ضيِّقة لا ساحة فيها تكفي لمعركة حقيقيّة مع عَدُوّ خارجيّ، ولا قاعة تسع المجتمعين لصوغ ديباجة عريضة عن سلامٍ كَذِب. ومع ذلك، أو لذلك... يقولون إن أَحد الآلهة الضجرين اختارها كهفاً للخلوة، والاختفاء عن المتطفلين الذين سرعان ما سرقوا قرون أكباشنا، واستخدموها سلاحاً لإبعادنا عن باب الكهف المُقَدَّس!

صيف وشتاء

لا جديد. الفصولُ هنا اثنانِ:
صَيْفٌ طويل كمئذنة في أقاصي المدى.
وشتاءٌ كراهبةٍ في صلاة خشوعْ.
وأَمَّا الربيعْ
فلا يستطيع الوقوف على قدميه
سوى للتحية: أَهلاً بكم
في صعود يسوعْ.
وأَمَّا الخريف،
فليس سوى خُلْوةٍ
للتأمُّل في ما تساقط من عمرنا

في طريق الرجوعْ.
فأين نسينا الحياةَ؟ سألت الفراشةَ
وهي تُحوِّم في الضوء
فاحترقتْ بالدموع!

غيمة مُلَوَّنة

وأنا أَغسل الصحون، أمتلئ بفراغ منعش وأَملأ الوقت بفقاعات الصابون. لماء الحنفيَّة إيقاعٌ يفتقر إلى آلة موسيقية. أُصاحبه بصفير متقطّع، وبمقطع من أُغنية شائعة لا شخصية لها. أَلهو بالرغوة الشبيهة بغيمة تلمع فيها أَلوانٌ موسميَّةٌ وتنطفئ. أُمْسِكُ الغيمةَ بيديّ وأوزِّعها على الصحون والكؤوس والفناجين والملاعق والسكاكين. تَنْتَفِخُ الغيمة كُلَّما سالت عليها قطراتُ الماء. أحفِنها وأُطيِّرها

في الهواء فتضحك لي، وأزداد امتلاء بفراغي. لا أفكِّر بشيء كأني ظهيرة لا مبالية. لكن صُوَر ذكريات محايدة تهبط من مكان بعيد إلى حوض الماء، ذكريات لا تجرح ولا تفرح، كنزهة في حرش صنوبر، أو كانتظار حافلة تحت المطر، فأغسلها بحرصِ مَنْ يحمل إناء من بلّور أدبي. وحين أتأكد من أنها لم تنكسر تعود سالمةً إلى مصادرها الأولى في حرش صنوبر، وأَبقى هنا. أَلهو برغوة الصابون، وأسهو عمَّا ليس موجوداً. أنظر برضا إلى ذهني الصافي كزجاج المطبخ، وإلى خُلُوِّ قلبي من الشوائب كصحن مغسول بعناية. وحين أحسّ بأني امتلأت تماماً بالفراغ المنعش، أملأ الفراغ بكلمات لا تخصّ أحداً سواي: بهذه الكلمات!

ربيع سريع

مَرّ الربيعُ سريعاً
مثل خاطرةٍ
طارت من البالِ –
قال الشاعر القَلِقُ

في البدء، أَعجبه إيقاعُهُ
فمشى سطراً فسطراً
لعلَّ الشكل ينبثقُ

وقال: قافيةٌ أخرى

تساعدني على الغناء
فيصفو القلبُ والأُفُقُ

مَرَّ الربيع بنا
لم ينتظر أَحداً
لم تنتظرنا «عصا الراعي»
ولا الحَبَقَ

غنّى، ولم يجد المعنى
وأَطربَهُ
إيقاع أُغنية ضاقت بها الطُرُقُ

وقال: قد يُولَدُ المعنى
مصادفةً
وقد يكون ربيعي ... ذلك القَلَقُ!

ألحياة ... حتى آخر قطرة

وإن قيل لي ثانيةً: ستموت اليوم، فماذا تفعل؟ لن أَحتاج إلى مهلة للرد: إذا غلبني الوَسَنُ نمتُ. وإذا كنتُ ظمآنَ شربتُ. وإذا كنتُ أكتب، فقد يعجبني ما أكتب وأتجاهل السؤال. وإذا كنت أتناول طعام الغداء، أضفتُ إلى شريحة اللحم المشويّة قليلاً من الخردل والفلفل. وإذا كنتُ أُحلق، فقد أجرح شحمة أذني. وإذا كنتُ أقبِّل صديقتي، التهمتُ شفتيها كحبة تين. وإذا كنت

أقرأ قفزت عن بعض الصفحات. وإذا كنتُ أقشِّر البصل ذرفتُ بعض الدموع. وإذا كنتُ أمشي واصلتُ المشي بإيقاع أبطأ. وإذا كنتُ موجوداً، كما أنا الآن، فلن أفكِّر بالعدم. وإذا لم أكن موجوداً، فلن يعنيني الأمر. وإذا كنتُ أستمع إلى موسيقى موزارت، اقتربتُ من حيِّز الملائكة. وإذا كنتُ نائماً بقيتُ نائماً وحالماً وهائماً بالغاردينيا. وإذا كنتُ أضحك اختصرتُ ضحكتي إلى النصف احتراماً للخبر. فماذا بوسعي أن أفعل؟ ماذا بوسعي أن أفعل غير ذلك، حتى لو كنتُ أشجع من أحمق، وأَقوى من هرقل؟

أثر الفراشة

أَثَرُ الفراشة لا يُرَى
أَثَرُ الفراشة لا يزولُ

هو جاذبيّةُ غامضٍ
يستدرج المعنى، ويرحلُ
حين يتَّضحُ السبيلُ

هو خفَّةُ الأبديِّ في اليوميّ
أشواقٌ إلى أَعلى
وإشراقٌ جميلُ

هو شامَةٌ في الضوء تومئ
حين يرشدنا إلى الكلماتِ
باطننا الدليلُ

هو مثل أُغنية تحاولُ
أن تقول، وتكتفي
بالاقتباس من الظلالِ
ولا تقولُ ...

أَثَرُ الفراشة لا يُرَى
أَثَرُ الفراشة لا يزولُ!

لم أكن معي

محدِّقاً إلى السقف، واضعاً يدي على خدِّي، كمن يتلصَّص على فكرة بيضاء، أو يتربَّص بإشراقة وحي. أَنْتَبِهُ بعد ساعات إلى أَنني لم أكن هناك في السَقف ولا هنا على المقعد، ولم أُفكر بشيء. كنت مستغرقاً في اللا شيء... في الفراغ الكلي الكامل، منفصلاً عن وجودي، جاراً لعَدَمٍ غيرِ متطفِّل، وخالياً من الألم. لم أحزن ولم أفرح، فلا شأن للاّشيء بالعاطفة، ولا شأن له بالزمن. لم توقظني يَدُ ذكرى واحدة من غيبوبة الحواس. ولم توقظني خشيةُ

الأقدار من نسيان الغد. إذ كنت، لسبب ما، متأكداً من أنَني سأحيا إلى الغد. لم أسمع صوت المطر يكسِّر رائحةَ الهواء في الخارج، ولا النايات تحمل الداخل وترحل. كنت لا شيء في حضرة اللا شيء. وكنت هادئاً، آمناً، مطمئناً. فما أجمل أن يكون المرء لا شيء، مرة واحدة، مرة واحدة فقط ... لا أكثر!

وجوه الحقيقة

ألحقيقةُ أُنثى مجازيّةٌ
حين يختلط الماءُ والنارُ
في شكلها

والحقيقةُ نسبيّةٌ
حين يختلط الدمُ بالدمِ
في ليلها

والحقيقةُ بيضاءُ ناصعةٌ
حين تمشي الضحيّةُ

مبتورةَ القَدَمَيْنِ
على مهلها

و«الحقيقةُ شخصيَّةٌ»
في القصيدةِ
لاهِيَ ما هِيَ
أو عكسها
إنها ما تقطَّر من ظلِّها!

كما لو كان نائماً

صحا من النوم دفعةً واحدة. فتح النافذة على ضوء فاتر وسماء صافية وهواء معافى. تحسَّس جسده، عضواً عضواً، فوجده سليماً. نظر إلى الوسادة ولم يرَ شعراً تساقط في الليل. نظر إلى الملاءة ولم يرَ دماً. فتح جهاز الترانزستور ولم يسمع خبراً عن قتلى جدد في العراق وغزة وأفغانستان. ظنَّ أنه نائم. فَرَكَ جفنيه أمام المرآة وتعرَّف إلى وجهه بسهولة. هتف: أنا حيّ. مشى إلى

المطبخ لإعداد القهوة. وضع ملعقةً من العسل في كأس الحليب الخالي من الدَّسَم. رأى على الشرفة كناريّاً زائراً يقف على حوض زهور نسي أن يسقيها. قال للكناريّ: صباح الخير، ونثر حوله فتات خبز. طار الكناريّ وحطَّ على فَنَنِ شجيرة وغنّى. مرة أخرى، ظن أنه نائم. نظر إلى المرآة ثانية وقال: أنا هو. استمع إلى نشرة أخبار جديدة. لا قتلى جدداً في أي مكان. فرح بهذا الصباح الشاذ. قاده الفرحُ إلى طاولة الكتابة وفي باله سطر واحد: «أنا حيّ على الرغم من أنني لا أشعر بالألم». كان ممتلئاً بشغف الإنشاد لصفاءٍ بِلَّوْريّ هبط عليه من مكان بعيد: من مكانه هذا! وحين جلس إلى طاولة الكتابة وجد السطر مكتوباً على ورقة بيضاء: «أنا حيٌّ على الرغم من أنني لا أشعر بالألم». لم يظن هذه المرة أنه نائم. كان متأكداً من ذلك!

موسيقى مرئيّة

وأَنا أستمع إلى الموسيقى، تنفتح حولي حدائق، فتصير النغمةُ زهرةً أسمعها بعينيّ. للصوت صورة، وللصورة صوت متدرِّج متموِّج ... أبعد من مجاز أَدبي. يَخْرُجُ القرنفلُ من أحواضه، وينتشر على طاولات المطاعم الراقية لتعويض الغريب عن خسارة منسية، أو للإمعان في تدريب المُنْتَظِرِ على مفاجآت القادم. وليس على النرجس من حَرَجٍ إن أطال الاستماع إلى أُغنية الفرح في الماء، وظنَّها أُغنية مديحه. أَمَّا

الزنبق الأبيض، إذا اتسع الصالون لرائحته الشاسعة اللاذعة، فإن خواطره تضَلِّلني، على عكس البنفسج الذي يوقفني على تقاطع صوتين يتداخلان ويذوبان في تشابه الدموع بين عرس وجنازة ... وعلى عكس شقائق النعمان المكتفية بغناء الهامش الفسيح على سفوح الرَعَويَّات. كل هذا لأقول: إن الوردة الحمراء موسيقى مرئية. وإن الياسمين رسالة حنين من لا أَحد إلى لا أحد!

الطريق إلى «أين»

[إلى سركون بولص]

أَلطريقُ طويلٌ إلى أَين؟ مرتفعاتٌ
ومنخفضاتٌ. نهارٌ وليلٌ على الجانبين.
شتاء قصير وصيف طويل. نخيلٌ
وسروٌ، وعبّاد شمسٍ على الجانبين.
مَحَطّاتُ كازٍ، مقاهٍ، ومستوصفاتٌ،
وشرطةُ سير على الجانبين. وسجنٌ
صغير، ودكّانُ تبغ وشاي، ومدرسةٌ
للبنين، وأقبيةٌ للبنات، وأَجهزةٌ
لقياس المُناخ، ولافتةٌ للأجانب: أهلاً
بكم في الطريق إلى أين؟ مرتفعات

ومنخفضات. وآثار مَوْتى رأوا موتهم
واقفاً في الطريق، فألقوا عليه التحيَّة.
قال: إلى أين؟ قالوا: إلى «أَين»!
نمشي كأنَّا سوانا. كأنَّ هناك | هنا
بين بين. كأن الطريق هو الهدف
اللانهائيُّ، لكنْ إلى أين نمضي، ومن
أين نحن إذن؟ نحن سُكَّان هذا
الطريق الطويل إلى هدف يحمل اسماً
وحيداً: إلى «أين»؟

فكاهة الخلود

للمقابر هَيْبَةُ الهواء وسَطْوَةُ الهباء. تُشَيِّع صديقك ممدوح، وتنتظر دورك ... تنقلك روائح الزهور الذابلة وحفيف الأشجار إلى البعيد ... إلى ما وراء الشيء ... إلى عنوانك الأخير في ناحية من نواحي العدم. لكنك تفكِّر في ما هو أَبسط: أَلقبورُ مراتب. فمنها ما يبدو لك أنه راحة النائم. ومنها ما يحرم النائم من التطلُّع إلى سمائه المدفونة. ومنها، كالمحاذية لساحة التروكاديرو في باريس، ما يجعل النائم جزءاً من وتيرة

الحياة. فهو قريب من المقاهي والمتاحف ومواعيد الأحياء. الحياةُ في متناول قبره الرخامي. وحوله مِنْ تَنَوُّع الزهر والشجر والطير والبشر ما يُغْنيه عن الخروج إلى نزهة، بعدما أنفق مُدَّخَراته لامتلاك خُصُوصيّةِ هذا العنوان الدائم. ومن القبور ما يجعل العدم مادة مرئية، كتلك القبور المرمية في الصحراء بعيداً عن الشجر والماء. لا أَنيس للنائم الذي يحترق في حرّ الصيف ويتجمد من البرد في الشتاء. كأنه يواصل الموت بلا نهاية، حيث يخلو الموت من استعارة النوم. لكن الذين يشرفون على تشييد قبورهم، وتأثيثها بصُوَرهم، لا يُفَكِّرون براحة النوم قريباً من صداقة الأحياء، إنما يفكرون بتدريب التاريخ على القراءة. ويفكرون بما هو أَصعب: برشوة الخلود. دون أن يعلموا أن الخلود لا يزور القبور. وأَنه يحبُّ الفكاهة!

اللامبالي

لا يُبالي بشيء. إذا قطعوا الماءَ
عن بيته قال: لا بأس! إن الشتاء
قريبٌ. وإن أَوقفوا ساعةَ الكهرباء
تثاءَبَ: لا بأس، فالشمسُ تكفي.
وإن هدَّدوهُ بتخفيض راتبه قال: لا
بأس! سوف أَصوم عن الخمر
والتبغ شهراً. وإن أَخذوهُ إلى السجن
قال: ولا بأس، أَخلو قليلاً إلى النفس
في صحبة الذكريات
وإن أرجعوهُ إلى بيته قال:

لا بأس! فالبيتُ بيتي.

وقلت له، مرة، غاضباً: كيف تحيا غداً؟
قال: لا شأن لي بغدي. إنه فكرةٌ
لا تراودني. وأنا هكذا هكذا: لن
يغيِّرني أيُّ شيء، كما لم أُغيِّر أنا
أيَّ شيء... فلا تحجب الشمس عني!
فقلتُ له: لستُ اسكندر المتعالي
ولست ديوجين
فقال: ولكنَّ في اللامبالاة فلسفةً،
إنها صِفَةٌ من صفات الأَملْ!

اللوحة والإطار

إذا انكسر إطارُ اللوحة، بسبب هزة أرضيّة خفيفة، تحملُ اللوحةَ إلى صانع أُطُرٍ ماهر، فيضع لها إطاراً رُبَّما أَجمل. أما إذا تشوّهت اللوحة، بسبب خلل فنيّ أصليّ، وبقي إطارها سليماً، فلن تحتاج إليه إلاّ إذا نقص الحطب في المدفأة. كذلك هي الفكرة: إذا انكسر إطارها وجدتَ لها إطاراً أقوى وأصلب. أمَّا إذا انكسرت الفكرة، فلن يكون إطارها السليم غيرَ ذكرى حزينة، تحتفظ بها كما

يحتفـظ راع خائـب بجَرَس كبش مـن قطيعه،

افترسته الذئاب!

ثلج

تكثَّفَ الهواءُ الأبيض، وتباطأ وانتشر كالقطن المنفوش في الفضاء. وحين لامس جَسَدَ الليل أضاءه من كل ناحية. ثلج. انقطع التيار الكهربائي، فاعتمدت على ضوء الثلج لأهتدي إلى الممر، الفاصل الموسيقي، بين جدارين، فإلى الغرفة المجاورة لشجيرات النخيل الست الواقفات كراهبات على كتف الوادي. فَرَحٌ شِبْهُ ميتافيزيقي يأتيني من كُلِّ ما هو خارجي، وأَشكر الريح التي جاءت بالثلج من أقاليم لا تصل إليها

إلاّ الروح. لو كنتُ غيري لاجتهدت في وصف الثلج. لكنني إذ أنخطفُ في هذا العشب الكونيّ الأبيضِ، أتخفف من نفسي فلا أكون أنا، ولا أكون غيري، فكلانا ضيفان على جوهر أبيض، مرئيّ وواسع التأويل. وحين عاد التيار الكهربائي، أطفأت الضوء وبقيت واقفاً أمام النافذة لأرى كم أنا هناك... طيفاً في ما وراء الثلج!

عَدْوَى

قال لي، بعدما كسر الكأسَ:
لا تَصِفِ الشعرَ، يا صاحبي، بالجميل
ولا بالقويّ،
فليس هنالك شعر قويّ وشعر جميل
هنالك شعر يُصِيبُكَ، سرّاً
بعَدْوى الكتابة والانفصام، فتهذي
وتخرُجُ ذاتُكَ منك إلى غيرها ... وتقول:
أنا هُوَ هذا وهذا، ولستُ أنا. وتطيل
التأمُّل في الكلمات. وحين تجس لها
نبضها، تشرئبُّ وتهمس في أُذنيك:

اقترب وابتعد، واغترب واتّحد. ويسيل
حليب من الليل. تشعر أنك طفلٌ
سيُولَدُ عما قليل!

حوض خزامى

محتشمةً متكتّمةً، على طِيبك، كحوض خُزَامى، تجلسين قبالة مطالعي. وأَصابعي تحكُّ أصابعي، فيسقط فنجان قهوتي - ذريعتي وخديعتي، لتقرِّبي طِيبَكِ مني، وأُلَمَّهُ مع شظايا الهال ... فلا يصل. لأن رائحة الخزامى لا تنتقل من خِدْرها الحذر إلى المُنْتَظِر سخاءَ المخفيّ. أكثرُ من حاسة فاقدةِ الصبر تشرئبُّ إلى ما سيهبُّ من جهتك المتقشّفة المنصرفة إلى صون بكارة الرائحة الملتفّة بأوراق الكثافة. أَدنو

منـك كمُقْبِـل علـى مغامـرة، كمدبر عـن خوفه. أمدّ يـديَّ إلى حوض الخزامى. أفركها وأَحضـنها وأَشـمّها وأَضـمّها، ولا تقوليـن شـيئاً. كأنـك حقاً خزامى... تؤخذ رائحتها باليدين!

أَكثر وأَقلّ

حتـى لـو لـم تكوني مـا أَنـتِ عليـه من حضـور باهـر، سـأكون أنـا مـا أنـا عليـه مـن غيـاب فيك ... باطنٍ وظاهر. شـفّافٌ حضـورك بلّوري أرى مـا وراءه مـن حدائـق، فأنخطـف إلـى متاهـات عليـا لا يبلغهـا خيـال تبهجـه سـعة المجـاز ويُحْرِجُـهُ فقـرُ الـكلام المتـداول. أَقول مـا أقـول لـك بلغـة تفتقـر إلـى كثافـة العسـل وخفَّة الفراشة... في حضرة هذا الممكن المتمكن مـن رفـع المصـادفة إلـى مرتبـة الإعجـاز. فإلى أين يأخذنا صـمتك المضـفي على الكلام الغامض إغـواءَ التوريـة؟ كأنـي لـم أكتـب مـن قبـل،

ولم أحفظ ما كتبتُ لكِ في سرِّي. وشفَّافٌ حضورك، فلا أدري إن كانت روحك تسكن جسدك، أم أن جسدك يلبس روحك ويشعّ لؤلؤة في عتمتي. يختلط عليَّ الشكل والجوهر، فأرى الشكل جوهراً، والجوهر شكل الكمال. وأباريك في الصمت لئلا تزلَّ بي كلمة فأسقط على ما كنتهُ قبلك من ارتجالٍ مُتَعَثِّر. لا، لستُ شاعراً ينتظر قصيدته في ما تنثرين من إيماءات، أنت وأنا ـ إن كان لنا أَن نجتمع في عبارة واحدة كما نحن هنا في غرفة واحدة ـ ضيفان خفيفان على ما يسبق المعنى من غيوم، ممتلئان بحنين الطير إلى شجر الليل، بلا فكرة عن غد لا يعدنا بغير الأمل. فأحضر وتغيبين. وأنظر إلى غيابك يُهيل عليَّ سماء ما. حتى لو لم تكوني ما أنت عليه من غياب. سأكون أنا ما أنا عليه من حضور. كأنك معي. كأني في حاجة أكثر إلى ما هو أقلّ!

أَغبطُ كُلَّ ما حولكِ

أغبطُ حواسي. للهواء لون الغاردينيا ولرائحتك على كتفيّ أقواسُ نَصْرٍ وَضَحِك. أَغبط الخناجرَ المسالمةَ النائمةَ في أَغمادها أمامك على المنضدة، في انتظار إشارة منكِ لقتلي. أَغبط المزهرية، تستغني عن وردها الأصفر بما تغدقين عليها من قرمز الشفتين الجائعتين إلى جُوعي. وأَغبط اللوحة المحدقة إليك بضراعة: انظري إليَّ أَطول لأكمل ما ينقصني من بحيرات وبساتين كرز. وأغبط أعشاب السجّادة تشرئبُّ إلى حجلة

تهبط إليها من علٍ، وإلى حجلة تستريح على الركبة، فيسخن رخام الغرفة وخيالي. وأغبط المكتبة المضطربة المكتئبة لخلوّها من كتاب شهواني في مديح ربوتين عاجيتين صغيرتين مكشوفتين أمامها على هياج الجيتارات، ومغلقتين بموجة حرير يتنهد، وأغبط أصابعي تلتقط ما يفيض عن حاجة يديك إلى حوار الضوء والظل وحركة الملعقة في فنجان الشاي، وتحريك الملح في جسد يحنّ إلى عاصفة لتأجيج نار النشيد: يا هذه الأشياء لُمِّيني وضُمِّيني لأغبط ذكرياتي عنك في ما بعد. وأَغبط لساني الذي يناديك باسمك بحرص مَنْ يحمل أربع كؤوس كريستال بيدٍ واحدة. أتذوَّق حروف أسمك، حرفاً حرفاً، كفواكه موسيقية. ولا أشرب الماء معها لأحافظ على مذاق الدُّراق وعلى عطش حواسي

وأغبط خيالي يحتضنك ويسكنك ويقبّلك ويدلِّلك ويطويك ويرخيك ويدنيك ويُقْصيك ويرفعك وينزلك، ويخضعك ويخضع لك، ويفعل ما لا أَفعل!

قِلّي كوكباً

هل كُلُّ هذا أنتِ؟
غامضةً وواضحةً
وحاضرةً وغائبةً معاً...
عيناكِ ليلٌ حالكٌ... ويُضيئني
ويداك باردتان ترتجفان
لكنْ، تُوقدان الجمرَ في جسدي
وصوتك نغمةٌ مائيّةٌ... وتُذِيبُني في الكأس
أنتِ كثيفةٌ وشفيفةٌ، وعصيّةٌ وأَليفةٌ
عذراءُ، أُمٌّ لابنتين:
قصيدتي

وقصيدةٍ أودى بصاحبها خيالٌ قاصرٌ!
هل كل هذا أنت؟
صيفٌ في الشتاء، وفي الخريف ربيعُ نفسكِ
تكبرين وتصغرين على وتيرة نايك السحريِّ
يخضرُّ الهواءُ على مهبِّك
يضحكُ الماءُ البعيدُ إذا نظرتِ إلى السحاب
ويفرحُ الحَجَرُ الحزينُ إذا مررتِ بكعبك العالي...
أَهذا... كُلُّ هذا أنت؟
قلِّي كوكباً أو كوكبين لكي أصدِّقَ
أنك امرأة تُجَسُّ،
ولستِ موسيقى تكسِّرني كحبة بندقٍ
قلِّي قليلاً، واستقلِّي عن مجازك
كي أضمَّكِ من جهاتك
ماعدا الجهة التي أشرعتها للريح...

مواعيد سريّة

أوصدتُ الباب ووضعتُ المفتاحَ في جيبي. أغلقتُ النوافذ وأسدلت الستائر. مسحتُ الغبار عن المرآة والمنضدة ونظارتي، وشَذّبت زهور المزهرية، واخترتُ ليليات شوبان، ونزعت سلك الهاتف لئلاّ تحرجني صديقتي بسؤال عما أفعل الليلة. فكيف أقول لها إني على موعد سري مع نفسي؟ هجستُ بأن الليل، كالعالم، لم يعد مكاناً آمناً ... وانتظرتُ بلا قلق موعدي. صببتُ نبيذاً أحمر في كأسين. وفكّرتُ بلا تركيز في ما

سأقول لزائرتي – نفسي. وحَدَسْتُ بطريقتها الخاصة في تعريتي ونزع أَقنعتي، وبسؤالها الساخر: منذ متى لم نلتق؟ سأقول لها: منذ امتلأتِ بي وامتلأتُ بك، ولجأتِ إلى صورتي عنك، ولجأتُ إلى صورتك عني. ستسألني: لماذا إذن لم تنسَ أن تنساني؟ سأقول لها: لئلا تسرقني المصادفات من الممكنات في طريقي إلى مجهولك. ستقول لي: لا أفهمك. سأقول: ولا أنا. لم يعد العالم مكاناً آمناً، أحتاج إليك خلاصاً ... لماذا تأخَّرْتِ عن الموعد؟ ستسألني: أي موعد؟ سأقول لها: هذا الموعد – هل نسيتِ؟ لكنني لا أسمع جواباً، وأَتطلع إلى كأسها فلا أجدها. شربت كأسي وثملت وقلت: أَنا وحدي في ثيابي. أَعدت تشغيل الهاتف، واتصلت بصديقتي متوسلاً: تعالي إليَّ. فقالت: لا أستطيع الخروج من البيت، لأنني على موعد سِرِّيّ مع ... نفسي!

قالت له

«الليل تاريخُ الحنين، وأنتِ لَيْلي»-
قلتَ لي، وتَرَكْتَني
وتركتَ لي لَيْلي ولَيْلَكَ باردين ...
وسوف يوجعني الشتاءُ وذكرياتُكَ
سوف يوجعك الهواءُ معطراً بزنابقي
لا بأس!
سوف أُحبُّ أوّل عابرٍ
يبكي على امرأةٍ رَمَتْهُ إلى الهباء كما فعلتَ
سنعتني [أنا والغريبُ] بلَيْلنا ونضيئه.
سنؤثِّث الأبَد الصغير... سننتقي

[أنا والغريبُ] سريرنا وشعورنا بعنايةٍ.
ولربما نتلو معاً [أنا والغريب]
قصيدة الحب التي أَهْدَيْتَني:
«الليلُ تاريخُ الحنين
وأَنتِ ليلي»!

عَطْس

الإحباط هو ما يلي الإحساس الزائف بالسعادة التي تشبه العطس بسبب رائحة البنزين. أَسعدني أني عطست، لكن ذلك لا يصلح لاختراع ذكرى أستعيدها. وحين أسأل: ما هي السعادة؟ أتفلسف بلا فلسفة. ولا أُحاول أَن أَتصوّف بحثاً عنها في الماوراء. قد أجدها مصادفة، وقد لا أجدها. لكني لا أبحث عنها بقدر ما أبحث عن جواب يُعزِّيني ويُسَلِّيني. وكلما تساءلت: هل

أنا الليلةَ سعيد؟ خجلت من سذاجتي، وفتحت النافذة لأرى أحوال السماء، لأن البرد أيضاً يجعلني أَعطس، ولأن النجوم كلمات في طريقها إليَّ، هكذا تأتي هنيهة السعادة من خارجي. فالفرح ليس أكثر من ورقة يانصيب رابحة لا تلزمنا بغير تقديم الشكر للمصادفة. هل حياتي هي تغاضي العدم عني الآن؟ حين كتبت هذا السؤال، انقطع التيار الكهربائي، وشعرت بالبرد دون أن أعطس!

مديحُ النبيذ

أَتأمَّـل النبيـذ فـي الكأس قبـل أَن أذوقـه / أتْركُـهُ يتنفَّس الهـواء الـذي حُـرم منـه سـنين. إخْتَنَـقَ ليحمـي الخصـائص. وتخمَّر في سُـبَاته، وآدَّخَـر الصـيفَ لـي وذاكـرةَ العنـب /. أتركُـهُ ينتقـي لونـه المُسَـمَّى، خطـأً، أحمـر. فهـو مزيـج مـن قُرْمُـزيّ تشـرَّب غيمـة خفيفـة السـواد. لـون لا لـون لـه إلاّ اسـمه: نبيذيّ، لنرتاح من مراوغـة الوصـف. / وأتركُـهُ يحتـرم رائحتـه، الرائحـةَ المتكبـرة المتعاليـة كالمُحْصَـنَات مـن النسـاء. إن شئتَ

أن تَشُمَّها فلا تأتي هي إليك. عليك أنت أن تتأكَّد من طهارة يدك وخلوِّها من العطر، ثم تمدَّها بلينٍ عاطفيّ إلى الكأس كأنها تقترب من نَهْد. تقرِّبُ الكأس من أَنفك بأناة نحلة، فتبعثرك رائحةٌ عميقة سريّة: رائحةُ اللون التي تُدْخِلُكَ إلى أَدْيِرَةٍ قديمة ./ وأَتركه يستجمع خواطر مذاقه إلى أن نكون، أنا وهو، جاهِزَيْن عطشاً لاستقبالِ وَحْي بالفم. لا أَتعجَّل ولا أَتمهل، فكلاهما كَسر في إيقاع المتعة. أُقرِّبُ الكأس من شفتيّ بخفر المتسوِّل قبلةً أولى من امرأةٍ غامضة العواطف. أرتشف جرعة خفيفة. وأَنظر إلى أَعلى بعينين نصف مغمضتين إلى أن يسري سُلافُ نشوةٍ في شراييني. وتنفتح شهيَّتي على ما يليق بالنبيذ من حاشِيةٍ ملكية. هو النبيذ يرفعني إلى مرتبة أعلى، لا هي سماوية، و لا هي أرضية. ويقنعني بأنَّ في وسعي أن أكون شاعراً، ولو لمرة واحدة!

على أَعالي السرو

قالت له: هل أنتَ مَنْ كَتَبَ القصيدةَ؟
قال: لا أدري. حلمتُ بأَنني حيٌّ
فقالت: ثم ماذا؟
قال: صدّقتُ المنام، وَطِرْتُ من فرَحي
إليكِ إليكِ
قالت: ثم ماذا؟
قال: حين نطقت باسمك ردَّد الوادي
الصدى، واغرورقتْ عيناي بالرؤيا
فقالت: ثم ماذا؟
قال: لم أحلم بما هو أكثرُ

المرآةُ صافية أمامي. أنت أنت
كما رأيتك حالماً. وأنا أنا

قالت: وماذا بعد؟

قال لها: الحياة قصيرةٌ وجميلةٌ ...

هل أنتِ مَنْ كَتَبَتْ قصيدتيَ الأخيرةَ لي؟

فقالت: لا. أَنا شَبَحٌ

فقال: أنا كذلك، ربما تتسامَرُ الأشباحُ
كالأرواحِ

قالت: أَين نحن الآن؟

قال: على أعالي السَرْو ...!

وجهة نظر

ألفارق بين النرجس وعبّاد الشمس هو الفرق بين وجهتي نظر: الأول ينظر إلى صورته في الماء، ويقول: لا أَنا إلاَّ أنا. والثاني ينظر إلى الشمس ويقول: ما أنا إلاَّ ما أَعبد.

وفي الليل، يضيق الفارق، ويتسع التأويل!

رصاصة الرحمة

أَغار من الحصان: فإذا انكسرتْ ساقه وأحسّ بإهانة العجز عن الكر والفر في الريح ... عالجوه برصاصة الرحمة. وأَنا، إذا انكسر شيء فيّ، جسديٌّ أو معنوي، أُوصي بالبحث عن قاتل ماهر، حتى لو كان من أَعدائي. سأدفع له أَجرَهُ وثمنَ الرصاصة. سأُقبِّلُ يده والمسدَّس. وإذا كنتُ قادراً على الكتابة، مَدَحْتُهُ بقصيدة عصماء، يختار هو وزنها والقافية!

حياء

بحياء، أَنظر إلى طاسة الشحّاذ.
بحياء، أستمع إلى أغنية قديمة من أسطوانة مشروخة.
بحياء، أشمُّ عطر وردة ليست لي.
بحياء، أتذوَّق طعم التوت البريّ.
بحياء، أحكُّ أحد أعضائي.
بحياء، أستعمل حواسي الخمس.
بحياء، أُطيع حاستي السادسة.
بحياء، أَحيا، كما لو كنتُ ضيفاً على غجريّ يتأهَّبُ للرحيل.

الكمال كفاءة النقصان

أَلوقتُ طار، ولم أَطِرْ مَعَهُ ...
توقَّفْ ـ قلتْ ـ لم أكمل عشائي بعد،
لم أشرب دوائي كُلَّهُ،
لم أكتب السطر الأخير من الوصيّةِ،
لم أُسدِّد أيَّ دَيْن للحياة...
وقد رَأَتْني جائعاً قرب السياج
فأَطْعَمَتْني حَبَّةً من تينها ...
ولقد رأتني عارياً تحت السماء
فألبستني غيمةً من قطنها ...
ولقد رأتني نائماً فوق الرصيف

فأَسكنتني نجمةً في صدرها ...
قالت: تَعَلَّمْني تَجِدْني في انتظارِكَ!
قلت: شكراً للحياة، فإنها هِبَةٌ وموهبةٌ ...
تَعَلَّمتُ الحياة بما استطعت من الشقاء
وعلَّمتني كيف أنساها لأحياها ...

وقال الموت لي مُتَطفِّلاً:
لا تَنْسَني فأنا أخوها،
قلت: أُمُّكُما سؤالٌ غامضٌ لا شأن لي فيه ...
وطار الموتُ من لُغتي إلى أَشغالِهِ.

تحيا الحياةُ ـ هَتَفْتُ حين وجدتُها عفويَّةً
فطريَّةً، تلهو وتضحك للهواء. تُحبُّنا ونحبّها ...
وتكون قاسيةً وناعمةً، وسيِّدةً وجاريةً ..
ولا تبكي على أَحد، فلا وقتٌ لديها.
تدفن الموتى على عجل، وترقص مثل غانيةٍ
وتنقص ثم تكتمل. الكمالُ كفاءةُ النقصانِ
والذكرى هي النسيانُ مرئيّاً ...

ولكنيٍّ لعبتُ مع الحياة كأنها كُرَةٌ ولُعْبَة يانصيبٍ...
لم أفكر مرّةً باللغز: ما هي؟
كيف أملأها وتملأني ـ سألتُ وقد
رأيتُ الموت يتركني على مهلي ... لأسأل
وانتظرت الوقت. قلت: غداً سأمعن في السؤال
عن الحياة. ولم أَجد وقتاً
لأن الوقت راوغني وغافلني ... وطار!

صبَّار

أَلصَّبَّارُ الذي يسيِّج مداخل القرى كان حارساً مخلصاً للعلامات. حين كنا أولاداً، قبل دقائق، أرشَدَنَا الصبَّارُ إلى المسالك. لذلك أطلنا السهر خارج البيوت، برفقة بنات آوى والنجوم. كذلك خبَّأنا مسروقاتنا الصغيرة من بلح وتين مجفّف ودفاتر في مخدعه الشائك. وحين كبرنا دون أَن ندري كيف ومتى حدث ذلك، أَغوتنا أزهارُهُ الصفراءُ بملاحقة البنات على طريق النبع الضاحك، وتباهينا بما على أيدينا من شوك.

ولمـا انطفـأت الزهـرة ونتـأت الثمـرة، كان الصَّـبَّار عاجـزاً عـن صد سـلاح الجيش الفاتـك. لكنـه ظـلّ حارسـاً مخلصـاً للعلامات: هنالـك، خلف الصـبار منازل مـوءودة وممالك، ممالـك مـن ذكـرى، وحيـاة تنتظـر شـاعراً لا يحـبُّ الوقـوف علـى الأطـلال، إلاَّ إذا اقتضت القصيدة ذلك!

في الساحة الخالية

ساحةٌ خالية. ذباب وظهيرة وشجرة تينٍ لا تؤنس أَحداً. ينبح كلب من بعيدٍ، وأنا أَقترب من الساحة الخالية. أفكِّر في ما وراءها، وفي ما وراء قصيدة يكتبها شاعر مِحبط عن رهبة الساحة الخالية: «أنا والكلام الذي قُلْتُهُ، والكلام الذي لم أَقله، وصلنا إلى ساحة خالية». هناك يرنُّ الجفافُ كقطعةٍ معدنية. وتُحْدِثُ خطاك صوتاً مشابهاً «كأنك غيرك» ... يتبعه صدى هواء ناشف «كأني

هــو». وحيــن تكــون الســاحةُ خاليــةً تمتــدُّ الخواطــرُ إلــى مــا قبــل: إلــى حيــاةٍ كانــت هنا. جـــاءت مــن أزقَّـــةٍ ضـيّـقـة، لتتشمَّس أو تتنفَّــس أو لتعرض براهينهــا علــى الممكنــات. لــم أســأل: مــن أَيــن جئــتُ؟ بــل ســألتُ: لمــاذا وصــلتُ إلــى الســاحة الخاليــة؟. خفــت. وحاولــت الرجــوع إلــى أيِّ زقــاق ضـيِّق، فتحوَّلَــت الأزقــةُ كُلُّهــا أَفاعــي. أَغمضــتُ عينيّ وَفَرَكْتُهُمــا وفتحتهمــا لأرى كابوســي أمامــي. لم يكــن كابوســاً. كان واقعــاً كابوســياً. لكــن الســاحة الخاليــة اتســعت، وشــجرة التيــن ارتفعــت، والظهيــرة ســطعت، وتكاثــر الذباب. أمــا نبــاح الــكلاب فقــد آنســني مــن بعيــد، ثمَّــةَ حياة هنــاك. ولســبب ما، غامضٍ، تذكرت الكلام الذي لم أَقله ... تذكرته ونسيته.

إِجازة قصيرة

صدَّقتُ أَني مِتُّ يوم السبت،
قُلْتُ: عليَّ أن أوصي بشيء ما
فلم أَعثر على شيء...
وقلتُ: عليَّ أن أدعو صديقاً ما
لأخبره بأني مِتُّ
لكن لم أَجد أَحداً...
وقلتُ: عليَّ أَن أَمضي إلى قبري
لأملأه، فلم أَجد الطريقَ
وظلَّ قبري خالياً مني
وقلتُ: عليَّ واجبُ أن أؤدّي واجبي:

أن أكتب السطرَ الأخيرَ على الطلال
فسال منها الماءُ فوق الحرفِ...
قلتُ: عليَّ أن آتي بفعلٍ ما
هنا، والآن
لكنْ لم أَجد عملاً يليق بميِّتٍ

فصرختُ: هذا الموت لا معنى له.
عَبَثٌ وفوضى في الحواس،
ولن أُصدِّق أنني قد متُّ موتاً كاملاً
فلربما أنا بين بين
وربما أنا ميِّت متقاعدٌ
يقضي إجازته القصيرة في الحياة!

الشهرة

أَلشهرةُ فضيحةُ الكائن المحرومِ من الأسرار. تُغَيِّرُ مشية صاحبها بين سريعة وبطيئة، لتلائم ما يريد لها المُشَاهِد من ثقة بصلابة الأرض. على الهامة ألاَّ ترتفع كثيراً لتبقى السماءُ وجهةَ نظرٍ عامة. وعلى القامة أن تنحني قليلاً لتحية المارة والطيور التي قد تحلّق على ارتفاع منخفض. اليد اليسرى، حاملةُ الساعة المُخْتَلَفُ على معدنها بين ذَهَبِيّ وماسيّ، تندسُّ في جيب البنطلون ذي اللون الرمادي المحايد.

واليـد اليمنى تضـبط حركتها بالقبض على كتاب أو جريـدة. لـون المعطـف كُحْلـيّ .. لأن أي لـون آخـر يُهَيِّـجُ الشـائعات. الشـهرة، وهـي عُـرْيُ الكائـن، تقتضـي حمايـة مـا تحت الثيـاب من الكاميـرات السـرية الملأى بالصـور قبـل التصـوير. والشـهرة تغـري النميمـة بالارتفاع إلى مسـتوى الجريمة، بارتكاب اغتيال معنـوي لا يعاقـب عليـه القانـون. والشـهرةُ عقوبـةٌ علـى اللاّخطـأ، تُمْلـي علـى صـاحبها ارتـداء قنـاع الترضـية ليبتسـم وفـق الطلـب والوقـوف الطويـل مـع الواقفيـن حتـى لـو كان حاقنـاً. وتملي على لسـانه المفـردات الجاهزات الخاويـات مـن المعنـى والقصـد. الشـهرة عدوّ السـليقة والفطـرة والبداهـة، واختـلاف مـا يقـال عما يجـب أن يقـال. وتحويـل الواحد إلى اثنين يتحاوران في غرفة مغلقة النوافذ: من منا يراوغ نصـفـه الـشـانـي أنـــا أم أنـــت؟. ألشـهرة ضُـرَّةُ العفـوي وسـجنٌ كثيـر الـنـوافـذ، حَـسَـنُ الإضـــاءة، والـمـراقـبـة!

لو كنتُ صيّاداً

لو كُنْتُ صيّاداً
لأعطيتُ الغزالة فرصةً أُولى
وثانيةً
وثالثةً
وعاشرةً،
لتغفو ...
واكتفيتُ بحصَّتي منها:
سلامِ النفس تحت نُعاسِها.
أَنا قادرٌ لكنني أَعفو
وأَصفو

مثل ماء النبع قرب كِناسها.

لو كنتُ صيّاداً
لآخيتُ الغزالة ...
«لا تخافي البندقية
يا شقيقتيَ الشقيَّة»
واستمعنا، آمِنَيْن، إلى
عواء الذئب في حقل بعيد!

كابوس

إذ أَصحو فجراً يمرض نهاري. لا يأتيني الكابوس من الليل، بل من فجر فاجر، كما لو أن حزناً ميتافيزيقياً يجرّني إلى غابة كُحْليَّة: هناك مُسَلَّحون مُقَنَّعُون وكاميرا. يشدون وثاقي إلى جذع نخلة عراقية ثكلى، قرب نخلة أخرى رُبط إلى جذعها جواد عربي. يسألونني عن اسمي الرباعي، فأخطئ في اسم أبي وجدِّي من وطأة الفجر. لا أرى سخريتهم المُقَنَّعة، لكنني أسمعهم يتهامسون: لن نُعْدِمَهُ الآن

دَفْعةً واحدة ... فما زلنا في الفصل الأول من الرواية. نقتله بالتقسيط وعلى دفعات. وسنكتفي بإعدام الحصان. وعندما فكّوا وثاقي دَسُّوا في جيبي شريط فيديو، وقالوا: هذا للتدريب على التعذيب ... وأعادوني إلى البيت. حين شاهدتُ الشريط لم أَفرح بأني حيّ. حزنت لأن الحصان كان ينظر إليَّ بمزيج من الشفقة والتأنيب!

ليل العراق طويل

[إلى سعدي يوسف]

ألعراقُ، العراقُ دَمٌ لا تُجَفِّفُهُ الشمسُ،
والشمسُ أرملةُ الربّ فوق العراق. يقول
القتيلُ العراقيُّ للواقفين على الجسر: عِمْتُمْ
صباحاً، فما زلتُ حيّاً. يقولون: مازلتَ
مَيْتاً يُفَتِّشُ عن قبره في نواحي الهديلْ

أَلعراق، العراق ... ولَيْلُ العراق طويل.
ولا يبزغ الفجرُ إلاّ لقتلى يُصَلُّون نصف صلاةٍ
ولا يكملون السلام على أَحَدٍ ... فالمغول
يجيئون من باب قصر الخليفة في كتف النهر،

والنهر يجري جنوباً جنوباً، ويحمل أَمواتنا
الساهرين إلى أَقرباء النخيلْ

ألعراقُ، العراقُ مدافنُ مفتوحةٌ كالمدارس
مفتوحة للجميع، من الأرمنيّ إلى التركمانيّ
والعربيّ. سواسية نحن في درس علم
القيامة. لا بُدَّ من شاعر يتساءل:
بغدادُ: كم مَرَّة تخذلين الأساطير ؟ كم
مرَّة تصنعين الثماثيل للغد؟ كم مَرَّةً
تطلبين الزواجَ من المستحيلْ؟

أَلعراقُ، العراق ... هنا يقف الأنبياءُ هنا
عاجزين عن النطق باسم السماء. فَمَنْ
يقتل الآن مَنْ في العراق؟ الضحايا شظايا
على الطرقات وفي الكلمات. وأَسماؤهم نُتَفٌ
من حروفٍ مُشَوَّهَةٍ مثل أَجسادهم . وهنا
يقف الأنبياء معاً عاجزين عن النطق باسم

السماء، وباسم القتيلْ

أَلعراقُ، العراق، فمن أَنت في حضرة الانتحار؟
أنا لا أنا في العراق. ولا أَنت أنت. وما
هو إلاّ سواهُ. تخلَّى الإله عن الحائرين
فمن نحن؟ مَنْ نحن. لسنا سوى خبر
في القصيدة: لَيْلُ العراق طويلٌ طويلْ!

في قرطبة

أبـواب قرطبـة الخشـبية لا تدعونـي إلـى الدخـول لإلقـاء تحيَّـةٍ دِمَشْـقِيَّةٍ علـى نافـورة وياسـمينة. أمشـي فـي الأزقـة الضـيّقة فـي نهـارٍ ربيعـيّ مُشْـمسٍ سَـلِس. أَمشـي خفيفـاً كأنـي ضـيف علـى ذاتـي وذكرياتـي، كأنـي لسـت قطعـة أَثريّـةً يتداولهـا السُـيَّاح. لا أُربـت علـى كتـف ماضـيَّ بفـرح يتيـم، كمـا تتوقَّـعُ منـي قصـيدةٌ مُرْجَـأَة. ولا أخـاف الحنيـن منـذ أغلقـت عليـه حقيبـة السـفر، بـل أخـاف الغـد الراكضَ أمامـي

بخطـي إلكترونيـة. كلمـا تطفَّلـتُ عليـه نَهَرَنـي قائـلاً: ابحـثْ عـن الحاضـر. لكـنَّ الشـعراء كثر فـي قرطبـة. أجانـب وأندلسـيون. يتحدثون عـن ماضـي العـرب وعـن مسـتقبل الشـعر. وفي حديقـةٍ، قليلةِ الشـأن والشـجر، أرى نصـباً بحجـم الكـفّ لابـن زيـدون وولاَّدة، فأسـأل أحـد شـعرائي المفضّـلين، ديريك ولكـوت، إن كان يعـرف شـيئاً عـن الشـعر العربـي، فـلا يأسـف عندمـا يقـول: كلا.. لا شـيء. ومـع ذلـك، بقينـا معـاً ثلاثـة أيـام لـم نتوقـف فيها عن الضـحك والسخرية من الشـعر والشعراء الذيـن وصـفهم بأنهـم لصـوص اسـتعارات ... سـألني: كـم اسـتعارة سَـرَقْتَ، فأخفقـتُ فـي الجـواب. وتبارَيْنـا فـي مغازلـة القرطبيـات، وسـألني: إذا أُعجبـت بامـرأة فهـل تتقـدَّم منهـا؟ قلت: علـى قدر جمالها تكـون جرأتي ... وأنـت؟ قـال: أمَّـا أنـا، فـإذا أَعجبتنـي امـرأة جـاءت هـي إلـيّ. قلـت: لأنك ملـك وآبـن ... مـا لا أعـرف. وكانـت زوجتـه الثالثة تضـحك.

وفـي قرطبـة، وقفـتُ أمـام بوابـة بيـت خشـبية
وبحثـت فـي جيبـي عـن مفاتيـح بيتـي القديـم،
كمـا فعـل نـزار قبانـي. لـم أذرف دمعـة،
لأن الجـرح الجديـد يخفي ندبة الجـرح القديم.
لكـن ديريـك ولكـوت فاجأنـي بسـؤال جارح:
لـمـن الـقـدس؟ لـكـم أَم لـهـم؟

في مدريد

شمسٌ ورذاذٌ وربيعٌ حائر. والأشجار عتيقة وعالية في حديقة «بيت الطلبة». الممرات مرصوفة بحصى يجعل المشي عليه أَقرب إلى تدريب ساخر على رقصة فلامنكو. والظلال مثقوبة بضوء مترجرج. من على هذه التلة نطلُّ على مدريد الواسعة المنخفضة كحوض أخضر. ونجلس، أَنا والشاعر الكندي / الأميركي مارك ستراند، على مقعد خشبي لالتقاط الصور مع الطالبات والطلبة... وللتوقيع على كتبنا

المترجمة إلى الإسبانية، نتبارى في إخفاء فرح الشاعر بقارئه المجهول، غير المتوقّع ... وبِسَفَرِ شعره الذي كتبه في غرفة مغلقة إلى هذه الحديقة. اقتربتْ سيدة أَنيقة مني وقالت: أنا حفيدة لوركا، فعانقْتها لأشمّ ما تسرَّب من ذراعيه إليها. وسألتها: ماذا تتذكرين منه؟ فأجابت بأنها وُلدت بعد مصرعه. قلت لها: هل تعلمين كم نحبّه؟ قالت: كل الناس تقول ذلك، فأشعر بالزهو. إنه أيقونة. وذكَّرني مدير البيت بأن هذا المكان هو أحد معالم مدريد. مَنْ لم يقرأ شعراً هنا فهو الخاسر. هنا عاش لوركا وأَلبرتي وخيمينيث وسلفادور دالي. في نهاية الندوة المشتركة طُلِب مني أن أوجّه سؤالاً إلى مارك ستراند. فسألته: ما هي الحدود الواضحة بين الشعر والنثر؟ تلعثم كما يتلعثم الشعراء الحقيقيون أمام صعوبة التحديد. ثم قال ... وهو الذي يكتب الشعر النثري: الإيقاع الإيقاع. الشعر يُعَرَّفُ بالإيقاع.

وحين خرجنا إلى الحديقة نتمشّى على ممرّات الحصى، لم نتكلّم كثيراً لئلا نكسر إيقاع الليل على الأشجار العالية. ولا أَعرف لماذا تذكرت قول نيتشه الحاذق: «الحكمة هي المعنى محروماً من الغناء»!

عالٍ هو الجبل

يمشي على الغيم في أَحلامه، ويَرَى
ما لا يُرَى. ويظنُّ الغيمَ يابسةً...
عالٍ هو الجَبَلُ

أعلى وأَبعد. لا شيء يُذَكِّرُهُ
باللامكان، فيمشي في هواجسِهِ
يمشي ... ولا يَصِلُ

كأنه هُوَ، أو إحدى صفات «أَنا»
وقد تقاسمها الضدان بينهما:

أليأسُ و الأمَلُ

كان الضبابُ كثيفاً في قصيدتِهِ
و كان يصعد من حلمي، فقلتُ له:
عالٍ هو الجبلُ!

لا أَنتبه

أرى ما أَرى
دون أَن أَنتبهْ
وإذ، لا أرى ما أرى
يُوَرِّطني القلبُ بهْ
وأَحيا
كأني أنا
أو سوايَ
ولا أَنتبهْ!

تلك الكلمة

أَعجبتْهُ كلمةْ
فَتَحَ القاموسَ،
لم يعثر عليها،
وعلى معنىً ضبابيّ لها...
لكنها تسكنُهُ في الليل
موسيقيَّةً منسجمةْ
مع ذاتٍ مُبهَمةْ

قال: لا بُدَّ لها من شاعرٍ
ومجازٍ ما لتخضرَّ وتحمرَّ

على سطح الليالي المُعْتِمَةْ

ما هِيَ؟

وَجَدَ المعنى

وضاعتْ منه تلك الكلمةْ

صدى

في الصدى بئرٌ
وفي البئر صدى
والمدى
يبدو رماديّاً حياديّاً
كما لو أَنَّ حرباً لم تقع
أَو وَقَعَتْ أمسِ،
وقد تأتي غداً...

في الصدى بئرٌ
وفي البئر صدى

وأنا أَبحث ما بينهما
عن مصدر الصوت
سدى!

شجرة الزيتون الثانية

شجرة الزيتون لا تبكي ولا تضحك.هي سيِّدةُ السفوح المحتشمة. بظلِّها تغطّي ساقها، ولا تخلع أوراقها أمام عاصفة. تقف كأنها جالسة، وتجلس كأنها واقفة. تحيا أُختاً لأبدية أَليفة وجارةً لزمن يُعينُها على تخزين الزيت النورانيّ وعلى نسيان أسماء الغزاة، ما خلا الرومان الذين عاصروها واستعاروا بعض أغصانها لضفر الأكاليل. لم يعاملوها كأسيرة حرب، بل كجدة محترمة ينكسر السيف أمام

وقارها النبيل. في فِضَّة خضرتها المتقشّفة خَفَرُ اللون من الإفصاح، والنَظَرُ إلى ما وراء الوصف، فلا هي خضراء ولا فضيّة. هي لون السلام إذا احتاج السلام إلى فصيلة لون. لا يقول لها أَحد: كم أنت جميلة! لكنه يقول: كم أنت نبيلة وجليلة. وهي، هي التي تدرِّب الجنود على نزع البنادق، وتمرِّنهم على الحنين والتواضع: «عودوا إلى بيوتكم، وأَضيئوا بزيتي القناديل». لكن هؤلاء الجنود، هؤلاء الجنود الجدد، يحاصرونها بالجرافات ويجتثّونها من سلالة الأرض ... ينتصرون على جدّتنا التي انقلبت وصار فرعها في الأرض وجذورها في السماء. لم تبك ولم تصرخ. إلاَّ أن أَحد أحفادها ممن شاهدوا عملية الإعدام، رمى جندياً بحجر، واستشهد معها. وعندما مضى الجنود منتصرين، دفنَّاهُ هناك: في الحفرة العميقة - مهد الجدة. ولسبب ما، كُنَّا متأكدين من أنه سيصبح، بعد قليل، شجرة زيتون ... شجرة زيتون شائكة ... وخضراء!

صفصافة

صفصافةٌ في ملتقى دربين: هل
جاء الشماليون؟ أم ذَهَبَ الجنوبيّون؟
لا حربٌ هناك ولا سلامٌ، والسماءُ
نظيفة وخفيفة فوق المكان . . .
وقال لي، متأبطاً كُرّاسَهُ الشعريَّ:
هذا، يا غريب، هُويَّتي

متداخلاً في الأبجدية. كُلُّ حَرْفٍ ربوةٌ
وحديقةٌ. هو، لا أنا، في الحرف
سيِّدُ نفسه. يختار عالمه الخياليَّ

البعيد من الطبيعة: رُبَّما نَقَّحْتُ
أخطاء الخريطة. ربما أَصلحتُ ما فعل
النحاسُ بإخوتي..
ويقول لي: أنا حاضر في كُلِّ شيء
غائب عن كُلِّ شيء، بين أَمس
وحاضري صفصافة
صفصافة في ملتقى زمنين
قلت: فمن تكون؟
فقال لي، متأبطاً كُرَّاسَهُ
متورطاً بكلامه الشعري:
هذا ما تبقَّى من حُطام هُويَّتي!

حق العودة إلى الجنة

إذا كان الله قد عاقب آدم، بطرده من الأبدية إلى الزمن، فإن الأرض منفى، والتاريخ مأساة... بدأت بحرب عائلية بين قابيل وهابيل، ثم تطورت إلى حروب أهلية وإقليمية وعالمية، ما زالت مستمرة إلى أن يقضي أحفادُ التاريخ على التاريخ. فماذا بعده؟ ماذا بعد التاريخ؟ يبدو أن حق العودة إلى الجنة محفوف بالعدم وبالأسرار الإلهية. أما الطريق الممهَّد الوحيد فهو الطريق إلى الهاوية، حتى إشعار آخر ... حتى صدور العفو الإلهي.

لولا الخطيئة

لا كما ظنَّ آدَمُ!

لولا الخطيئةُ
لولا النزولُ إلى الأرض
لولا اكتشافُ الشقاء
وإغواءُ حوَّاء
لولا الحنين إلى جنَّةٍ غابرةْ
لَمَا كان شِعْرٌ
ولا ذاكرةْ
ولما كان للأبديَّة معنى العزاء!

خريف إيطالي

أُغنية تفتقر إلى كلمات إيطالية. يا لَه من خريف ... ويا لَه من خريف. السماء لا هي زرقاء ولا هي بيضاء ولا رمادية، لأن الألوان وجهاتُ نظر تختلف وتأتلف. الغيومُ الصغيرة مناشف تمسح الرذاذ عن أَعالي الجبال. وترتفع الجبال كلما دَنَتْ منها السماء. الأشجار كائنات أُنثوية خرجت للتو من حمَّام السحاب لارتداء طيورٍ لا تهاجر اليوم، لأن الخريف لا يومئ إلى زمن ذابل وَشَجَن. هو عرض أزياء احتفاليّ

لاشتقاق اللون من اللاّلون. يهيِّج الحنين إلى ما يتلو الوصف، ويسبق حشرجة الكهرمان في المضاجع. الخريف شحوب الرخام إذا ما استيقظت الحواس على نداء العسل. وأَنا هنا، في ضواحي أكويلا الإيطالية، جالس وراء شرفة زجاجية واسعة ترشد النظر إلى ما ينتظر القلب من سكينة: في الوادي أَبدية تلقي التحية العابرة على زُوَّارها الصاعدين إلى سفوح جبالٍ نَقَشَ عليها التاريخُ قلاعاً حصينة لصدّ البرابرة. ثم هبط إلى الوادي مجعَّداً مطاطئ الرأس. لا شيء يثير فزع الغزلان والأرانب. ولا شي يرسل حنيني إلى شيء ، وأَنا أتابع أوراق الشجرة المتباطئة في الهبوط التدريجي إلى الأرض، كامرأة تتعرَّى على مهلها في خيال العاشق. أنا هنا ورقة الشجرة يحملني الهواء إلى نوم شتائي أصحو منه على بُرْعُمي. هنا، قرب هذه الأبدية الأليفة، اللامبالية بتاريخ القلاع، يعثر

زائـر مثلـي علـى معنـى مـا مـن معانـي الغيـوم، فيقـول: حمـداً للخِفَّـة حمـداً!

مسافران إلى نهر

رأيتُ الحبّ عن بعد خمسة أمتار. رأيته جالساً على مقعد في قاعة المسافرين إلى عناوين غير مرتجلة. ألمطار مزدحم. الفتى الفرنسيّ والفتاة اليابانية غريبان عن الزحام. ملفوفان، كما بدا لي، بغمامة واحدة زرقاء. يتناوبان النُعاس ولا يلتفتان إلى ما هو خارجهما. تنظر إليه حين يضع رأسه على كتفها نظرةً حريريَّةً تحرص على ألاَّ تخترقه. كأنها لا تريد له أن يراها تراه، كأنهما في أوَّل الحب وتخجل من أن

يعرف كم ستحبُّه. ثم يتبادلان الخَفَر ... ينظر إليها حين تضع رأسها على كتفه نظرة مَنْ يخشى على تُحْفَةٍ بلّورية هشّة من الانكسار. وحين تلتقي النظرتان على شغف وشفافية، تنهض الفتاة لتشتري زجاجة ماء. تسقي الفتاةُ الفتى كأنها ترضعه، ويسقيها كما لو أنه يُقَبِّلها. طويتُ رواية الرحلة لأرى صورة الحب عن بعد. ارتعشت وانتعشت بموجة عطر خفيّ هَبَّتْ عليَّ من فتاة يابانية وفتى فرنسي بلغا من الرهافة منزلة غزال وظبية. لم يقل لها شيئاً. ولم تقل له شيئاً. فقد اكتفيا بفواصل الصمت في الموسيقى اليابانية. لعلهما لم يبلغا سنَّ الكلام عمَّا هما فيه من تلاشي الواحد في الآخر. لو قالت له شيئاً لكان: النهر الذي سنجتازه بعد هذه الرحلة يمرُّ قرب بيتنا. ولو قال لها شيئاً لكان: النهر الذي سنجتازه بعد هذه الرحلة هو بيتنا!

قاتل وبريء

هُوَ الحُبُّ، كالموجِ
تكرارُ غبطتنا بالقديم ـ الجديد
سريع، بطيء
بريء كظبي يسابق درَّاجةً
وبذيء ... كديكْ
جريء كذي حاجةٍ
عصبيٌّ المزاج رديء
هادئ كخيالٍ يرتِّب ألفاظه
مظلمٌ، معتمٌ ... ويضيء
فارغٌ ومليء بأضداده

هو الحيوان | الملاك
بقوَّة أَلف حصان، وخفَّة طيف
وملتبسٌ، شَرِسٌ، سَلِسٌ
كلما فرَّ كرَّ
ويُحْسنُ صنعاً بنا ... ويُسيء
يفاجئنا حين ننسى عواطفنا
ويجيء ...
هو الفوضويّ | الأنانيّ |
والسيِّد | الواحد | المتعدِّدُ

نُؤْمنُ حيناً، ونكفر حيناً
ولكنه لا يُبالي بنا
حين يصطادنا واحداً واحدةْ
ثم يصرعنا بيد باردةْ

إنه قاتلٌ ... وبريء!

كأنها أُغنية

كما لو حلمتُ: رأيتكِ بيضاءَ، سمراءَ،
حنطيَّةً ... تَصْطَفين من اللون تأويله.
تجلسين على ركبتيَّ، كأنك أنتِ. كأني
أنا. ولنا ما يُعدُّ لنا الليل من
نُزْهَةٍ في حدائقه الليلكيّة. كُلُّ هناك
هنا. كُلُّ شيء لنا. أنتِ لي، وأنا لك
والظل ـ ظلّك يضحَكُ كالبرتقالة. والحلم
أدَّى مهمته مثل ساعي البريد، وطار
إلى غيرنا. فعلينا إذن أن نكون
جديريْن، هذا المساء، بنا ... وبنهر
يرافقنا، ونفيض به ويفيض بنا!

شاعري / آخَري

أَلقصيدةُ تُولَدُ في الليل من رحم الماء.
تبكي، وتحبو، وتمشي، وتركض في الحلم
زرقاءَ بيضاءَ خضراءَ. ثم تَشبُّ وتهربُ
في الفجر |
يَحْدُثُ هذا، وشاعرها نائم لا يُحسُّ بها
وبما حوله. لا يراها تغافله وتطير إلى
غيره.
في الصباح، يقول: كأني حلمت بها،
بالقصيدة ... أَين هي الآن؟
يشرب قهوته شارداً، حاسداً غيره
ويقول أخيراً: هنيئاً له شاعري | آخري!

سماء صافية وحديقة خضراء

أَلسماءُ الصافية تفكير بلا فكرة كحديقةٍ كُلُّها خضراء. قصيدة لا عيب فيها سوى إفراطها في الوضوح. تفتقر السماء إلى غيمة ولو عابرة لتوقظ الخيال من خَدَر الأزرق. وتفتقر الحديقة الخضراء إلى لون أخر، أحمر أو أصفر أو ليلكي، وإلى بنات آوى، لكي يحار القلب بين الأنواع. فالجاهز خصم الحافز. والقصيدة محتاجة إلى ما يشبه الخلل الماكر لكي نصدِّق الشاعر حين يكذب ويكتب عن حيرة الروح

بين سماء صافية وحديقة خضراء. فما حاجتنا للشعر إذا قال الشاعر: إن السماء صافية. وإن الحديقة خضراء؟

كلمة واحدة

هسيسُ الكلمة في اللاَّمرئيّ هو موسيقى المعنى، يتجدد في قصيدة يظنُّ قارئها، من فرط ما هي سريَّة، أنه كاتبها!

كلمةٌ واحدةٌ، كلمة واحدة فقط، تشعُّ كماسة أو يراعة في ليل الأجناس، هي ما يجعل النثر شعراً!

وكلمةٌ عاديَّةٌ، يقولها لا مبالٍ للا مبالٍ آخر، على مفترق طرق أو في السوق، هي ما يجعل القصيدة ممكنة!

وجملـةٌ نثريَّـةٌ، لا وزن فيهـا ولا إيقـاع، إذا أَحســن الشــاعر استضافتها في ســياق الملائـم، ســاعدته علـى ضـبط الإيقـاع، وأضـاءت لـه طريق الـمعنى في غَبَش الكلمات.

بيت القصيد

ألشيء الناقص في القصيدة، ولا أَعرف ما هو، هو سرّها المُشِعّ، وهو، ذلك الناقص، ما أُسمِّيه «بيت القصيد»

□

حين تكون القصيدةُ واضحةً في ذهن الشاعر، قبل كتابتها، من السطر الأول حتى الأخير، يصبح الشاعر ساعي بريد، والخيال درَّاجة!

□

أَلطريق إلى المعنى، مهما تشعّب وطال،

هو رحلة الشاعر. كُلَّما ضلَّلته الظلال اهتدى!

□

ما هو المعنى؟ لا أَعرف. لكني قد أَعرف ما هو نقيضه. نقيضه هو استسهال العَدَم!

□

ليس الألم موهبة. هو امتحانها: فإمَّا أَن تقهره ... أو يقهرها!

□

كُلُّ شِعْرٍ جميلٍ ... مقاومة

□

أَلتراث الحيّ هو ما يُكْتَبُ اليوم ... وغداً

□

أَلشاعر الكبير هو مَنْ يجعلني صغيراً حين

أكتب ... وكبيراً حين أَقرأ!

□

أَمشي بين أبيات هوميروس والمتنبي
وشيكسبير ... وأَمشي وأَتعثر كنادلٍ مُتَدرِّب
في حفلة ملكية!

□

ألغيمة في خيال الشاعر ... فكرة.

□

الشعر ... ما هو؟ هو الكلام الذي نقول
حين نسمعه أو نقرؤه: هذا شعر!
ولا نحتاج إلى برهان.

هجاء

لا يستقيم مديح السلطانة إلاَّ بقصيدة عمودية: الصَّدْرُ للصدريَّة. والعَجُزُ للعَجِيزة!

ورثاء السلطان مديحٌ تأخَّر لأسباب بروتوكولية: لم يأذن الحاجب للشاعر بدخول القصر وتأدية الواجب. لكن أَذِنَ له بزيارة القبر.

لا أكره شاعراً يكرهني. لكني أعتذر عما سبَّبتُ له من ألم!

في الخطابة والخطيب

أَلخطابة، في معظمها الآن، هي فَنُّ ابتذال المهارة. طبلٌ يناجي طبلاً في ساحة كلما اتسعتْ، وجد الصوتُ متسعاً لامتلاء الصدى بضجيج الفراغ. يتلقَّفه الخطيب ليحشوه بمزيد من هباء المعنى. الصوت، لا الكلام، هو السيِّد مرفوعاً على صدى تحميه الأكفُّ من خطر السقوط على الحقيقة. الخطابة ليست ما يريد الخطيبُ ـ المهرِّجُ قوله، فالصوت يسبق القول الغائب، والخطبة هي الغاية هي ما ترتجله الغريزة

من حماسة الفتك بالخصم، وما يُعْجِبُ مشاهدي مصارعة الثيران الساديين من نصال فارس بلا فروسية. الخطابة هي إعدام المعنى في ساحة عامة. المبتدأ يبدأ بعد استراحة الصوت القصيرة لارتشاف جرعة ماء. أما الخبر المتأخّر فهو متروك للارتجال المتبختر الذي تسنده آيةٌ قرآنية أُخرجت من سياقها، أو بيت شعر قاله شاعر في مدح أمير أمويّ ظنَّه الخطيب عباسياً، فأثار التصفيق. التصفيق هو المبتغى والقصد، يستعيد خلاله الخطيب اللاأفكار القادمة عليه من المشهد، فيبتسم كمن يكافئ جمهوره على حسن ظنهم بذكائهم المكتسب من فائض ذكائه، ويمنحهم نكتة تنوس بين الفكاهة والتفاهة، فيضحكون ويضحك. الخطابة هي تأليب الضجر على الضجر ببلاغة الشكوى مما لحق بالأمة من خطر الضجر. يخلع الخطيب معطفه ليدل الجمهور على موضع ضميره الحيّ. يضع يده في جيب بنطاله بحثاً عن فكرة،

ويتحـرك يمينـاً ويسـاراً لأنـه حائـر فـي تمايـز القـوم. فـإن كانـوا يمينييـن صـدقوه، وإن كانوا يسـاريين صـدقوه. ثـم يعـود إلـى منزلـة بيـن المنزلتيـن. ولا يكفّ عن ترديد كلمة: صَـدِّقوني! الخطابـة هـي الكفـاءة العاليـة فـي رفـع الكذب إلى مرتبـة الطرب. وفي الخطابة يكون «الصـدق زلة لسان»!

مناصفة

تحيا مناصفةً،
لا أنتَ أنتَ، ولا
سواكَ
أَين «أنا» في عتمة الشَبهِ؟

كأنني شَبَحٌ
يمشي إلى شَبَحٍ
فلا أكون سوى شخصٍ مررتُ بهِ

خَرَجْتُ من صورتي الأولى

لأدركه

فصاح حين اختفى:

يا ذاتيَ انتبهي!

أَظن

أَظنُّ،
ولا إثْمَ في مثل ظني
ولا وَهْمَ،
أني
بخيط حريرٍ أَقُصُّ الحديد
وأَني
بخيط من الصوف
أَبني خيام البعيد
وأَهرب منها
ومني
لأني ... كأنِّي!

السطر الثاني

أَلسطرُ الأوَّلُ هِبَةُ الغيب للموهبة. أَما السطر الثاني فقد يكون شعراً أو خيبة أَمل [فروست]. السطر الثاني هو صراع المجهول مع المعلوم. خلاء الطرق من الإشارات، وامتلاء الممكن بالأضداد، فكُلُّ ممكن ممكن، وهو حيرة تقليد المخلوق الخالقَ. هل الكلمة تقود قائلها، أم قائلها يقودها؟ السطر الثاني لا يوهب، بل يُصنع بكفاءة ترويض اللامرئيّ. فأنت ترى ولا ترى من شدّة التباس الضوء مع العتمة. وأنت... أنت

الـذي مَنَحَـكَ الإلهـامُ إشـارة البـدء. وتخلَّـى عنـك لتمضـي وحدك فـي مغامـرة بلا بوصـلة. أنـت كمـن يخـرج إلـى غابـة دون أن تعـرف مـا ينتظـرك: قُطّـاع طـرق، أم طلقـة، أم صـاعقة، أم امـرأة تسـألك: مـا الزمـن؟ فتقـول لهـا: «توقّـف الزمن فمـرِّي» [بيسّـوا]. الممكـن غابـة. فعلـى جـذع أيـة شـجرة تسـند خـيـالـك، ومــن أيّ وحـش تـنـجـو؟. إذا اهتديـت إلى السـطر الثانـي في متاهـة الممكن، عرفـت الطريـق المعبَّد إلى موعد مع المسـتحيل!

أَعلى وأَبعد

رَطْبٌ هواءُ البحر |
عَذْبٌ شَدْوُ عصفورٍ على الشُبَّاك |

هذا ما تبقى من كلام الحلم ...
حين صَحَوْتُ، عند الفجر، قُلْتُ:
لعلَّ لا وعيي البريءَ يفضِّلُ الإيقاعَ
حين يقول لي:
«رَطْبٌ هواءُ البحر
عَذْبٌ شَدْوُ عصفور على الشُبَّاك»

لكن، كان وعيي يرشد المعنى إلى الإيقاع

[أو بالعكس]

حين يقول لي:

صَعْبٌ صعود التلّ ... فاصعَدْ

أَعلى وأَبعدْ!

الكناري

قرب ما سيكون
استمعنا إلى ما يقولُ الكناريُّ
لي ولَك:
ألشَّدْوُ في قَفَصٍ ممكنٌ
والسعادةُ ممكنَةٌ...

والكناريُّ حين يُغَنِّي
يقرِّب ما سيكون
غداً تنظرين إلى اليوم - أمسِ
تقولين: كان جميلاً

وكان قليلاً
ولا تفرحين ولا تحزنين

غداً، نتذكَّر أنَّا تركنا الكناريَّ
في قفص، وحده
لا يغنِّي لنا
بل يغنِّي لقنَّاصةٍ عابرين...

في مركب على النيل

مركبٌ على النيل. يوم الثلاثاء. قهوةٌ وشايٌ ودخانُ سجائر. وكلام عن الدنيا التي لا نعرف غيرها. أمَّا ما يتخيَّلُهُ كل واحد من المتحلقين حول نجيب محفوظ عما وراء الدنيا، فيتقاسمه سراً مع طيور تحلِّق فوق نهر الأبدية. وهو، هو المستمع بأذن انتقائية، تأخذ الكلمات وقتَها في الوصول إليه، لا يريد للمريدين أن يفسروا كلامه المتقشف بأكثر مما فيه. يعرف من المدائح ما يكفي ليجعل العبث

زُهْداً. ولا يريد لأحد أن يحدِّق إلى صنم أو منحوتة. لكننا نحجُّ إليه، لا لنعرفه ... فقد امتلأنا برواياته وتقمَّصْنا شخوصها، بل لنحيّيه على ما كتب، ولنحيِّي أنفسنا جالسين بحضرة أسطورة حية خرجت من مخطوطة فرعونية. رأيت نساءً قادماتٍ من أقاصي حرف الضاد يُقَبِّلْنَ يده، فيخجل ولا يعرف السبب، كأنه هو ولا هو في آن واحد. ثم يضحك ضحكة عالية، ويطلب سيجارة حان وقتها ليبدِّد بسحابة دخانها قداسةً لا يصدقها ماكرٌ مثله، وللناس التأويل. عاش ليكتب. ومنذ طعنه خنجر في الرقبة تخلَّى عن سرد التفاصيل بدأب النملة، واختار تقطير النحلة. من يومها، ونحن نجيء إليه مُوَدِّعين، فالحياة انتبهت إلى نقصانها وسئم الموتُ التأجيل دون أن نشي بذلك، ونحن من حوله في مركب على النيل، يوم الثلاثاء! لكن يوم الثلاثاء لم يعد موعدنا!

إدمانُ الوحيد

أَسْتَمِعُ إلى أم كلثوم كل ليلة، منذ كان الخميس جوهرتها النادرة، وسائر الأيام كالعقد الفريد. هي إدمانُ الوحيد. وإيقاظُ البعيد على صهيل فَرَسٍ لا تُرَوَّض بسرج ولجام. نسمعها معاً فنطرب واقفين، وعلى حدة فنظلُ واقفين ... إلى أَن تومئ لنا الملكة بالجلوس فنجلس على متر من ريح. تُقَطِّعنا مقطعاً مقطعاً بوَتَرٍ سحريّ لا يحتاج إلى عود وكمان... ففي حنجرتها جوقة إنشاد وأوركسترا كاملة، وسرّ

من أسرار الله. هي سماء تزورنا في غير أوقات الصلاة، فنصلّي على طريقتها الخاصة في التجلّي. وهي أرض خفيفة كفراشة لا نعرف إن كانت تحضر أم تغيب في قطرة ضوء أَو في تلويحة يد الحبيب. لآهتها المتلألئة كماسةٍ مكسورةٍ أن تقود جيشاً إلى معركة... ولصرختها أن تعيدنا من التهلكة سالمين. ولهمستها أَن تُمْهلَ الليل فلا يتعجّل قبل أن تفتح هي أولاً باب الفجر. لذلك لا تغمض عينيها حين تُغَنِّي لئلا ينعس الليل. هي الخمرة التي تسكرنا ولا تنفذ. الوحيدةُ الوحيدةُ سعيدةٌ في مملكتها الليلية تُجنِّبُنا الشقاء بالغناء، وتحبِّبُنا إلى إحدى حفيدات فرعون، وتُقَرِّبنا من أبدية اللحظة التي تحفرها على جدار معبد ينصاع فيه الهباء إلى شيء ملموس. هي في ليلنا مشاع اللا أحد. منديلها، ضابط إيقاعها، بيرقٌ لفيلقٍ من عُشّاقٍ

يتنافسون على حُبّ مَنْ لا يعرفون.
أما قلبها، فلا شأن لنا به من
فرط ما هو قاسٍ ومغلق كحبة جَوْزٍ
يابسة!

في الرباط

في مدينة الرباط، المرفوعةِ على أمواج الأطلسي العالية، يمشي الشاعرُ على الشارع بحثاً عن مُصَادَفَة المعنى وعن معنى المصادفة. يعرف النخيل جيّداً، ويسأل المارة عن أسماء الأشجار الأخرى، حاملةِ الجَمْر، دون أن يحصل على جواب واحد، كما لو أَن الشجر وجهةُ نظر أو استعارة. لكن المارة يسألونه عن وجهة الاستعارة في قصيدةٍ ما نسي أنه كاتبها، فلا يقدّم جواباً واحداً، كما لو أن الاستعارة شجرةٌ مجهولة الاسم.

من تحية إلى تحية، يمشي الشاعر على الشارع كأنه يمشي في قصيدة غير مرئية، يفتتحها شيخ مغربي ينحني على كسرة خبز... ينفض عنها التراب، ويقبِّلها ويَدَّخرها رزقاً للطيور في ثغرة جدار. ولي في مدينة الرباط مكان شخصي هو مسرح محمد الخامس. هناك تمتلئ نفسي بما ينقصها من ضفاف. ما أَعرفه عن نفسي – وهو قليلٌ – يكفي لأن أتوحَّد مع هذا المعبد المفتوح لمفاجآت الإلهام. كأني هناك لا أَقرأ ولا أُنشد، بل أَرتجل ما يملي عليَّ الصمتُ والضوء الخافت والعيونُ التي ترسل الإشارات، فأصوغها في عبارات وأعيدها إلى أيدٍ تمسك بها كما لو كانت مادة شفَّافة، مصنوعةً من هواء. كأني أقرأ شعر غيري، فأطرب لأنه شعر غيري. وأنا لا أنا إلاّ بقدر ما يكون الشعر هو الشاعر. لكنني أسترق النظر إلى فتاة تضحك وتبكي في ركن القصيدة القصيّ، فأبكي وأَضحك لها

متواطئاً معها على فتح أبواب المسرح للتأويل. وللمغاربة أن يقولوا: نحن مَنْ أوحى إليه!

وصف

مَرَّتْ كحادثةٍ،
على الكتفين صَقْرانِ استراحا في العُلُوِّ ...
وصدرها يعلو ويهبط مثل فِعْل الحُبِّ،
يحمل توأمين تغامزا وتقافزا فوق الرخام...
وركبتاها ترسلان البرق للأعمى ...
وساقاها عمودا هيكلٍ من مَرْمَرٍ
يتبادلان الريحَ والإعجازَ ...
والقدمان عصفوران شرّيران جوِّيان ـ برّيانِ
والشَعْرُ المبعثر في مهبّ الريح
بيرقُ عسكريٍّ يفتح الصحراء ...

والعينان لا تتطلّعان إلى ضحاياها
فلا أَحدٌ رأى العينين كي يروي
بأيِّ بنَفْسَجٍ صَرَعَتْهُ
تلك المرأةَ - الجنيَّةُ - القَدَرُ
التي مَرَّتْ كحادثة ...
ولكني نجوتُ، ولم يُصِبْني أيُّ سوء
غير ضعف الوصف في هذي القصيدة!

في سكوغوس

سكوغوس، من ضواحي ستوكهولم. غابةٌ من أشجار البتولا والصنوبر والحور والكرز والسرو. وسليم بركات في عزلته المنتقاة بمهارة المصادفة التي تهبُّ بها الريح على المصائر. لا يخرج منها منذ صار جزءاً من المشهد، محاطاً بطيور الشمال: العقعق والغراب وكسَّار الجوز ونقَّار الخشب والزرياب والقُرْقُفُ والشحرور الأسود والسمَّان والذيل الحرير. صادقها ريشاً ومنقاراً وذيلاً وهجرة، ومنحها صفاتٍ

كُرديَّةً من مشتقات القلق، لا ليكسر العُزلة، بل ليؤثِّث شروط الإقامة في البعيد ... بعيداً عما يفعل الكُتَّاب بالكتاب إذا غاروا من بلاغة المنفيّ ... وقريباً من أُلْفَةِ السناجب، والأرانب والغزلان والثعالب التي تلقي عليه التحية عبر النافذة، وتهرب وتلعب خلف تمارينه اللغوية. يستيقظ على تحرُّشات الطير بزجاج البيت المبنيّ بالطوب والخشب. يجرُّ عربته الصغيرة إلى سوق اللحم: نداءِ الحسيّ للحسيّ. يختار منه الصريح المتعطِّش إلى تدريب المتوحِّش على آداب الطهو. ويختار، لتأجيج الرغبة بين الآكل والمأكول، توابلها الحارقة الحاذقة... الفُطْر المخصَّص لمذاق التورية، ونبيذاً شيرازيّ النَّسَبِ يُوقِظُ في الشاعر نزعته إلى الطرب في خريف المنفى. يجرُّ عربته الصغيرة وسط الغابة برفقة طيور الشمال التي تعرفه من فانيلّته المبلَّلة بالمطر والعرق.

فلا أَحد سوى كرديّ مثله يتجاسر على مناخ البلطيق. وهو إذ يهجس الآن فلا يهجس إلاَّ بالطهو: قصيدةِ نهاره المرئية. الطهو موهبة اليد المدرَّبةِ على وضع الملائم في الملائم، وعلى إدراك المتخيّل الشعوري بالرائحة والطعم، وعلى إبداع المعنى الحسي مما كان بدائي الشكل. الطّهْوُ شِعْرُ الحواس إذا اجتمعت في يد ... قصيدةٌ تؤكل ولا تتحمَّل خللاً في التوازن بين العناصر. وسليم بركات لا يتحمَّل الثناء، منذ صار سريع البكاء!

جهة المنفيّ

يَتَلَفَّتُ المنفيُّ نحو جهاتِهِ
وتفرُّ منه المفرداتُ – الذكرياتُ
ليس الأمام أَمامَهُ
ليس الوراء وراءَهُ
وعلى اليمين إشارةٌ ضوئيةٌ
وعلى اليسار إشارةٌ أُخرى
فيسأل نفسه:
من أَين تبتدئ الحياةُ؟
- لابُدَّ لي من نرجسٍ
لأكون صاحب صورتي!

ويقول: إنَّ الحُرَّ مَنْ يختار منفاهُ
لأَمرٍ ما ...
أَنا حُرٌّ إذن
أَمشي ... فَتَتَّضحُ الجهاتُ

بوليفار سان ـ جيرمان

يقول لي جورج شتاينر: على الشاعر أن يكون ضيفاً ...

أقول: ومضيفاً!

□

الأوراقُ الذابلةُ، النازلةُ من شجرٍ يَتَعرَّى، كلمات تبحث عن شاعر ماهر يُعيدها إلى الأغصان!

□

كلما تخفَّى الإيقاعُ في الصورة صار موسيقى

مصاحبة للفكرة!

□

جالساً مع پيتر بروك، تحلِّق فوقنا طيور أرسطوفان وفريد الدين العطار في رحلة مشتركة إلى تُخوم المعنى.

□

منفى؟ يحنُّ إليه الزائر، لأنه نزهة الطائر في رحلة لا يسأله فيها أحد: ما اسمك؟ وماذا تريد؟

□

في الحافلة، أَتطلّع إلى الرصيف، فأراني جالساً على مقعد المحطة في انتظار حافلة!

□

أَلتَظَاهُرُ بالحياد الصعب، في القصيدة والرواية، هو الجريمة الأخلاقية الوحيدة التي تُغْتَفَر!

□

كَسْرُ الإيقاع، بين حين وآخر، هو ضرورة إيقاعية.

□

أَتْرُكُ الجانب الآخر من حياتي، حيث يريدُ الإقامة. وأَتبع ما تبقَّى من حياتي بحثاً عن الجانب الآخر منها.

□

إحساسي يقفز مني، يحمل مظلَّةً ويسير تحت المطر. إحساسي فِعْلٌ خارجيٌّ كالمطر.

□

رياح الخريف تكنس الشارع، وتعلِّمني مهارة الحذف. الحذف كتابة.

يكون الأمر مختلفاً

لا. لن يكون الأَمرُ مختلفاً كما
كنا نظنُّ ... لو انتظرنا ساعةً أخرى –
يقول لها... ويذهَبُ |

– ربَّما لو حطَّ عصفورٌ على كتفي
لكان الأمر مختلفاً –
تقول له ... وتذهَبُ |

يذهبان معاً. وينفصلان عند محطة المترو
كنصْفَيْ خَوْخَةٍ، ويودّعان الصيف ...

يعبر عازفُ الجيتار بينهما، ويضحك
عندما يبكي. ويبكي حين يضحك قائلاً:
لا. قد يكون الأمر مختلفاً لو استمعا
إلى الجيتار في الوقت المناسب.
قلتُ: كلا! قد يكون الأمرُ
مختلفاً لو التفتا إلى ظلّيهما يتعانقان
ويعرقان ويسقطان على الرصيف
كمثل أوراق الخريف!

حياة مبتدئة

في حانوت خبز، على ناصية شارع باريسي ضيِّق ... أَحتسي قهوتي الأولى. صباحاً تختلط رائحة الخبز برائحة القهوة، وتوقظان فيَّ شهية على حياة طازجة حياة مبتدئة، وعلى سلام طوعي مع الأشياء الصغيرة، ومع حمامات تُؤْثِرُ المشي بين المارة والسيارات على الطيران. لا أَجد غيري يجلس وحيداً إلاَّ من دفتر يوميات. لكني أحس بأني أشارك السيدات المتقدمات في العمر حماستهنّ تجاه تفاصيل يروينها عن

حياةِ غيرهنّ. و أُشارك بائعات الخبز والنادلات الجميلات حيادهنَّ اللبق تجاه مغازلات الزبائن المتقدمين، أكثر مني، في السن. أَتباطأ في احتساء قهوتي لأحافظ على صحبة مفترضة مع ما حولي، فليس للغريب إلاَّ اختراع أُلفة ما مع مكان ما. و أَنا اخترت هذا الركن من حانوت الخبز لتأليف عادة يومية، كأني على موعد مع ذكريات مجتهدة تعتمد على نفسها في النمو. و أَسترسل في التفكير بتاريخ الخبز: كيف اكتُشِفَتْ حَبَّةُ القمح الأولى في سنبلةٍ خضراء مجدولةٍ كضفيرة. وكيف راقبها شخص ما إلى أن نضجت واصفَرَّتْ؟ وكيف خطر على باله أن يطحنها ويعجنها ويخبزها حتى وصل إلى هذه المعجزة؟ أَرى حقولاً بعيدة في زمن بعيد، وأتساءل: كم استغرق هذا الإبداع من الوقت؟ تعلو رائحة الخبز الطازج، وأنظر في ساعتي ... ثم أَعود من آلاف السنين إلى حياة مبتدئة!

يد التمثال

يَدُ التمثال، تمثالِ الجنرال أو الفنان،
ممدودةٌ لا لتحيَّة الشمس والمطر،
أو الجنود القدامى والمعجبين الجدد.
يَدُ التمثال ممدودةٌ كيد متسوِّل نبيل
يطلب تبرعاتٍ من العابرين، لا لمساعدته
على المشي .. بل لدفع نفقات الخلود.
فلا تحظى يَدُ الغرانيت الممدودةُ،
لا تحظى في أحسن الأحوال، إلاّ
بباقة وردٍ حملها رجلٌ إلى امرأة...
تَرَكَتْهُ وحيداً قرب التمثال!

في بيروت

بيروتُ: شمسٌ ومطر. بحر أَزرق / أَخضر وما بين اللونين من قُرْبَى ومصاهرة. لكن بيروت لا تشبه نفسها هذه المرة. تنظر إلى صورتها في المرآة، وتسأل: لماذا تريدين أن تشبهي غيرك يا جميلة؟ تضع جمالها على موجة قلقة، وتخفي أدواتِ الزينة في الأدراج. تُسَرِّحُ شعرها بيدين نزقتين وتنتظر، دون أن تعرف ما تنتظر كوردة على قارعة الطريق العام. لكن المناخ مكتظ بأسرار

الغيوم القادمة من جهتين: من الصحراء ومن البحر ... ولا سيطرة للخيال على فوضى المفاجآت. تضع خيالها جانباً، وتُسْلِمُ نفسها لأغنية تمدح اللامعنى دون أن ترقى إلى شرف العبث. بيروت محرومة من نسيان جرحها، ومحرومة من تَذَكُّر غدها المتروك لرمية نرد في لعبة بلا قواعد، كتجريبيّة شعر ما بعد الحداثة في مقاهيها الخالية من الرُوَّاد. لا أَحد يربح، والكل خاسر، حتى لو قال صديقي أنسي الحاج «والرابح يخسر والخاسر يربح». بيروت الحزينة تُخَدِّر حزنها بأغنية سابقة عن زمن سابق: عن ريفٍ وأَرْزٍ وبراءة ومُبَارَزَةٍ بين عاشقين على عروس. فينام الحزن لساعات، لكن الخوف لا ينام. بيروت خائفة على نفسها ومن نفسها، ومما تعدُّ لها العاصفة من معلومٍ في صورة مجهول!

عودة حزيران

أَربعون حزيران: دَبَّابةٌ في الطريق إلى
البيت. بُرْجُ مُراقَبَةٍ عسكريٌّ لرصد الطيور.
حمام يُحَلِّقُ في نصف دائرةٍ. نَخْلَةٌ عاقرٌ.
ضَجَرٌ فاجر يقتل الأخُ فيه أَخاه، ويهرب
من أُمِّه. وشعارٌ يضيء الشوارع: «نحن
نحبُّ الحياة ونكره أَعداءها». شارع ضيِّق
لا تمرُّ به الفتيات. مظاهرة للتلاميذ
ضدَّ الخرائط. «لا ربَّ ينزل عن
عرشه» ـ قال لي عابر ساخر: ليس
لي بَطَلٌ منذ جاء حزيران مسترسلاً.

أنا واللّهُ صرنا وحيدين! ما الزمن
الآن؟ ـ في ساعتي خَلَلٌ ـ قلتُ.
قال: وفي ساعتي خلل مزمنٌ. مَرَّتِ
الشاحنات تُقِلُّ بضائعَ عبريَّةَ التسميات:
صناديق ماء. فواكه. قمحاً وخمراً. فقال:
كأنَّا نسينا ينابيعنا والكروم وأَسماءنا،
وكأنَّ القناع هو اسم الهوية: أَنْ لا
نُرَى واضحين نرَى الغامضين هنا جيِّداً.
وهنا أَربعون حزيران. أَرض تَقِلُّ وسُكَّانُها
يكثرون ... يفيضون عن حاجة العشب للفقراء
وعن حاجة الإشكناز إلى العَمَل العربيّ.
ولكنهم يصمدون، ولو مرغمين، ولا يرحلون
إلى كندا. هذه أَرضنا، والسماء حقيقيَّةٌ
لا مجاز ... وعاليةٌ مثل آمالنا. قال لي:
هل حزيران ذكرى؟ فقلت: هي الجرحُ
ينزف حيّاً وحيّاً، ولو قال صاحبه: قد
نسيتُ الألَم!

ليتنا نُحْسَد

تلك المرأةُ المهرولةُ، المُكَلَّلة ببطانيةِ صوفٍ وجرَّة ماء ... وتجرُّ بيدها اليمنى طفلاً، وبيدها اليسرى أُختَه. ومن ورائها قطيع ماعز خائف. تلك المرأة الهاربة من ساحة حرب ضيِّقة إلى ملجأ غير موجود ... أَعرفها منذ ستِّين عاماً. إنها أُمي التي نسيتني على مفترق طرق، مع سلّة خبز ناشف وشمعة وعلبة كبريت أَفسدها الندى.

وتلك المرأة التي أراها الآن في الصورة

ذاتها على شاشة تلفزيون مُلَوَّن ... أَعرفها جيداً منذ أربعين عاماً. هي أُختي التي تكمل خطى أُمِّها ـ أُمِّي في سيرة التيه: تهرب من ساحة حرب ضيِّقة إلى ملجأ غير موجود.

وتلك المرأة التي سأراها غداً في المشهد ذاته، أَعرفها هي أيضاً. إنها ابنتي التي تركتها على قارعة القصائد، كي تتعلَّم المشي فالطيرانَ إلى ما وراء المشهد. فلعلَّها تثير إعجابَ المشاهدين وخيبةَ القنَّاصة. إذ إنّ صديقاً ماكراً قال لي: آن لنا أَن ننتقل، إذا ما استطعنا، من موضوع يُشْفَق عليه إلى ذاتٍ تُحْسَد!

أنت، منذ الآن، غيرك

هل كان علينا أَن نسقط من عُلُوّ شاهق، ونرى دمنا على أَيدينا ... لندرك أَننا لسنا ملائكةً كما كنا نظن؟

□

وهل كان علينا أن نكشف عن عوراتنا أمام الملأ، كي لا تبقى حقيقتنا عذراء؟

□

كم كذبنا حين قلنا: نحن استثناء!

□

أن تصدِّق نفسك أسوأُ من أن تكذب على غيرك!

□

أن نكون ودودين مع من يكرهوننا، وقساةً مع من يحبوننا – تلك هي دونية المتعالي، وغطرسةُ الوضيع!

□

أَيها الماضي! لا تغيِّرنا... كلما ابتعدنا عنك!

أيها المستقبل! لا تسألنا: مَنْ أَنتم؟ وماذا تريدون مني؟ فنحن أيضاً لا نعرف.

أَيها الحاضر! تحمَّلْنا قليلاً. فلسنا سوى عابري سبيل ثقلاء الظل!

□

أَلهوية هي ما نُورِثُ لا ما نَرِث. ما نخترع لا ما نتذكر. الهوية هي فساد المرآة

التي يجب أن نكسرها كلما أَعجبتنا الصورة!

□

تَقَنَّعَ وتَشَجَّعَ، وقتل أمّه ... لأنها هي ما تيسَّر له من الطرائد ولأن جنديَّةً أوقفته وكشفتْ له عن نهديها قائلة: هل لأمك يا ابن الزانية ... مثلهما؟

□

لولا أن محمداً هو خاتم الأنبياء، لصار لكل عصابة نبيّ، ولكل صحابي ميليشيا!

□

أَعجبنا حزيران في ذكراه الأربعين: إن لم نجدْ من يهزمنا ثانية هزمنا أَنفسنا بأيدينا ... لئلا ننسى!

□

مهما نظرتَ في عينيَّ، فلن تجد نظرتي هناك. خطفتها فضيحة!

□

قلبي ليس لي ... ولا لأحد. لقد استقلَّ عني دون أن يصبح حجراً.

□

هل يعرف مَنْ يهتف على جثة ضحيته – أخيه: «الله أكبر» أنه كافر إذ يرى الله على صورته هو: أَصغرَ من كائن بشريّ سويٍّ التكوين.

□

أَخفى السجينُ، الطامحُ إلى وراثة السجن، ابتسامة النصر عن الكاميرا. لكنه لم يفلح في كبح السعادة السائلة من عينيه. ربما لأنَّ النصّ المتعجِّل كان أقوى من المُمَثِّل.

□

ما حاجتنا للنرجس ... ما دمنا فلسطينيين؟

□

وما دمنا لا نعرف الفرق بين الجامع والجامعة، لأنهما من جذر لغوي واحد، فما حاجتنا

للدولة ... ما دامت هي والأيام إلى مصير واحد؟

□

لافتة كبيرة على باب نادٍ ليليّ: نرحِّب بالفلسطينيين العائدين من المعركة. الدخول مجاناً. وخمرتنا لا تُسْكر!

□

لا أستطيع الدفاع عن حقي في العمل، ماسحَ أحذيةٍ على الأرصفة، لأنَّ من حقّ زبائني أن يعتبروني لصَّ أحذية ـ هكذا قال لي أستاذ جامعيّ!

□

«أنا والغريب على ابن عمِّي. وأنا وابنْ عمي على أخي. وأنا وشيخي عليَّ». هذا هو الدرس الأول في التربية الوطنية الجديدة، في أقبية الظلام.

□

مَنْ يدخُلُ الجنة أولاً؟ مَنْ مات برصاص العدو، أم من مات برصاص الأخ؟ بعض الفقهاء يقول: «رُبَّ عَدُوّ لَكَ ولدته أمُّك»!

□

حار الفقهاء أمام النائمين في قبور متجاورة: هل هم شهداء حرية؟ أم ضحايا متناحرة في عبث المسرحية؟ حار الفقهاء واتفقوا على أمر واحد هو: أن الله أعلم.

□

القاتل قتيل أيضاً!

□

سألني: هل يدافع حارس جائع عن دارٍ سافَر صاحبها، لقضاء إجازته الصيفية في الريفييرا الفرنسية أو الإيطالية ... لا فرق. قلت: لا يدافع!

□

وسألني: هل أنا + أنا = اثنين
قلت: أنت وأنت أَقَلُّ من واحد.

□

لا أَخجل من هويتي، فهي ما زالت قيد التأليف، لكني أخجل من بعض ما ورد في مقدمة ابن خلدون!

□

أنت، منذ الآن، غيرك!



أَنت، منذ الآن، أَنت

الكرمـلُ فـي مكانـه السـيِّد . . . ينظر من عـلٍ إلى البحـر. والبحـر يتنهَّـد، موجـةً موجـةً، كامـرأةٍ عاشقةٍ تغسل قَدَمَيْ حبيبها المتكبِّر!

□

كأنـي لـم أَذهـب بعيـداً. كأنـي عُـدْتُ مـن زيـارة قصـيرة لـوداع صـديقٍ مسـافر، لأجـد نفسـي جالسـةً في انتظـاري على مقعـد حجري تحت شجرة تُفَّاح.

□

كل ما كان منفى يعتذر، نيابةً عني،
لكُلّ ما لم يكن منفى!

□

ألآن، الآن وراء كواليس المسرح،
يأتي المخاض إلى عذراء في الثلاثين،
وتلدني على مرأى من مهندسي الديكور،
والمصوِّرين!

□

جرت مياه كثيرة في الوديان والأنهار.
ونبتت أعشاب كثيرة على الجدران. أَمَّا
النسيان فقد هاجر مع الطيور المهاجرة ...
شمالاً شمالاً.

□

ألزمن والتاريخ يتحالفان حيناً، ويتخاصمان
حيناً على الحدود بينهما. الصفصافةُ العاليةُ
لا تأبه ولا تكترث. فهي واقفة على
قارعة الطريق.

□

أَمشي خفيفاً لئلاَّ أكسر هشاشتي. وأَمشي ثقيلاً لئلاَّ أَطير. وفي الحالين تحميني الأرض من التلاشي في ما ليس من صفاتها!

□

في أَعماقي موسيقى خفيَّة، أَخشى عليها من العزف المنفرد.

□

ارتكبتُ من الأخطاء ما يدفعني، لإصلاحها، إلى العمل الإضافيّ في مُسَوَّدة الإيمان بالمستقبل. من لم يخطئ في الماضي لا يحتاج إلى هذا الإيمان.

□

جبل وبحر وفضاء. أطير وأسبح، كأني طائرٌ جوّ – مائي. كأني شاعر!

□

كُلُّ نثر هنا شعر أوليّ محروم من صَنْعَة الماهر. وكُلُّ شعر، هنا، نثر في متناول المارة.

□

بكُلِّ ما أُوتيتُ من فرح، أُخفي دمعتي عن أوتار العود المتربِّص بحشرجتي، والمُتَلصِّص على شهوات الفتيات.

□

ألخاص عام. والعام خاص ... حتى إشعار آخر، بعيد عن الحاضر وعن قصد القصيدة!

□

حيفا! يحقّ للغرباء أن يحبُّوكِ، وأن ينافسوني على ما فيك، وأن ينسوا بلادهم في نواحيك، من فرط ما أنت حمامة تبني عُشَّها على أنف غزال!

□

أنا هنا. وما عدا ذلك شائعة ونميمة!

□

يا للزمن! طبيب العاطفيين .. كيف يُحوِّل الجرح ندبة، ويحوِّل الندبة حَبَّة سمسم. أنظر إلى الوراء، فأراني أركض تحت المطر. هنا،

وهنـا، وهنـا. هـل كنـتُ سـعيداً دون أن أدري؟

□

هي المسـافة: تمرين البصـر على أعمال البصيرة، وصقلُ الحديد بناءٍ بعيد.

□

جمـال الطبيعة يهـذِّب الطبائع، ما عـدا طبائع مَنْ لـم يكن جزءاً منها. الكرمل سـلام. والبندقية نشاز.

□

علـى غيـر هُـدىً أمشـي. لا أبحث عن شـيء. لا أبحـث حتـى عـن نفسـي فـي كل هـذا الضـوء.

□

حيفا في الليل ... انصـراف الحواس إلى أشـغالها السرية، بمنأى عن أصحابها الساهرين على الشرفات.

□

يـا للبداهـة! قاهـرة المعـدن والبرهـان!

□

أُداري نُقَّـادي، وأُداوي جـراح حُسَّـادي علـى

حبِّ بلادي ... بزِحافٍ خفيف، وباستعارة حَمَّالةِ أَوجُه!

□

لم أَرَ جنرالاً لأسأله: في أيّ عام قَتَلْتَنِي؟ لكني رأيتُ جنوداً يكرعون البيرة على الأرصفة. وينتظرون انتهاء الحرب القادمة، ليذهبوا إلى الجامعة لدراسة الشعر العربي الذي كتبه موتى لم يموتوا. وأَنا واحد منهم!

□

خُيِّل لي أن خُطَايَ السابقة على الكرمل هي التي تقودني إلى «حديقة الأم»، وأَن التكرار رجع الصدى في أُغنية عاطفية لم تكتمل، من فرط ما هي عطشى إلى نقصان متجدِّد!

□

لا ضباب. صنوبرة على الكرمل تناجي أَرزة على جبل لبنان: مساء الخير يا أُختي!

□

في قلبي منطقةٌ ما، غيرُ مأهولة، تُرَحِّبُ

بالصغار الباحثين عن حيِّز غير محتل، لنصب مُخَيَّم صيفيّ!

□

أَعْبُرُ من شارع واسع إلى جدار سجني القديم، وأقول: سلاماً يا مُعَلِّمي الأول في فقه الحرية. كُنْتَ على حق: فلم يكن الشعر بريئاً!

□

هل قال أحدهم: إن سيد الكلمات هو سيّد المكان؟ ليس هذا زهواً ولا لهواً. إنه أُسلوب الشاعر في الدفاع عن جدوى الكلمات، وعن ثبات المكان في لغة متحركة!

□

لرائحة الشجر الصيفية نكهة إيروسية. هنا تداخلتُ في العشب والزَّغَب والنَّمَش وسواه، تحت ضوء القمر!

□

حيفا تقول لي: أنت، منذ الآن، أنت!

المحتويات



مكتبة
t.me/soramnqraa

P R O S E W O R K S

الأعمال النثرية

في حضرة الغياب
حيرة العائد
أثر الفراشة

telegram
@soramnqraa

محمود درويش



مؤسسة محمود درويش، رام الله، فلسطين

دار الناشر
رام الله، فلسطين / هاتف 2961911 2 00970
عمّان، الأردن / هاتف 5694861 6 00962



الأردن، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2019
الغلاف: ® ☎ 95297109 7 00962

ISBN 978-9950-385-81-8
9 789950 385818